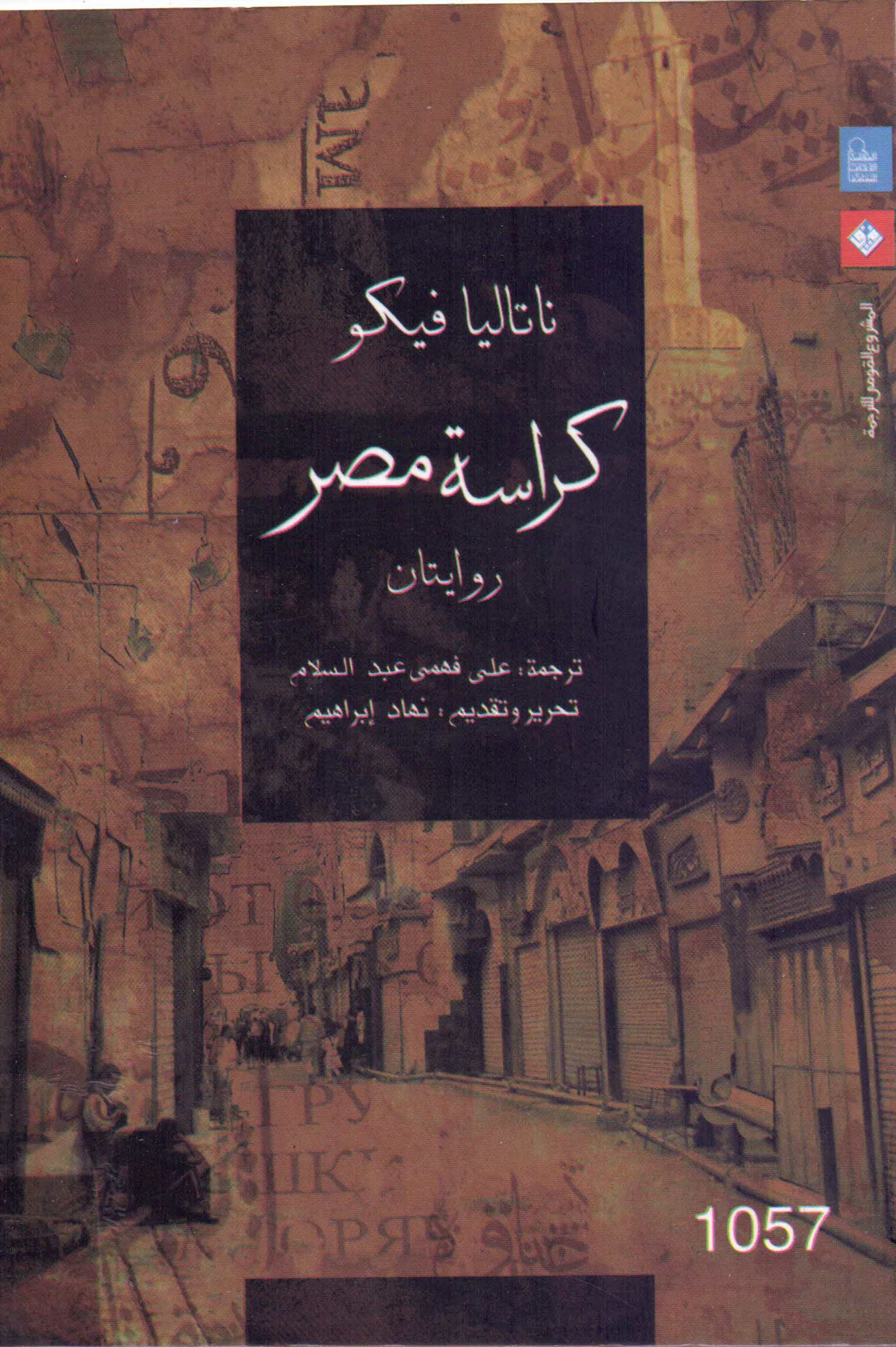

ناتاليا فيكو
كراسة مصر
روايتان
ترجمة: على فهمى عبد السلام
تحرير وتقديم: نهاد إبراهيم
1057
المشروع القومى للترجمة

الفن لعبة... كل أنواع الفن لعبة... والمؤلف الروائى بوصفه المبدع الوحيد لعمله يبتكر إنتاجه على صفحاته ويستمتع به، ويستمتع أكثر بشخصياته التى صنعها بيديه، ويتركها تنمو وتتضح أمامه بعدما حولها من مجرد أفكار طائرة مجردة إلى تكوينات محسوسة ملموسة يرسم لها مصيرها، فيدفع بهذه ويخبئ هذه، يسامح ويعاقب، يصنع لنفسه داخل نفسه عالماً متكاملاً من نسيج لعبة يلعبها هو وحده منه وإليه.

يضم هذا الكتاب روايتين: الأولى بعنوان الكتاب نفسه، والثانية بعنوان "نوافذ يعقوب"، وإذا رجعنا إلى السيرة الإبداعية للمؤلفة الروسية، فسنجد أن هاتين الروايتين كانتا فى الأصل جزءاً من الكتاب الروسى "عناكب فى المصيدة" الذى ضم خمس روايات هى: "عناكب فى المصيدة" و"ليلة اكتمال القمر" و "امرأة فى قلب السعادة"، بالإضافة إلى هاتين الروايتين، وما يعنينا فى هذا الأمر بعد هذا التقسيم هو استمرار سيطرة تأثير المجتمع الروسى المعاصر على كل الروايات الخمس.

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوى

كراسة مصر

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٠٥٧
- كراسة مصر (روايتان)
- ناتاليا فيكو
- على فهمى عبد السلام
- نهاد إبراهيم
- الطبعة الأولى : ٢٠٠٦

هذه ترجمة كتاب

ЕГИПЕТСКАЯ
ТЕТРАДЬ

Наталия
ВИКО

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

المشروع القومى للترجمة

كراسة مصر

(روايتان)

تأليف : ناتاليا فيكو

ترجمة : على فهمى عبد السلام

تحرير : نهاد إبراهيم



٢٠٠٦

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

فيكو ، ناتاليا

كراسة مصر : روايتان / تأليف ناتاليا فيكو ؛ ترجمة على فهمى ، مراجعة نهاد إبراهيم - ط ١٠ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦

٢٧٢ ص ؛ ٢٤ سم - المشروع القومى للترجمة ؛ العدد ١٠٣٤

١ - القصص

أ - فهمى ، على (مترجم)

ب - إبراهيم ، نهاد (مراجع)

جـ - العنوان ٨٠٨,٨٣

رقم الإيداع ٢٠٠٦/٢١٧٢٧

الترقيم الدولى I.S.B.N 977-437-081-3

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المحررة(*)

الفن لعبة ... كل أنواع الفن لعبة ... والمؤلف الروائى بصفته المبدع الوحيد لعمله يبتكر إنتاجه على صفحاته ويستمتع به ، ويستمتع أكثر بشخصياته التى صنعها بيديه ، ويتركها تنمو وتنضج أمامه بعدما حولها من مجرد أفكار طائرة مجردة إلى تكوينات محسوسة ملموسة يرسم لها مصيرها ، فيدفع بهذه ويخبئ هذه ، يسامح ويعاقب ، يصنع لنفسه داخل نفسه عالمًا متكاملاً من نسيج لعبة يلعبها هو وحده منه وإليه . لكن اللعبة مهما كانت درجة براعتها وإبداعها وقوتها بلا جمهور لا تساوى شيئا ، وستظل دائما لعبة سرية فى الظلام لا تجد من يشجعها ويهتف لها أو ضدها ، فتذبل وتنزوى وتموت بغير رجعة .

إن استقبالنا هذا الكتاب بالقراءة العامة أولا ، ثم القراءة المتخصصة ثانيًا ، والتعامل معه بأدوات النقد والتحليل ، يهدف أولاً وأخيرًا ليس إلى فتح أبواب التأويل كهدف فى حد ذاته ، لكنها وسيلة تعين الخيال على الاستمتاع بمراسم وقوانين اللعبة أكثر وأكثر . يضم كتاب " كراسة مصر " روايتين .. الأولى بعنوان الكتاب نفسه ، والثانية بعنوان " نوافذ يعقوب " ، وإذا رجعنا إلى السيرة الإبداعية للمؤلفة الروسية ، سنجد أن

هاتين الروايتين كانتا فى الأصل جزءا من الكتاب الروسى " عناكب فى المصيدة " الذى ضم خمس روايات هى : " عناكب فى المصيدة " ، و" ليلة اكتمال القمر " ، و" امرأة فى قلب السعادة " ، بالإضافة إلى هاتين الروايتين ، وما يعنينا فى هذا الأمر بعد هذا التقسيم هو استمرار سيطرة تأثير المجتمع الروسى المعاصر على كل الروايات الخمس ، مما يمنحنا فى هذه الدراسة خطوطًا مشتركة سواء بين روايتى هذا الكتاب من ناحية ، أو بين كل الروايات الخمس من ناحية أخرى ، إذا تعاملنا بمفهوم المنظور المتسع الذى يستوعب كل هذه الأعمال تحت مظلة واحدة ، وإلا مـا الداعى إلى جمع المؤلفة كل الروايات الخمس فى كتاب واحد من الأصل ؟

ومن الطبيعى أن ينصب تركيز هذه الدراسة على روايتى " كراسة مصر " ، و" نوافذ يعقوب " مع التطلع إلى مقارنات فى حينها بين الروايات الثلاث الأخرى ، بعدما أفردنا دراسة تفصيلية لها فى كتاب " عناكب فى المصيدة " الذى صدر عام ٢٠٠٥ ويحمل رقم ٨٣٧ ضمن " المشروع القومى للترجمة " بالمجلس الأعلى للثقافة . ومثلما فعلنا فى كتابى المؤلفة " عناكب فى المصيدة " ، و"موزاييك الحب والموت " ، نبدأ دراستنا بتوضيح أن الهدف من هذه السطور هو البحث عن خطوط مشتركة بين الروايتين بنظرة جمعية شمولية ، فى محاولة للإجابة عن بعض التساؤلات التى تولدت فى الذهن أثناء صياغة هذه الأعمال ، والعثور على بعض المفاتيح الفنية الفكرية بعد تنوير بعض النقاط التى وقع عليها اختيارنا لأهميتها . وسنعتمد فى هذه الدراسة على منهج

النقد التفاعلى الذى يمزج بين النص الأدبى وسياقه العام المحيط فى مجتمعه حتى لا يأخذنا أى تيار على حساب الآخر ، وحتى تتم الاستفادة من كل الاتجاهات ومميزات المناهج المختلفة فى تكوين رؤية لتنوير الكثير من مناطق العمل الأدبى بوعى ، وتحليل طبقاته المتعددة والمختلفة برؤية فنية سوسيولوجية . ونلاحظ هنا أن الزمن الأساسى فى هاتين الروايتين هو الزمن الحاضر الذى يتعامل بصراحة مع المجتمع الروسى المعاصر بعد انهيار الاتحاد وتفكك دويلاته ، استمرارا لزمن روايات " عناكب فى المصيدة " نفسه ، وهو ما يختلف عن زمن رواية " موزاييك الحب والموت " التى قدمت تشريحًا لمجتمع الاتحاد السوفييتى السابق قبل الثورة الروسية البلشفية ١٩١٧ وبعدها ، حتى فترة حكم ستالين .

من زوايا مختلفة

اتفقنا من البداية أن الفن ما هو إلا لعبة يلعبها الجميع من مُرسل ومُستقبل باستمتاع كامل لما تكفله للاثنين من حرية يفتقدها فى الحياة ويفتش عنها بكل طاقته . وكلما ارتفع مستوى فن إبداع اللعبة ارتفعت معه أسهم كل الأطراف المشاركة فيها ، وبما أن الروائى هو المتصرف الوحيد فى شئون كل الأفراد وهذا من حسن حظه وحسن حظ حرية خياله ، دون التقيد بقيود الفنون الأخرى مثل آليات السوق وما شابه ؛

فقد استوعبت مؤلفة هذا العمل قواعد هذه اللعبة جيدا وأطلقت العنان لخيالها ليبنى عدة مستويات داخل إطار كبير يضم الجميع ليؤدوا وظيفتهم منفصلين أو مجتمعين بالتنافر وبالتبادل فى الوقت نفسه ، مع الأخذ فى الاعتبار ضرورة تفريغ الملعب الرئيسى لطرف أو لطرفين معًا على أقصى تقدير ، ثم سحب أوراقهما فى الوقت المناسب ليفرغا مكانهما لغيرهما اللذين يعيدان الكرّة من جديد وهكذا.

والحقيقة أن تكنيك هاتين الروايتين يقوم على أساس مظلتين كبيرتين وليست مظلة واحدة ، تستمر الأولى معنا مهما اختلفت الروايتان ، وهى التى يعود مردودها إلى عنوان سلسلة المؤلفة الروسية التى تطلق عليها " سحر اللعبة " . بالعودة إلى رمز قطعة الوزير المنتقاة من لعبة الشطرنج لتكون شعار كل رواياتها ، سندرك أن المؤلفة تعتمد بشكل كبير فى روايتيها " كراسة مصر " ، و" نوافذ يعقوب " ، وأيضا فى روايات كتاب " عناكب فى المصيدة " على شخصية درامية تشبه قطعة الوزير داخل جيش الملك ، بكل ما ينطبق عليها من هيبة ووقار ودهاء على مستوى الفكر والتنفيذ بشكل غير مباشر ، وهى التى تتوارى بين الجميع فى الوقت المناسب وكأنها لم تفعل شيئا ، مع أنها فى واقع الأمر الشخصية المحركة لكل الخيوط . فالملك هو الملك ... واضح كالشمس يرهبه الجميع لأنه يملك سلطة مباشرة ولا يخطو خطوة دون أن تعرف الدنيا كلها ، مما يمنح الفرصة لأعدائه للاختباء حتى يعثروا له على نقطة ضعف أو ينتظروا له ذلة ما قدرية أو مرتبة . أما الوزير فهو ملك

الدولة الحقيقى الذى يدير كل شىء أمام عينى الملك أو من وراء ظهره. وكثيرًا ما تعتمد عليه الوسائط الفنية مثل فن السينما وبخاصة فى الأفلام السياسية أو أفلام الجريمة والإثارة المحبوكة ؛ لهذا يُفرِّق المؤلف الكبير سِد فيلد فى كتابه الشهير " السيناريو " بين " الشخصية الرئيسية " التى تجيد التخطيط والتدبير من بعيد ولا تظهر إلا ربما فى المشهد الأخير ، وبين " الشخصية الأساسية " التى تنفذ كل ما يخطط له هذا الآخر ، مع الأخذ فى الاعتبار أن صفتى " الرئيسية " و" الأساسية " تتشابهان من حيث المعنى إلى حد التطابق فى اللغة العربية ، لكنه مأزق ترجمة المصطلحات الذى يواجهنا فى الكثير من الأحيان ... ونلاحظ أننا حددنا أن اجتماع هاتين الشخصيتين يتجلى أكثر الأحيان فى البناء الفنى السياسى والبوليسى ، وإذا عدنا إلى روايتى هذا الكتاب وأيضا روايات كتاب " عناكب فى المصيدة " الثلاثة سنجدها تعتمد على اجتماع ثنائية هاتين الشخصيتين " الرئيسية / الأساسية " فى بوتقة واحدة لأنه فى الحقيقة لا وجود لإحداهما دون الأخرى ، كما أن بناء الروايات الخمس يمزج بين البناء البوليسى الذى تتخذه المؤلفة إطارًا عامًا شبه مضلل ، والإطار السياسى الضارب فى الأعماق ، ولهذا نجد العناصر التالية تتكرر فى الروايات الخمس [حدوث جريمة - شخصية مضللة - شخصية متهمة - شخصية مختبئة - ضحية أو عدة ضحايا - تكشف الحقيقة فى اللحظات الأخيرة - ترك مساحة غامضة معلقة تفتح باب التأويل من المنظور الأبعد] . كل الأركان السابقة لا تجتمع

إلا تحت مظلة سحر لعبة الإبداع نفسها بعقلية الوزير التى تديرها من بعيد ، وهو نفسه الذى سيصل بنا إلى مظلة اللعبة الكبيرة الثانية التى تمثل ترديدا للفكر نفسه وتؤكد مدى إمكانية تطبيقه عمليا ، أى أن شخصية الوزير دائمًا ما تتجسد فى كل الروايات بصورة من الصور ، فهى على سبيل المثال المريضة تاتيانا فى رواية " كراسة مصر " ، وهى " إيلينا " المرأة شديدة الجاذبية والتسلط فى رواية " نوافذ يعقوب " ، وهو ما سنوضحه بشىء من التفصيل فى حينه حتى لا تحترق مفاجأة اكتشاف الحقيقة ونفسد متعة الاستقبال الأول .

ولنترك تحليل بقية طبقات الألعاب الداخلية إلى حينها ، لكننا لن نستطيع ترك المظلة الرئيسية الثانية من اللعبة الكبرى التى تقوم ببطولتها الشخصية الترديدية لدمية الوزير ، دون أن نشير إلى حيلة دائمة تلجأ إليها المؤلفة ، وهى الابتعاد عن التصريح قدر الإمكان بالشخصية المحركة الرئيسية ، وإلهاء القارئ مع شخصيات أخرى يتصور أنها هى التى تدير خيوط كل شىء لأنها تؤمن تمامًا بامتلاك هذه الموهبة فى نفسها ، وفى النهاية نصل مع هذه الشخصية المبالغة فى تقديرها لنفسها إلى المفارقة اللاذعة ، وهى أنها لم تكن تعرف نفسها حق المعرفة مثلما أوهمتنا وأوهمت ذاتها . ولنتوقف عند هذا المقطع المختار بين الطبيب ومريضته من رواية " كراسة مصر " لنوضح وجهة نظرنا بشكل عملى قريب ، ففى هذا الديالوج يمسك الطبيب بكل شىء فى يده ، يملى المريضة السؤال والإجابة بوصفه الشخصية

الرئيسية المتحكمة فى كل شىء ، لكن فى نهاية الرواية سيتضح أن الحقيقة شىء مختلف تماماً ..

" اقترب منها حتى كاد يلامسها

– اسمعى . وقتى قليل . ولد الشاعر بوشكين فى عام ١٧٩٩ ، أليس كذلك ؟

وأضاف بجدية ...

تذكرى جيداً ... فى عام ١٧٩٩ . وقتلوه فى عام ١٨٣٦ . عام ميلاد بوشكين هو رقم تليفونى دون آخر ثلاثة أرقام ... يعنى ... ١٧٩٩١٨٣

وراح يراقب الباب

– وماذا أيضا ؟ ماذا سأقول لك أيضاً ؟

– نبضك . لم ألحق أن أقيسه . اتفقنا ؟

بادلته الجدية : الأفضل أن أضرب نفسى بالرصاص .

التفت مرة أخرى إلى الباب . لعبة . كانت هذه لعبة ما اشترك هو فيها دون أن يفهمها وعندما فهم كان الأوان قد فات ، فقد خطا الخطوة الأولى وانتهى الأمر .

أمسكها سيرجى من كتفيها وهزَّها قليلاً ، فأجبرها أن تنظر إلى عينيه .

– أبداً لا تتصلى بى ... أبداً ... لأى سبب ".

المريضة أو البطلة هنا هى السيدة التى تستمع إلى أوامر الطبيب بكل صبر وطاعة ، ولأنه انجذب إليها أثناء الكشف عليها رسم لها خطة صغيرة كى تحفظ رقم تليفونه وبخاصة أن زوجها يقف بالخارج ... ونلاحظ أيضًا أن المؤلفة بوصفها سارد محايداً من الخارج بقدر ما يرى من فتحة النافذة الصغيرة قد أشارت بوضوح إلى بدء فعاليات " لعبة " ما ، لكننا سنكتشف فى النهاية أن كل هذا كان بناءً وهميًا . لكن المفارقة الأخرى أننا إذا قمنا بقراءة الرواية للمرة الثانية ، سندرك أن المؤلفة لم تكن تضلل القارئ بشكل كامل ، بل كثيراً ما قادته إلى الحقيقة وقادت معه الشخصية الواهمة المبالغة فى تضخيم ذاتها بين السطور ، لكنها فقط موجة الإرسال التى تتلهى فى التقاط العناوين الضخمة فوق السطح ، وتهمل التفصيلات الصغيرة المدسوسة رغم أنها ظاهرة ولو بقدر...

كما نلاحظ أيضًا أن تداخل اللعبات داخل بعضها البعض يحتاج بالضرورة إلى تُكَأة رقيقة لا نشعر بوجودها حتى لا يحدث تشويش ، وغالبًا ما تجد المؤلفة هذه التُكأة من خلال قدرة شخصية ما - أو عدة شخصيات - على التحليل والتخيل والتذكر ، أى التبحر بين الماضى والحاضر ، مما يفتح أفاقًا جديدة مرتبطة مع خبرات سابقة تكونت لدى المُستقبل بالفعل ، ومعها نرى الطرف القديم مشتبكا ولو على مستوى التخييل مع طرف آخر أو عدة أطراف أخرى لتوليد ثنائيات جديدة فى الصراع المطروح وهكذا ، وقد اخترنا المقطع التالى من رواية " نوافذ يعقوب " لأنه يحمل الدلالات التى نود التركيز عليها ...

" دخل دورة المياه وهو يحاول تحليل الموقف أثناء وقوفه تحت الدش البارد . من اليوم هو وجاكلين أصبحا عدوين . أكيد . لقد أهانها وهى لن تغفر له ذلك أبدا . يجب عليها الآن أن تخرج من تحت سيطرة زوجها وتبدأ فى تدمير اللعبة . وما إن تبدأ الأزمات مع زوجها ومع زبونها ، ستتقابل عيون جاكلين وجون فى الوقت المناسب وتقرأ كل المكتوب فيهما من حب وحنان ولهفة . عندها سيحاول جذب جاكلين لتقف إلى جانبه ، وسيفهم الاثنان أنهما كانا ضحية للعبة غريبة ، وأنهما لن يستطيعا الخروج منها إلا معًا ".

من هذا المنطلق تبدأ المؤلفة فى نسج أول خيوط العالم البديل الذى تصنعه لكل أبطالها بفعل الصراع القائم بينهم حسب المراحل الزمانية المكانية المختلفة ، بحيث يرى كل منهم جانبًا جديدًا أو مختفيًا فى مرآة الآخر ، ربما كان تائهًا عنه لسبب ما ، أو ربما كان وليدَ هذه اللحظة حتى إنه يفاجئ صاحبه على الهواء مباشرة ، وبالتالى تتحول العلامات الأيقونية ذات الدلالات الثابتة داخل تركيبة الشخصية إلى علامات دينامية تحمل دلالات مختلفة تمامًا وتنبعث منها إيحاءات متطورة لا تهدأ ، تبدأ من حالة الحركة الخفيفة حتى تصل إلى حالة الغليان الكامل . وهو ما يتسبب فى التغيرات الدائمة لأفعال الشخصيات ، وبالتالى ردود أفعال الأطراف الأخرى ، التى تُفاجأ بما يحدث من هذه النسخة البشرية الجديدة التى لم تعرفها من قبل . فعلى سبيل المثال سنجد أن المريضة ، بطلة رواية " كراسة مصر " ، تفاجئ الطبيب بالانجذاب إليه من النظرة

الأولى ردا على انجذابه إليها هو الآخر من النظرة الأولى ، لكن المفاجأة كانت فى التعبير عن هذا الانجذاب منها تجاهه . والمفاجأة التى نقصدها هنا لم تكن بالنسبة إليه كمستقبل وحيد ، لكن بالنسبة للسيدة المريضة الجميلة التى لم تعهد نفسها تتصرف بهذه الطريقة من قبل ، ثم تتولد المفارقة المثيرة عندما تلعب هى دور المُرسِل والمُستقبل فى آن واحد . وكثيراً ما تؤكد المؤلفة على هذه الدهشة عندما تترك مساحة للشخصية لتعلق على تصرفها السابق ، وأحياناً أخرى تتدخل المؤلفة بوصفها صوتاً سارداً من الخارج لتشير إلى المتغيرات التى حدثت فى هذه اللحظة تماما ، وتبدأ فى إنارة بعض المصابيح الحمراء التى تحذر من بداية عاصفة من التغييرات . وهذا ما يحدث على سبيل المثال فى رواية " نوافذ يعقوب " بين السيدة الجميلة جاكلين التى تضعها الظروف فى طريق الطبيب النفسى الشهير جون ، طبقًا لخطة مسبقة من أطراف أخرى على عدة مستويات لا نريد الكشف عنها ، لكن ما يهمنا هنا أنه بمجرد تحقق التقاء جاكلين وجون الذى لا يعلم عن هذه الخطة شيئًا ، ينقلب كل شيء رأسا على عقب عندما يرى كل منهما شيئًا مختلفًا داخل مرآة الآخر ، يعكس ما بداخل الطرفين وليس طرفًا واحداً . وكثيرا ما أكدت المؤلفة على استخدام المرآة وسيلة وغاية فى كل رواياتها الخمس وأيضًا فى رواية " موزاييك الحب والموت " لتحقق المرآة عدة وظائف فى وقت واحد ، ولا تقتحم اللحظة الحاضرة فقط ، لكنها أيضًا تقتحم لحظات الماضى القريب والبعيد . وسواء كانت هذه الذكريات حاضرة طازجة

أو كانت مختبئة فى دهاليز اللاوعى المظلمة ، فالمرآة دائمًا – كما تقول المؤلفة – تحتفظ بالصور القديمة . والصور القديمة التى تعنيها هنا بعد قراءة أعمالها هى التى ترمى إلى النبش فى ماضى الشخصية نفسها أو أى شخصية ترتبط بها ، لا يهم إذا كانت لاتزال على قيد الحياة أم لا ، لا يهم إذا كانت لا تزال تستخدم المرآة نفسها أو لا ، المهم أنها أحدثت تأثيراً عميقًا ما تزال محفوراً داخل الشخصية وهى تدرى أو لا تدرى حسب درجة نضجها ووعيها ، وحسب الظروف والملابسات التى تمر بها وتسمح لهذا المخزون بالإفراج والتحرر برغبتها أو رغمًا عنها . وكثيراً ما لعبت المرآة دور الربط بين عدة شخصيات لا يوجد بينها علاقات ظاهرة قوية مثل درجة القرابة أو فى حتى اللقاء المباشر ، لكن المرآة الداخلية هنا تربط بينها من خلال التشابه فى الخلفيات والتركيبة الذاتية ، سواء اجتمعت فى عصر واحد أو فى مكان واحد أو انتمى كل منها إلى عصر آخر تمامًا ، ولنترك هذه النقطة لنسهب فيها قليلا عند مناقشة فكرة " ترديد الثنائيات " المنتشرة فى الروايات ، لكن المواجهة دائما صعبة ، واختراق حواجز النفس أمر ليس هينا على الإطلاق . فمن الصعب جدا العثور على إنسان شجاع يتخذ قراره فى لحظة ما بالوقوف فجأة أمام المرآة لمكاشفة ذاته واستدعاء الماضى لضبط موجات الحاضر لأنه لو كان يمتلك هذه القدرة الغالية بهذه الوفرة ، لما حدثت أمور كثيرة فى حياته . لهذا تبحث المؤلفة دائما عن تُكأة تجبر الشخصية على لحظة المواجهة الطويلة التى تمر عبر مراحل مختلفة

ويتم توزيعها على جميع أنحاء الرواية ، وكأن مياه بئر هذه المرآة لا تجف أبدًا ، فأحيانا تتوقف الشخصية من تلقاء نفسها أمام المرآة ، وكأن هناك صوتًا خفيًا يناديها من داخلها ، وهى لا تملك إلا الاستجابة له مثلما يحدث لبطلة " كراسة مصر " . وأحيانا أخرى نجد هذا الصوت الداخلى الذى يملك سيطرة لا تقاوم وسلطة لا ترد ، يتنكر مثلا على هيئة حقنة من عقار تنعش السراديب المظلمة فى اللاوعى ، وتعود بالإنسان سنوات وسنوات إلى الوراء مثلما يحدث للطبيب النفسى د. جون ، أحد أبطال رواية " نوافذ يعقوب " . كما نلاحظ أن هذا التذكر المتدرج الموزع على أنحاء الرواية لا يُعنى بذكر موقف متكامل ، وأحيانا كثيرة لا يهتم بحدث كبير، لكنه يتوقف أمام شذرات بعينها يلتقطها من هنا ومن هناك لتكوين لوحة تشكيلية سمعية بصرية لموقف ما ، أو ربما للحظة ما حدثت فى الماضى . هذه اللحظة لا تعنى شيئًا فى حد ذاتها ، لكنها هى المفتاح الذى يؤدى إلى حدث كبير متوال ممتد طوال حياة الإنسان . لكن حتى هذا الحدث موزع ولا يكشف عن نفسه كثيرا بحجمه الحقيقى أمام العالم إلا فيما ندر ... وقد اخترنا المقطع التالى من رواية " نوافذ يعقوب " على لسان د. جون وهو نائم يبحر داخل ماضيه البعيد ، بعد لحظة واحدة من حقنه بعقار ما يفتح حجرات ذاكرته المغلقة ، وسنجد الكثير من وظائف المرآة التى أشرنا إليها مجتمعة تعمل معًا من زوايا مختلفة .

" صوت ما أجبرنى على فتح عينى . كانت والدتى تشعل المدفأة . المطر ينهمر خلف الشباك . الجو بارد فى الغرفة . الحطب المشتعل فى

المدفأة يرسل إلى الأرضية شرارات حمراء مرتعشة . لا أحب اللون الأحمر ؛ فهو يشبه الدم . وأنا أخاف من الدم ، لكنى لم أعترف لأحد بهذا من قبل ، وإلا سأكون محل سخريتهم وأجدهم يربتون على كتفى وهم يوبخوننى بحدة وبخاصة والدى ، ويقولون : " انظروا إليه .. هل هذا تصرف الرجال ! " . دائمًا أبدًا مشغول هو بى ويحرجنى أمام الناس . الضوء الأحمر مازال يتحرك فى اتجاه المنضدة ويتراقص على المفرش الأبيض ، يذكرنى بما حدث لنا منذ وقت قريب " .

تركيبة الشخصيات

هذا البناء الروائى بآلياته التى يحتويها ومنهجه الذى يقوم عليه ، يحتاج إلى شخصيات تحمل تركيبة داخلية ذات خصوصية تبتعد عن الرتابة والتقليدية ، وقادرة على تجاوز العديد من المواقف واللحظات سريعًا ، وتمتلك القدرة والشجاعة والرغبة فى خوض مغامرة واحدة طويلة شاقة ، تحتوى من داخلها على العديد من المغامرات الموزعة على حلقات متصلة منفصلة . إذن فهى تحتاج من الأساس أن تكون شخصيات قوية حتى لو كانت قوية بضعفها ، إيجابية تمتلك من الرغبة والإصرار والفضول والإلحاح والمثابرة ورجاحة العقل وفوران العاطفة وتوحش الغريزة ، ما يؤهلها لتحمل كل هذه المواقف التى تمر بها على مستوى الواقع أو الخيال ، وهو ما لا يتوافر فى الشخصيات السطحية

التى تعيش على قشرة الحياة وتستمتع بظل الهوامش المنسية . فلابد من توفر شخصيات تحمل بداخلها عدة طبقات عميقة تتعامل مع كل مرحلة على حدة ، تمتلك القدرة على تغيير مواقفها من النقيض إلى النقيض أحيانًا ، وتتمتع بموهبة البوح بما فى داخلها قولاً وفعلاً ، هذه المكاشفة التى تتجمع فى شذرات المرآة بالتدريج لخلق موقف ما أو حالة بعينها ، تستدعى بالتبعية دخول الشخصيات فى صراعات حوارية طويلة على هيئة مونولوجات فردية صامتة أو معلنة ، أو على هيئة ثنائيات أو ثلاثيات فى أغلب الأحوال بحكم خصوصية التفصيلات فى حد ذاتها . وكلما اعتمدت هذه المونولوجات أو هذه الحوارات على الصدق المتكامل أو دس بعض الكذب بشكل أو بآخر ، كما يتضح على الفور أو لاحقًا حتى مشهد النهاية ، أسهم ذلك فى إنجاح مغامرة التكشف الذاتى واقتحام أسرار الماضى لخلق حالة من التصالح مع الحاضر حتى يتم تخطيط المستقبل على أساس سليم . من هذا المنطلق تكثر دائمًا هممات شخصيات الروايتين ، ويتكامل حوارها الداخلى مع حوارها الخارجى دون الوصول إلى حدث كبير فى حد ذاته إلا فيما ندر. وإذا كان للحوار هذا التوظيف الإبداعى فى المتن الروائى ، فهذا يتطلب بالتبعية فهم المؤلفة لشخصياتها المركبة التى صنعتها بيديها فى كل أحوالها ، والتعامل معها بقدر كبير من الحرية والموضوعية لتتركها تفكر وتتصرف على سجيتها ، وذلك من خلال حوار يسير على إيقاع محسوب يتناسب مع مفهوم الشخصية ونظرتها إلى نفسها وغيرها ، ومع رؤيتها

الحياة فى هذه اللحظة بالتحديد بناءً على خبرات الماضى المختزن فى الصور القديمة العالقة بالمرآة ، وبما يتناسب أيضًا مع مرجعية المجتمع الروسى فى هذه اللحظة على جميع المستويات . مع مراعاة التنوع الدينامى المستمر بين نوعية العبارات التلغرافية الموجزة التى تحمل الكثير من الإيحاءات والدلالات ، وبين المقاطع الطويلة الكبيرة التى يمكن معها أن يكون للجملة بداية ووسط ونهاية ، لكن يظل الموقف معها معلقًا ولا يفتن على كل أسراره إلا مع كلمة النهاية . وربما كشف تكنيك العبارات التلغرافية الموجزة المكثفة للغاية عن نفسه أكثر فى رواية " نوافذ يعقوب " ، التى تعتمد بشكل أساسى على أسلوب كتابة المذكرات بقلم شخصيتين بالتحديد ، تتعجلان كثيرًا لانشغالهما بأمور الحياة وبأمور نفسيهما أيضًا ، لكنهما مع ذلك تعتمدان على ذكائهما بقدر كبير ولا تحتاجان إلى سرد التفصيلات كافة ، وهو ما يتسبب فى ترك مجموعة من الفراغات الواسعة التى يتفاعل معها القارئ الإيجابى ليملأها خطوة خطوة .. ونلاحظ أن المقطع التالى المختار من رواية " نوافذ يعقوب " يجمع بين أسلوب الإخبار الملتزم بالحقيقة الواقعة ، والتعليق النابع من شخصية تمتلك القدرة على الاستخلاص والاستنتاج والتحليل والتعامل بمنهج علم المنطق من مقدمات منطقية ونتائج حتمية ، وأيضًا يجمع بين الاهتمام بالوصف المكانى الزمانى السيكولوجى التشكيلى الجمالى ، والإفراج عن سر ما صغير يكشفه المتحدث أو الكاتب طالما أنه ينظر بعين المراقب الواعى بما يدور أمامه أو خلف ظهره قدر المستطاع .

" الثالث والعشرون من أغسطس: مرة أخرى قضينا الأمسية كلها في بيت الدكتور على . على فكرة .. بيته غريب . فهو أقرب ما يكون إلى حصن محاط بجدران عالية ، عليه حراسة مسلحة طوال الليل والنهار . منذ اليوم أصبحت أنا اليد اليمنى لجنريخ فى العمل الذى أسنده إليه هذا الشخص . وعدوه أن يقدموا لنا ابنة الدكتور غدا ، والتى فيما يبدو أننا حضرنا إلى هنا من أجلها . طوال الليل يسهر جنريخ فى كتابة أوراق ما ، ثم يحرقها ويعيد كتابة غيرها .. ".

من خلال هذه الفلاشات البصرية السريعة سنجد أن المؤلفة تعتمد على عدة وسائل مجتمعة للتعريف بشخصيات الرواية مهما ظهرت مبكرا أو متأخراً ، كما أنه من الصعب تحديد من البطل ومن تكون الشخصية الثانوية لأن الجميع يلعبون أدواراً من حيث الكيف وليس الكم ، ولا توجد الشخصية التى يمكن الاستغناء عنها ، حتى نصل فى النهاية إلى أن البطل الثانى هو هذه اللحظة التى يسهم فى صنعها الجميع ، ومنها نصل إلى البطل الأول ، أى هذا المجتمع الروسى الذى يستوعب كل هؤلاء بين جدرانه ، ويتركهم يتعاملون مع بعضهم ومعه طبقًا لآليات ومتغيرات العصر المعيش . هذا التعريف المتدرج للشخصيات المجتمعة فى دائرة مغلقة من العلاقات الفاعلة ، يؤدى إلى توفير أكبر كم من المفاجآت يتم توزيعها على كل بناء الرواية من البداية إلى النهاية . وإذا أضفنا إلى ذلك تعدد الأصوات السردية من أكثر من جهة بما يسمح بوجود وجهات نظر كثيرة واحتمالات أكثر دون الوصول

إلى يقين بعينه ، سنجد أن المؤلفة تضيف عليها أحيانا تدخلها الشخصى بطريق مباشر صريح أو غير مباشر على لسان إحدى الشخصيات ، لكن هذا التدخل يعلن عن نفسه بهدوء فى توقيتات متعددة متباعدة حتى لا يتسبب الضوء المبهر فى انتقاص حلاوة غموض الشخصيات ، ولا يحجر على حريتها وهى التى يمكن أن تتنازل عن أى شىء إلا حريتها . وهذا ما ينطبق على شخصيات رواية " كراسة مصر " مثل المريضة والطبيبة والرسام ، وما ينطبق أيضًا على شخصيات رواية " نوافذ يعقوب " مثل جون وجاكلين وإيلين ود. على والمريضة ووالدها . فقضية الحرية بالتحديد هى قضية حياة أو موت عند جميع الشخصيات حتى فى أدق التفصيلات الممكنة ، ومسموح أحيانًا بالاعتداء المحدود جدا على الحريات من باب حيل الرجل أو إغراءات الأنثى ، لكنه اقتحام عمره قصير للغاية ومشروط دائمًا بعدم الانسياق الكامل والاستفاقة فى الأوقات الحاسمة لأن هذه الشخصيات لا تعرف إلا أن تكون نفسها . فهى لم تعتد أن ترى صورتها تلف أبدا فى فلك غيرها كالتابع الأليف ، فإما مرآتها الشخصية مهما كانت محطمة وقبيحة وإما لا ... الاقتحام فى حدود ، الفضول فى حدود ، الإصلاح فى حدود ، تغيير المسار فى حدود ، استرداد الماضى وتسليط الأضواء فى حدود . كل هذه الحدود مفتاحها دائمًا فى يد الشخصية القوية نفسها ولا أحد غيرها .. وعندما تنكشف بعض المفاجآت بما فى ذلك مهنة الشخصية ، سندرك مدى التكيف بين فكر الشخصية ومهنتها ومنطوقها اللفظى القادمة جميعًا

مـن طبيعة الشـخصيـة الروسيـة الخالصة وخصـوصـيـة هويتـهـا التى تسبقها .

ونلاحظ أيضًا اعتماد المؤلفة على المزج بين الشخصيات الواقعية والشخصيات الغيبية أو الواقعية التى تحمل قدرات غيبية . ففى رواية " نوافذ يعقوب " نجد الغجرية التى تعرف الماضى وتتطلع إلى المستقبل وتفـرد أوراقـهـا وتتنبـأ وتحـذر ، وتجـد الحلول وتخـتـزن علوم السـحـر وتتوارث شفرات الأسرار عبر الأجيال ، فهى التى تتولى القيام بهذا الجانب الغيبى رغم أنها ظهرت فى عدد قليل جدا من المشاهد . والأهم من ذلك أن تأثير هذا الجانب الغيبى يمتد مع الشخصية نفسها منذ الطفولة وإلى الأبد ، وكأنه يثبت للجميع أن الحياة لا تستقيم دونه ، وأنه مهما ارتفع شأن العلم تبقى للجانب الروحانى الغامض الكلـمة العليا ، أو على الأقل المساوية للجانب المادى المحسوس . ففى رواية " امرأة فى قلب السعـادة " نجـد البطلة تدخل فى حـوار طويل مـتكرر مع كـائن مـا هلامى لا نعـرف له هيئـة أو تفسيرًا واضـحًا ، لكنه يقودها دائمًا عبر إجابـاتـه أو تـساؤلاته عـن مـاهية وجودها فى هذه الحياة . فى رواية " كراسة مصر " دخلت المسألة فى حوارات مطولة بين البطـلة وهاتف ما يتحاور معها ، وهى تتوغل داخل ذكرياتها داخل مصر القـديـمة فى ماضيها وحاضرها ، لكنه هذه المرة لا يختفى سريعًا ، بل يدخل معها فى حكاية داخل حكاية لينسج لعبة داخل لعبة ، وبالتالى تتعدد الأصوات الغيبية التى تذوب داخل لحظة الحاضر المادى المعيش فتسقط الحدود

بينهما ، فيختلط الأمر بين أحلام النوم وأحلام اليقظة . ونتوقف أمام هذا الحوار من رواية " كراسة مصر " بين البطلة وهذا الصوت الخفى القادم من العالم الآخر أو ربما من داخلها ونرى ما أشرنا إليه عمليا ..

" فجأة سمعت من يسألها :

– كيف كان شعورك ؟

– ماذا ؟ هل انتهت المعجزة ؟ هل عدت مرة أخرى ؟ لماذا ؟

تتشوق هى للعودة إلى هناك مرة أخرى .. إلى الإحساس بانعدام الجاذبية والحرية والسعادة .

برودة هذا الحجر تنبعث من تحتها مرة أخرى .

بماذا شعرت ؟ دائما الرؤية ذاتها أسهل من وصف ما رأيت فيها ... وكيف يمكن وصف أحاسيسك وهى ليست إلا ذرات ترابية رقيقة تداعب أطراف أصابعك ، حتى إنك تخافين أية كلمة أو أية حركة خاطئة تُفقدك هذه المعجزة " .

من خلال هذه المجموعة من الشخصيات تقدم المؤلفة ثنائيات مشتبكة بمنطق الصراعات المتنامية .. ففى رواية " كراسة مصر " نجد ثنائيات " المريضة / الطبيب " ، " المريضة / الرسام " ، " المريضة / الرجل العجوز " ، " المريضة / الزوج " ، " المريضة / العالم الغيبى " ، " الطبيب / الرسام " ، " الرسام / الرجل العجوز " ، " الطبيب /

الرجل العجوز " . أما فى رواية " نوافذ يعقوب " فنجد ثنائيات " جاكلين / إيلين " ، " جاكلين / جنريخ " ، " جاكلين / د. جون " ، " جاكلين / د. على " ، " جاكلين / المريضة " ، " د. على / والد المريضة " ، " إيلين / د. جون " ، " سمسرة / د. جون " ، " د. جون / جنريخ " ، " المريضة / د. على " ، " الغجرية / د. جون " ، " إليانور / بيير " ، " المرأة الجميلة / والد د. جون " .

نلاحظ من خلال الثنائيات السابقة وطرفيها المتلاقيين بمنطق الشد والجذب المستمر أنها تضم عدداً قليلاً من الشخصيات تدور داخل بعضها البعض فى دائرة مغلقة ، وأن الأنثى هى محور الثنائية من حيث التواجد المستمر ، وبوصفها تلعب دور الطرف الأول المرسل وتلعب أيضاً دور الطرف الثانى المستقبل بأى طريقة أو مفهوم كان . حتى الثنائيات التى تقوم على وجود الرجال ، سنجد الرابط الوحيد الذى يجمع بين طرفيها هو الأنثى التى كانت سبباً فى تولد الصراع بينهما . إذن فالمرأة دائما هى مفتاح كل شىء ، هى المحور الذى يدور حوله الجميع بمنطق الجذر والمد . ليس لأنها تستمتع بالعبث مع الآخرين وتعذيبهم وإرهاقهم بغموضها المتكلف ، لكن لأنها هى نفسها كثيراً ما لا تستوعب نفسها وفكرها وأفعالها وردود أفعالها . ونلاحظ أيضاً أن هذه النوعية من النساء التى تقبض على مقاليد كل شىء ، وتتكرر فى روايات المؤلفة داخل تنويعات مختلفة ، لابد أن تكون أنثى غير عادية ، مركبة ، معقدة ، مكتملة الأنوثة ، بركاناً هائلاً ثائراً لا يهدأ ، متعددة المواهب ، متخصصة

فى إصابة غيرها بالحيرة الموجعة الممتعة ، تحمل كل الأعمار فى صورة واحدة ، تتصاعد حدة جمالها كلما وقعت فى مأزق مخيف ، تعشق الوحدة وتخافها ، تقدِّر قيمة المرأة وتجحد فضلها ، تتلهف على الآخرين وتقذفهم بكل بساطة من بين يديها ، متوازنة ومتقلبة ، ناعمة ومتوحشة ، طاغية الجمال الخارجي ولا تعترف إلا بالجمال الداخلى ، تحمل كل الوجوه ولا تمتلك إلا وجهًا واحداً ، لها تأثير فريد على الرجال حتى لو لم تعرف هى ذلك عن نفسها ، أو تغاضت عنه ولو قليلاً بمنطق التواضع المقنع أو ربما لغرض ما فى نفسها ..

" سرح سيرجى مع أفكاره .. أمرها غريب جدا هذه المرأة . تتغير فى كل ثانية . ليس فى ملامحها الخارجية فقط ، بل من داخلها أيضا . وكأنها تقول " انظر .. عندى المقدرة أن أكون حادة وسخيفة ، رقيقة وضعيفة .. على كل شكل . خمِّن .. من بين كل هؤلاء ما وجهى الحقيقى ؟

– أنتِ .. معك يصل الإنسان إلى حافة الجنون ! وزوجك .. كيف مازال ..

وراح يوجه إصبعه ناحية رأسه ويديره ليرسم علامة الجنون

– مازال محتفظًا بعقله على غير المتوقع . طوقا نجاة ينقذانه دائما ، الأول أنه ملكى أنا ، أى أنه زوجى مدنيًّا ، فنحن لم نسجل زواجنا رغم أننا نعيش معًا منذ خمس سنوات " .

من المتوقع أن تلعب الأنثى التى تحمل هذه المواصفات والمتناقضات دور المحور الذى يدور فى فلكه الجميع ، ومن الممكن أن يفنى الرجل عمره فى محاولة فك شفراتها ولا ينجح فى ذلك أبدا . طالما لا تسمح هى له بذلك ، وطالما يسألها عن أسرارها ويتعامل معها بالفكر التقليدى المباشر ، وسبق أن ذكرنا أن المؤلفة تبنى شخصياتها على أساس أن البدايات المنطقية تؤدى إلى النتائج الحتمية مهما كانت بعيدة أو غير متوقعة ومن الطبيعى أيضًا أن تكون كل لقاءات المرأة والرجل باستمرار فى هاتين الروايتين أو فى روايات كتاب " عناكب فى المصيدة " حافلة بالسخونة المشتعلة ، بدءًا من الشرارة الصغيرة حتى لحظة المواجهة العنيفة وأحيانًا العنيفة جدا .

هكذا تتوالى المفاجآت فى روايات المؤلفة باستمرار ، ولا يعرف القارئ الجانب الذى ستأتى منه حتى لا يستعد له ويستقبله بسلبية ليست مطلوبة . كما تتولد المفاجآت أيضا بسبب تكنيك الإيجاز الذى تتبعه المؤلفة ، فتحجب جانبًا ما من اللحظة أو من الموقف وتقفز إلى النتائج المترتبة عليه ، ثم تعود لاستكمال هذا المربع الفارغ الذى تجاوزته من وجهة نظر شخصية حاضرة أو غائبة عن الموقف . وأحيانًا ما تكون هذه العملية مضللة عندما نكتشف أن الجزء المحجوب لم يكن كذلك ، طبقًا لكذب الشخصية أو عدم قدرتها فى هذه اللحظة على كشف كل الحقائق . كما يتصاعد الخط البيانى للمفاجآت بسبب منهج المونتاج الزمانى المكانى المستمر للأحداث ،

سـواء فى الارتحـال ذهابًا وإيابًا بين الماضى والحـاضــر ، أو فى الارتحال بين الواقع وأحلام النوم أو أحلام اليقظة ، أو فى الانتقال المباغت من شخصية إلى أخرى بعد تدخل الطرف الثانى . وهو ما يسهم فى النهاية فى صنع عوالم مختلفة داخل بعضها البعض ، فيتسع منظور اللعبة وتكبر مظلتها لتحتوى كل شىء داخلها بصبر وعقلانية . ولنتوقف على سبيل المثال أمام المريضة فى رواية " كراسة مصـر " ، ونرَ كيف فتحت لها لحظة صمت عادية تماما ، باب رحلة فلاش باك قصيرة داخل طفولتها لتنتقى منها لحظة بعينها ، سيكون لها مردود كبير ودلالات ستكشف عن نفسها تلقائيا فى المستقبل القريب بالتدريج ..

" جلست صامتة وأصابعها تناغش المفرش الوبرى . هل هذا صحيح ؟ فى الثانية عشرة من عمرها ذهبت فى رحلة مدرسية إلى متحف الفنون الجميلة ، وهناك وجدت نفسها فى قسم " مصر القديمة " . تلبَّسها إحساس غريب بأنها شاهدت كل ما تراه الآن قبل الآن .. أن أدوات الزينة القابعة خلف الزجاج قد لمست رقبتها يومًا ما .. أن هذه الخطوط الهيروغليفية كانت ركنًا أساسيا من حياتها يومًا ما . راحت تتأمل كل من يمر إلى جانبها وكأنها تنظر إلى لا شىء . للحظة تخيلت أن كل هؤلاء ليسوا بشرا ، إنهم قشور فارغة من محتواها . اجتاحتها رغبة مباغتة جامحة لطردهم جميعًا من هذا العالم .. لأنهم أغراب ... رغمًا عنها سالت دموعها ".

التفصيلات والترديدات

طالما لا توجد أحداث جسام بالمعنى المفهوم إلا نادراً ، فنحن إذن أمام بناء يتعامل مع التفصيلات الصغيرة والجزئيات المقتطعة من هنا وهناك . معلومات بسيطة سندرك قيمتها فى المستقبل من وجهات نظر مختلفة ، وصف مقتضب للبشر ، وللمكان والزمان ، وللحالة العامة ، لكنه على أى حال وصف دقيق يرسم الكلمة لتصبح صورة مجسمة لها شكل ورائحة ، فتحيا معها اللحظة بأكملها . وهكذا تنتظم المؤلفة فوضوية الحياة داخل سلسلة خيوط رفيعة ، تؤدى إلى منظومة غزل كبيرة ، وتحفل بنبرة السخرية اللاذعة والكوميديا السوداء والمفارقة المؤثرة وقت اللزوم . فعلى سبيل المثال : بدأت المؤلفة بتقديم لمحة مهمة من شخصية الطبيب سيرجى فى رواية " كراسة مصر " خارج بيته فى لقائه مع المريضة وصديقه الفنان ، ثم عادت واستكملت ما بدأته فى صفحات سابقة لتقدم الشخصية على وجهها الحقيقى داخل منزلها ، عارية تماماً على حقيقتها سواء على المستوى الجسدى أثناء الاستحمام أو على المستوى المعنوى المجرد لأن الطبيب الذى يقيم وحده فى الشقة ويمارس حياته المعتادة تماماً مثل أى إنسان ، ليس فى حاجة إلى التمثيل الآن لصالح طرف أو ضد طرف آخر ، فهذا بعض من صورته الحقيقية فى جزء من مرآته الذاتية مهما كانت حالتها ..

" صوت غناء مرح لرجل انفجر فى جنبات الشقة . مساكين ، مساكين السكان ! لم يسعدهم الحظ مع جارهم ! لكن من كان يتصور

أن هذا الرجل بمظهره المحترم الوقور ، مدمن للغناء فى الحمّام .. يقف تحت الدش وهو يغنى ، يجلس فى البانيو وهو يغنى ، يجفف نفسه بالمنشفة وهو يغنى .. دائماً يغنى وصلاته التى لا تنتهى . أغانيه تكاد تكون محدودة . رنين التليفون أقلق مزاج وصلة الغناء ، فقد كان يشدو بهذه الأغنية فى كل مكان .. وهو جالس يقضى حاجته ، وهو يصفف شعره ، وهو يطبخ لنفسه . رنين التليفون يرفع صوته كأنه شريك خفى يشاركه الغناء . خرج سيرجى من البانيو وأغلق الدش ، لف نصفه السفلى بمنشفة وخرج إلى الممر . يوماً ما كانت هذه الشقة الكبيرة لأستاذ جامعى كبير . كانت جميلة بفضل كل هذا الكم من الكتب واللوحات والمشغولات المتنوعة ".

رغم كثرة ثنائيات الشخصيات التى طرحناها داخل دائرة العلاقات المتشابكة ، فإن هذه الكثرة المحدودة تبدو ظاهرية إذا أدركنا مدى الترديدات التى تجمع بينها ، وأيضا الترديدات التى تجمع بين مختلف الشخصيات فى مختلف الروايات . فعلى سبيل المثال : سنجد ترديداً فى رواية " كراسة مصر " بين المريضة ووالد الطبيب عالم المصريات الغارقين فى حب التاريخ الفرعونى ، وسنجد ترديدات قوية فى رواية " نوافذ يعقوب " بين إيلين الغامضة والسيدة الجميلة المتوحشة التى وقع فى غرامها والد د. جون . وعلى الجانب الآخر سنجد ترديدات واضحة بين كل شخصيات الأنثى فى الروايات الخمس وأيضًا رواية " موزاييك الحب والموت " من حيث البناء والتركيب والتأثير ، بالإضافة إلى ملامح

متشابهة بين شخصية الطبيب سيرجى فى رواية " نوافذ يعقوب " شخصية الأخ الأصغر فى رواية " عناكب فى المصيدة " . لكن تبقى دائمًا شخصية الزوج فى الروايات الخمس محجوبة ظاهريا ، ثم يتضح فى النهاية أنها تعرف كل شيء وربما كانت تشترك فى إدارة اللعبة من بعيد . وطالما أننا أمام شخصيات تحمل درجة كبيرة من النديَّة بهذا الشكل فى ظل ظروف المجتمع المتغيرة ، فمن الطبيعى أن نلمس داخلها شحنة مكتومة من الغضب والانفعال وبعضًا من اليأس ، لكن ليس كل اليأس ، وإلا لما واصلت طريقها واندفاعها نحو المغامرات المتوالية ؛ لهذا نجد صعوبة فى اختيار اللحظة المناسبة لاقتحام حياة مثل هذه الشخصيات على المستويات كافة ، وتتصاعد الصعوبات كلما ازدادت حدة الصراعات الداخلية قبل الخارجية ، وكلما اقتربنا من لحظات المكاشفات الجزئية والكلية ، حتى يتحقق فى النهاية هدف رحلة اكتشاف الذات حسب دوافع وقدرات وأهداف كل شخصية من أطراف الصراع . فالبحث عن الذات يحتاج إلى مساعدة خارجية ودافع استفزازى وإرادة ذاتية قوية ولحظة متفردة من الهدوء لترك مساحة واسعة للنور حتى يفك شفرات المستغلقات المظلمة . وقد وضعت المؤلفة هذا المفهوم السيكولوجى الفلسفى على لسان أحد المنتمين إلى عالم الحضارة المصرية القديمة فى رواية " كراسة مصر " ، مما يضفى مصداقية على الفكرة نفسها طبقا لقيمة ومرجعية من يعتنقها ويصرح بها ..

" الوحدة في اعتقادنا .. لعنة .. لكن عندما نصل إلى الحكمة نعتبرها تقديسًا . إياك أن تفتشى عن روحك فى الزحام . هناك ستجدين أى شىء إلا الروح " .

لم تكن أبدا رحلة اكتشاف الذات فى الروايتين سهلة لأى شخصية مهما كانت النتيجة ، فثمن المعرفة والخبرة غال لا يحتمله الكثيرون ، المهم ألا يهرب الإنسان من نفسه أكثر مما يجب ، ويعثر عليها فى التوقيت السليم ، وألا ييأس منها مهما ضلَّ طريق الزمان والمكان والوسيلة وخاف من النتيجة ؛ لهذا نجد المتحدث من عالم مصر الفرعونية يستكمل حديثه فى رواية " كراسة مصر " ويجيب عندما سألته المريضة " إلى أين أذهب لأجد روحى ؟! " ..

" لا يهم إلى أين ... المهم أن تفتشى عن طريق يؤدى إلى عالمك الخاص داخل عقلك ، إلى المعبد السرى لروحك . هناك ستجدين ما كنت تفتشين عنه . كل الحجرات والتاريخ القديم الموجود بداخلك هو جزءٌ من نفسك . هو أنتِ نفسك . لا تنسَى ذلك . اذهبى " .

علامة الحياة

أشرنا من قبل إلى هذا البرواز البوليسى الذى تضعه المؤلفة لرواياتها لتصل من خلاله إلى نسيج المجتمع الروسى ، لهذا نجد الجريمة عنصرًا مشتركًا بين كل روايات المؤلفة التى تعاملنا معها .

والجريمة التى نقصدها لا نعنى بها المدلول الحرفى للكلمة من دماء وما شابه ، فالجرائم مختلفة الأنواع والدوافع والأهداف ، لكن يبقى عنصر اختيار اللحظة المحكمة ليتحقق الحدث بهدف إثارة قنوات استقبال القارئ من خلال ذروة نهايات مضللة ، لأننا بعد انتهائها نجد أنها مازالت تخفى وراءها الكثير . اكتمال الجريمة يعنى فى الترجمة الحرفية المباشرة تحقق حادث يؤدى إلى خسارة أو اختفاء أو فناء ، لكن الجريمة الأكبر المستمرة فى هذه الروايات هى عدم تحقق سعادة الشخصية لأنها تفتقد الطريق إليها ، طالما هى لا تتطلع إلى مكاشفة مرآتها الداخلية بما يكفى . فاللاسعادة إذن تساوى الموت ، والسعادة تعنى الحياة أو بمعنى أدق قيمة الحياة . وكلما اجتهدت الشخصية فى خوض غمار رحلة اكتشاف ذاتها تحولت ثنائية " الحياة / الموت " إلى ثنائية " الموت / الحياة " . لكن بداية الرحلة لا تأتى إلا عن طريق فرصة ما : إما أن تلتقطها الشخصية وتنتبه لقيمتها ومدلولاتها وتأثيرها وما وراءها ، وإما أن تضيع عليها إلى الأبد . لكن المأزق أن حب الحياة لا يأتى إلا عن طريق السعادة ، والسعادة نفسها هى الكنز الذى يفتش عنه كل إنسان على طريقته ، فقط إذا انتبه أنه ضائع منه . والمفارقة الأخرى أن مفهوم السعادة يختلف من شخص إلى آخر ، وربما تتعارض سعادة شخصية مع سعادة الطرف الآخر ، ومع ذلك لا مفر من البحث عن مفهومها والتساؤل عن ماهيتها واكتشافها والسعى إليها لأنها لا تأتى وحدها أبدا ، والبحث عنها هو البحث عن مرفأ الأمان واسترداد الثقة

بالنفس الضائعة ؛ فالسعادة لا تعيش فى مياه واحدة مع القلق والخوف والجريمة .. وعندما تعرضت المريضة فى رواية " كراسة مصر " إلى حادث غرق أثناء مساعدتها لإحدى السيدات ، أدركت فى هذه اللحظة أنه آن الأوان لتعيش الحياة بالفعل ولا تمثل أنها تعيش الحياة . أدركت أن ذلك لن يتحقق إلا إذا استشعرت قيمة الحياة نفسها ، وهذا الإدراك لن يتحقق إلا إذا أحست أصلاً باختفاء السعادة من حياتها .

" بذلت محاولة حقيقية كى تندهش . لكنها لم تندهش . كانت راقدة وعيناها شبه مغمضتين ... وابتسمت . استشعرت مذاق الهواء وهمس الرمال وغموض السماء . الآن أصبح عندها وقت ، وقت للحياة ... إلى متى ؟ ... لا أحد يعرف . مهمتها الآن بذل محاولة لإسعاد نفسها لتتحرر من الخوف والإحساس بالذنب وانعدام الثقة بالنفس " .

تنقلنا النقطة السابقة إلى ثنائية " التعاسة / السجن " التى تتغير بعد رحلة التخفف من آثار الجريمة إلى ثنائية " السعادة / الحرية " ، بعد التخلص من قيود كل شىء بما فى ذلك قيود الجاذبية الأرضية . وبعد الانتهاء من قراءة الروايتين وتحليلهما ، يمكننا إضافة ثنائية " الحرية / القهر " بما لطرفيها من علاقات أزلية قديمة متصادمة . لكن السعادة التى تبحث عنها الشخصيات لا تتحقق فقط فى العالم الحاضر ، فربما وجدت فى العالم الآخر بما يتوافق مع مفهوم فكرة البعث والخلود عند قدماء المصريين من منظور مختلف . فرحلة اكتشاف الذات هى الميلاد الثانى للشخصية ؛ لهذا يمتلك مفتاحها دائماً شخص غامض إما

أن يكون على هيئة روح أو هاتف فى روايتى " كراسة مصر " و" امرأة فى قلب السعادة " ، وإما أن يكون على هيئة غجرية مثل رواية " نوافذ يعقوب " . فالإنسان يلمس السعادة ويشعر بحلاوة الحرية عندما يتمرد على قيود القهر المفروضة عليه ، ويشعر بأنه بدأ يمتلك مصيره إلى حد ما فى حدوده البشرية . لكن ما إن يتمادى فى فكرة امتلاك المصير مثل د. على فى رواية " نوافذ يعقوب " أو الطبيب سيرجى فى رواية " كراسة مصر " ، حتى يرتد الأمر من سعادة إلى تعاسة مضاعفة مثقلة بتطلعات مستحيلة ، وبها تمارس الشخصية القهر على الجميع وترسى منظومتها المتوحشة وتتساقط ضحاياها ، لكن الضحية الأولى دائمًا تكون الشخصية نفسها من فرط إحساسها المتعاظم بالضآلة . نتوقف أمام واحدة من لحظات المكاشفة القليلة جدا التى يظهر فيها الطبيب سيرجى أو سريوجا بعضًا من حقيقته أمام صديقه الرسام ...

– "سريوجا .. لماذا تكره كل الناس بهذا الشكل ؟

– ولماذا يجب أن أحبهم ؟ فى المستشفى التى أعمل بها شاهدت الكثير .. أكثر مما يمكن احتماله .. يحضرون إنسانا كل أعضائه الداخلية ممزقة .. ومعه يحضر كل أقاربه .. أنقذه .. كلهم على أتم استعداد للدعاء من أجلى . ست ساعات أتصلب على قدمى فى غرفة العمليات . أنتزعه من العالم الآخر . أصنع المستحيل .. وماذا بعد ذلك ؟ ..

فجأة انهال سيرجى على المنضدة بكل قوته ...

بعد يوم أو اثنين تأتى حاشيته مع وفد الصحفيين يهرولون ومعهم كل ما تتخيل من باقات الزهور الضخمة والحلويات والعلب .. كى

يظهروا فى وسائل الإعلام .. بالأمس قابلت المريض فى الردهة ، لكنه حتى لم يكلف خاطره بإلقاء التحية . حقيقة .. هز سيرجى رأسه .. أشكره جدا على هذا الموقف ! "

مثلما لعبت " الكراسة " دور الشاهد الصامت الحى على كل شىء فى رواية " كراسة مصر" ، ولعب " الجعران " دوراً مماثلاً فى رواية " نوافذ يعقوب " ، بما يذكرنا بدور " الخزنة " فى " عناكب فى المصيدة " و" التليفزيون " فى رواية " ليلة اكتمال القمر " وصور الألبوم " مع " المدفأة " فى رواية " امراة فى قلب السعادة " ، نستطيع أيضا التعامل مع روايتى هذا الكتاب من منظور أعمق وكأنهما شاهد واع على أحوال المجتمع الروسى المعاصر بعد تفكك دويلاته وتفكك عَلاقات الأصدقاء والأسرة الواحدة غالبًا بسبب المال والغيرة واختلاط المفاهيم واضطرابها ؛ مما يمنح الرواية منظوراً سياسيًا كبيراً دون تصريح . وقد تدخلت المؤلفة بين مقاطع رواية " نوافذ يعقوب " لتشير إلى ظروف المجتمع الروسى المعاصر بشىء كبير من المواربة كما يتضح فى المقطع التالى ..

" فى العامين الأخيرين تغيرت نوعية رجال المرور . بعض مظاهر الثقافة بدأت تتجلى فى عيون بعضهم . مظهرهم الخارجى دخل زمرة أصحاب القوام الرياضى . نغمة التسول اختفت من أصواتهم . ربما تتضح هذه المتغيرات فى الشوارع الرئيسية فقط . ربما . لكن على أى حال لقد سعدت بمبدأ التغيير مهما كان ضئيلاً . هل يمكن أن يتغير كل شىء إلى الأفضل ؟ "

نهاد إبراهيم

كراسة مصر

- مع خالص الأسف لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك . الوقت قصير . من فضلك .. سلِّمى هذا المظروف لزوجك عندما يعود . كنت أريد أن أتحدث معه وجهًا لوجه . لكن يبدو أن القدر لن يسمح لنا بهذا اليوم . أشكرك على الشاى . بالمناسبة لقد درست برجَك ولاحظت شيئًا غريبًا ..

- لا .. لا ..

قالتها سيدة جميلة فى الثلاثين من عمرها ترتدى بلوفرًا لونه أسود ، يعكس صفحة بشرتها البيضاء بشكل واضح . وابتسمت ابتسامة حزينة ..

- زوجى يهتم كثيراً بهذه الأمور . لقد ورث الاهتمام بالحب والفلك عن والدته ، فلم تكن تستطيع أن تخطو أى خطوة دون استشارة المنجم الخاص بها . أما أنا - اسمح لى - أنا كائن مختلف . ببساطة ليس عندى وقت - لا تؤاخذنى - للتسالى واللعِب . فعندى ما يكفينى من الأعمال ، ناهيك عن أعباء الواجبات المنزلية .

راحت تتأمل هذا المنجم .. كانت تستلطف هذا الرجل . متخصص فى الرياضيات . عيونه كعيون شاعر . درس برج زوجها عدة مرات من قبل . لسبب ما تأخر الزوج هذا اليوم أكثر من المعتاد

فى عـمله فـتـورطت هى فى حـديث مع الضـيف ، منذ سـاعـة وهـمـا يشربان الشاى .

– بالمناسـبة مرت ثلاث سنوات ولم آخذ إجازة ، لقد تعـبت جدا ! لهذا فأنا أنوى السفر إلى مصر .. أسبوعًا للاستجمام .

قفز المنجم من مكانه وكاد أن يسقط مائدة المطبخ الجالس خلفها

– إلى أين ؟ إلى مصر ؟

رفعت رأسها وهى مندهشة : لماذا ؟ وما الغريب فى ذلك ؟

– إلى مصر ... ألا ترين أن هذا خطر عليك ؟ !

دخل إلى المطبخ وهو متوتر ويشيح بيديه بطريقة مضـحكة . المطبخ الصـغير أعطى الرجل الطويل الفرصـة ليطوح بأى شىء طوال الوقت ، وكأن كل شىء حوله يشاركه ثورته .

– ماذا تعنى ؟ هل تقصد مسألة الإرهابيين مرة أخرى ؟

وقفت هى لتعلن رفضها استمرار الحديث فى هذا الموضوع .

فوقف هو بالتبعية وضربت يده المائدة بحزم

– الآن .. اسـمـعى .. مـن خـلال برجك اطَّلعت على حظك . الشـمس فى المنزل السـادس ، وهو مـا يعنى مـرحلة الدم الملكى . أنا قررت دراسـة حظك دراسة شاملة ، مع أنى نادرًا مـا أفعلها . شىء ما

يدفعنى إلى ذلك ، فقد وجدت .. أرجو أن تكونى فى حالة تسمح بسماع معلومات مهمة .

تنهدت وجلست مرة ثانية

- هيا قل لى ما هذه الأمور المهمة التى تتحدث عنها ؟

فجلس هو الآخر بالتبعية وعلى الفور بدت حجرة المطبخ أكثر اتساعا .

- لقد وجدت .. أنكِ كنتِ .. كيف يمكن أن أجد الكلمات المناسبة .. أنك كنتِ كاهنة فى واحد من أهم معابد مصر القديمة .. فى هذا الزمان لم يكن من حق المرأة أن تخدم فى المعابد إلا لو كانت ابنة فرعون . طبعا كل هذا كان يتم بعدما تجتاز طقوسًا كثيرة . هل شرحت لك وجهة نظرى ؟

جلست صامتة وأصابعها تناغش المفرش الوبرى : هل هذا صحيح ؟ فى الثانية عشرة من عمرها ذهبت فى رحلة مدرسية إلى متحف الفنون الجميلة ، وهناك وجدت نفسها فى قسم " مصر القديمة " . تلبَّسها إحساس غريب بأنها شاهدت كل ما تراه الآن قبل الآن .. أن أدوات الزينة القابعة خلف الزجاج قد لمست رقبتها يومًا ما .. أن هذه الخطوط الهيروغليفية كانت ركنًا أساسيًّا من حياتها يومًا ما . راحت هى تتأمل كل من يمر إلى جانبها وكأنها تنظر إلى لا شىء . للحظة تخيلت أن كل هؤلاء ليسوا بشراً ، إنهم قشور فارغة من محتواها . اجتاحتها رغبة

مباغتة جامحة لطردهم جميعًا من هذا العالم .. لأنهم أغراب... رغمًا عنها سالت دموعها .

بعد قليل أهدتها حارسة القاعة العجوز كوب ماء ، وتطوعت لمسح دموعها بمنديل أبيض

- يا ابنتى لماذا تتخيلين أن هذا العالم ملكك وحدك ؟ فالكثير من الناس يحبون مصر القديمة و....

- هم يحبونها لكن أنا ...

عضت على شفتيها . السكوت أفضل . حياتها مزدحمة بما يكفى بلحظات غريبة وأحداث مبتورة كلها تلف وتدور فى فلك مصر . كلما امتد بها العمر أحكمت سيطرتها على مشاعرها وعرفت كيف تكتمها . ورغم كل شيء وفى ركن ما من قلبها اختزنت علاقتها الوثيقة السرية بمصر . هذا هو سرها الصغير . سر روحها . والآن جاء عالم الفلك هذا ... ليخبرها أنها ابنة فرعون ؟ ولم لا ؟ إنها المتعة بعينها ...

دون أن تعي وجدت نفسها ترسم بعض الرموز على غلاف الجريدة وهى جالسة فى مكانها

- والآن ......

واصل الفلكى حديثه وقد افترش شحوب طفيف ملامح وجهه

- والآن أنت تمرين بمرحلة خطيرة للغاية . إذا سافرتِ إلى مصر سيتضاعف الخطر على حياتكِ أكثر وأكثر ..

حاولت أن تكون مرحة

- لماذا ؟ هل سيقع شيء على ر أسي ؟

بصوت أكثر ارتفاعا : هل تسمعينني ؟

- أسمعك

- أنت تسمعين لكن لا تفهمين ما أقول . لو كنت مكانكِ لما جازفت .

ولمس يدها لمسة

- خذي حذرك وأنتِ تعبرين الطريق في هذا البلد .

- أشكرك . سأنتبه لذلك .

وابتسمت.

فتحت الريح النافذة فنهضت هي وأغلقتها ثانية ، ثم أعادت الستار إلى مكانه الصحيح

- وما هذا ؟ ..

أمسك الفلكي الجريدة التي رسمت عليها الرموز وهي تستمع إليه دون هدف محدد

- ما هذا ؟ هل تدركين ما رسمتِ ؟ متى تنوين الذهاب إلى مصر ؟

- في مايو .. يونيو . ماذا تقصد ؟

– كان فصل الصيف أو ما يطلقون عليه (موسم شيمو) عادة ما يبدأ بعد شهر أبريل ويستمر حتى نهاية شهر يوليو. انظرى !

وضع أمامها ورقة

– انظرى .. انظرى .. هل ترين المرسوم هنا ؟

– يا إلهى . أنا لا أفهم عما تتحدث ؟ لقد كنت أستمع إليك وأحرك يدى فقط على الورقة

– هذا الذى رسمتِ بيدك يُسمى هيروغليفية مصرية ...

– نعم .. هناك تشابه

وعادت تتأمل ما رسمت

– ترجمة هذه الرموز هى (موسم شيمو) . صدقينى ، أنا متخصص فى هذا العلم وأعرف ما أقوله تماما . أرجوكِ .. فكرى فى كلامى بجد ! أجلى سفرك !

– شكرا ، لكنى نادرا ما أتراجع عن قراراتى . ومع ذلك أعدك .... أنى سأكون حريصة جدا .

واختتمت الحديث بابتسامة .

طبعا ستسافر . فهذه أول رحلة لها إلى مصر ..

* * *

الموجات العالية قذفت بهما بعيدا عن الشاطئ الخالى تمامًا فى هذه الساعة المبكرة من الصباح . مرة أخرى ابتلعت جرعات الماء المالح الحارق الذى يحاول اختراق رئتيها بكل الطرق . صدرها على أتم استعداد لينفجر مقابل نسمة هواء واحدة محرومة منها فى هذه اللحظة . نعم لقد أخطأت . بالتأكيد لا تقصد أن الخطأ هو اندفاعها لإنقاذ سيدة تغرق ، لكن الخطأ أنها جاءت إليها من الأمام . وهما الآن يهبطان معا إلى القاع ... لو استطاعت ... التنفس ... ولو للحظة واحدة ...

فى الدوامة الزرقاء اختلطت أوراق السماء والماء مع هاتين العينين المفزوعتين اللتين تثيران الشفقة وهى تنجذب نحو الأعماق أكثر فأكثر . إحساس غريب من اللامبالاة رغم أن عقلها مدرك تماما كل ما يحدث . سمكة زرقاء اندفعت إلى أعلى تلوح بزعانفها أمام وجهها وكأنها تخاف عليها وترشدها إلى الطريق .

فكرة غريبة هبطت على رأسها .. " كيف هذا ؟ .. ما كل هذا ؟ هل سأموت بهذه الطريقة ؟ لا .. فأنا لم أعش بعد كما يجب أن أعيش ! أنا مازلت أحبو لأبدأ الحياة ! والآن ... المدرسة ... المعهد ... الزواج ... العمل .... الآن ... والأولاد ... وماذا عن السعادة ؟ لا ! مستحيل .. حياتى ملكى وحدى ! " .

واحدة من الشعاب المرجانية أشعلت النار فى ساقها وكأنها تحاول الاقتراب من الشمس وهى ملهوفة على أى لمسة تنقذها . وصلها كل إحساس أسنانها المرجانية الحادة تحت ساقها ، وأدركت أن الله يمنحها فرصة أخرى للحياة .

بعد حوالى ساعة وصلت السيدتان إلى الشاطئ وقد نفد وقودهما تماما وسقطتا على الرمال ...

أحست هى بلمسة خفيفة .. فتحت عينيها قليلاً ورأت وجها بعيون سوداء كبيرة يميل عليها .

– سامحينى يا سيدتى ، لم ألحق ...

رفعها بخفة ووضعها على غطاء من القماش الأصفر فوق الرمال . كفان حنونان يمرران على جسدها زيتا لزجا رائحته جميلة .

– من هذا ؟ ولماذا ناداني سيدتى ؟

بذلت محاولة حقيقية كى تندهش . لكنها لم تندهش . كانت راقدة وعيناها شبه مغمضتين و... ابتسمت . استشعرت مذاق الهواء وهمس الرمال وغموض السماء . الآن أصبح عندها وقت . وقت للحياة ...؟ إلى متى ؟ ... لا أحد يعرف . مهمتها الآن بذل محاولة لإسعاد نفسها ، لتتحرر من الخوف والإحساس بالذنب وانعدام الثقة بالنفس .

رأسها تمايل هنا وهناك مع رائحة الزيت المثيرة ...

فتحت عينيها . البحر يحيك غطاءً ضبابيا على الشمس المحمَّلة بالأتربة وهو يرتعش على خط الأفق . كانت وحيدة . عادت القوة أدراجها داخل جسدها . اعتدلت جالسة . فجأة وقعت عيناها على إسورة ذهبية غريبة ثقيلة وأنيقة أيضا تلتف حول يدها اليسرى .

تحاصر معصمها بقوة . اقتربت لتتأملها . فى جانبها العلوى حفرة مستطيلة يتربع فى قاعها جعران مرسوم ، أما على الإسورة نفسها فلا يوجد أى جعران ...

على أى حال فقد وصلت اليوم إلى ما تريد ! سنواتٌ طويلة وهى تحلم بهذه اللحظة .. تقف الآن عند سفح الهرم وهى تستوعب حقيقة ما يحدث بصعوبة . داخل الهرم ممر ضيق منخفض يمكن دخوله فقط عند الانحناء بشدة ، لهذا يقبل عليه عدد قليل من الناس .

عند المدخل يقف بعض السائحين التائهين ، لا يعرفون غير أنهم يريدون التقهقر إلى الخلف بأى طريقة . انحنت هى وانزلقت إلى الداخل . بعدها لم يدخل أحد . كانت وحيدة . كلما تقدمت داخل الممر ضاق بمن فيه . الأحجار تعوق حركتها . الأنفاس تزداد صعوبة . فكرت وهى خائفة .. " هل يمكن أن أتقهقر إلى الوراء ؟ " فأر رمادى يتقافز .. " إنه الخوف .. الخوف .. اقتليه " .. هذا الهمس الغريب اخترق وعيها . لحظة قصيرة أخرى وقادها الممر إلى حجرة صغيرة يقف فيها تابوت جرانيتى مفتوح . دارت حوله من جميع الجهات وبكفها تحسست النتوءات المتعرجة ...

الحجر دافئ . مازال متشربا أشعة الشمس التى أبقته حيا ساخنا مئات السنين . فى كفيها سخونة غريبة ... أصوات غريبة تشبه الغناء تجلجل .. أحست .. حتى دون أن تلحق فهم ما يحدث .. كأن وعيها يغطس فى هاوية ...

ترقد هـى فى ظلام كامل إلا قليلا . أصوات غريبة تهف على أذنيـها . دقات جرس أم غناء طيور لا يعرفـها أحد ؟ فتحت عينيها فتـحة صغيرة . أمامـها رأت رجلين طويلى القامة فى مـلابس بيضـاء . أيديهما معقودة على شكل متقاطع وكأنها ترحب بها فى صمت . لا . أغلب الظن أنهما ليسا رجلين ، غالبا هـما مخلوقان من العالم الآخر . ملامحـهما غير واضحـة تماما .. " هل يمكن أن يكون هذا هو شكل الأرواح ؟".

– لماذا جئتِ إلى هنا وبعثتِ القوى الخفية من مرقدها ؟

لم يكن من الممكن سماع هذه الكلمات . ومع ذلك نفذ هذا الحوار داخل إدراكها مباشرة

– عودى إلى من تشبهك .

– سأبقى هنا .

– عودى الآن طالما يوجد وقت !

– لا !

قالتها رغم أن الخوف هو الإحساس الوحيد الذى تشعر به وحاولت إخـفاءه حـتى عن نفسـهـا . سرى الخـوف فى كل جسـدها وقـيد يديها وقدميها بخيوط عنكبوت خفى شوشت على أفكارها . بأى ثمن يجب أن تتـعلق بأى شىء لتـتـخلص من هذا القـزع . أين هـى ؟ شىء ما غـيـر

مفهوم أطلق وميضا ، لكنها تعرف ماهيته وهو ينعكس فى عينى هذا الذى يقف بعيدا قليلا . أدركت هى لغة هاتين العينين . ربما يكون حلماً . أصبحت الآن أكثر هدوءا

- لن أعود طالما لم أعرف لماذا جئت إلى هنا .

- هى لك .

استدار من كان يحاورها وابتعد ليقترب منها الآخر .

- نعم هى عيناه . إنه هو .. من كان معها الآن ، بجانبها .

بصوت خافت

- أين أنا ؟

- فى معبد " سر الهرم الأكبر " . محل الميلاد الثانى " .. مرسى الرحلة بين العالم المادى وعالم ما وراء الطبيعة . هنا تعيش الحكمة تماما كما يعيش الله فى قلوب الناس . تعالى ورائى .

نزلت من فوق المرتفع الحجرى . لسعة مؤلمة تركها الحجر الجيرى الخشن ذكرى على جلدها الأسمر . عدة خطوات ووجدت نفسها فى حجرة صغيرة بسقف منخفض وتابوت حجرى جرانيتى ضخم يتوسطها . استجابت لأمر صامت فصعدت عدة درجات حجرية ، ثم لمست قاع التابوت بأطراف أصابعها ونزلت إلى أسفل التابوت . خيل إليها أن هذا الحجر كائن حى يعرف كل أسرار الحضارات السابقة والقادمة ... وأنها

إذا أدارت رأسها قليلا وألصقت أذنها على جلده البارد ، ستملك القدرة – من خلال هذه الهمهمة القريبة البعيدة – على سماع صوت الخلود .

نظرت إلى أعلى فرأت مستطيلا منيرا تحدده جدران التابوت . انحنى هذا الكائن فوقها فتناثرت سحابة لذيذة طرية على كل جسدها .

" أمون .. يا أمون ، يا من يعيش فى السماوات . أنت كل ما كان ، ما هو موجود وما سوف يكون . لم يكشف غطاءك أى إنسان . وجِّه وجهك إلى الجسم الراقد أمامك واقبله فى عالم الروح . سيصبح روحا هو الآخر ". وصلتها هذه العبارة من مكان ما . أحست ببرودة وراح جسمها يفقد إحساسه . وبدا أن عقلها قد اعتزلها منذ زمن .

بوادر لسعة الحياة تحتل وعيها ... لحظة قصيرة وتحرك الغطاء الحجرى للتابوت ، وغرقت هى فى ظلام متكامل . تجمدت من البرد لكن دون أن يتمكن الخوف منها . حالة غريبة تشبه انعدام الجاذبية الأرضية . خفة . خفة عجيبة . كأن تيار هواء رفعها إلى أعلى . وهناك فى الهواء تحولت هى نفسها إلى هواء وذابت فيه . من أعلى شاهدت جسدها راقدا فى التابوت . لحظة ندم واحدة لم تساورها على فراقه . فالجسد مجرد ملجأ مؤقت . اليوم .. من نصيب هذا الجسد .. أما غدا ... أحست بشعور رائع من الحرية . إلى أعلى .. تريد هى أن ترتفع إلى أعلى ! كمان ! كمان .. امتدت تحتها الصحراء . شىء ما ناصع البياض لمع تحت عينيها . هل يكون هرمًا ؟ إنه هرم .. لمع تحت شمس مصر الحارقة وهو مغطى بألواح بيضاء مصقولة . أجنحة ما هبطت على

ظهرها ! يا لروعة الطيران ! تمتلك هى القدرة الكاملة على التحكم فى خط سيرها .. على الاقتراب من الأرض ورؤية أبو الهول الكبير أمامها .. على الطيران إلى أعلى والإحساس بملمس السحاب والاختلاط به للحظة.. كم أتمنى ألا ينتهى ذلك أبدا .

لكن ما هذا ؟ يبدو أن الهرم الذى يرقد جسدها داخله قد انفتح كزهرة أوراقها مثلثة لتستقبل عودتها . ضوء أزرق يشع من داخله . تجب العودة . نعم ستعود ! عبر الممر المنير نزلت إلى أسفل وراحت روحها تتأرجح فوق جسدها . تعبأت بكل الأحاسيس دفعة واحدة .. ورغم أنها عادت وسكنت الجسد الأسمر نفسه ، فإنها أحست بشعور جديد يملأ نفسها . سكون غير عادى لذيذ . أخيرا استقرت تماما داخل جسدها وشعرت وهى تتأرجح كما لو كانت تنام على الأمواج ..

فجأة سمعت من يسألها

– كيف كان شعورك ؟

– ماذا ؟ هل انتهت المعجزة ؟ هل عدت مرة أخرى ؟ لماذا ؟

تتلهف هى على العودة إلى هناك مرة أخرى .. إلى الإحساس بانعدام الجاذبية والحرية والسعادة .

ببرودة هذا الحجر تنبعث من تحتها مرة ثانية .

– بماذا شعرت ؟

دائما الرؤية ذاتها أسهل من وصف ما رأيت فيها ... وكيف يمكن وصف أحاسيسك وهى ليست إلا ذرات ترابية رقيقة تداعب أطراف أصابعك ، حتى إنك تخاف أية كلمة أو أية حركة خاطئة تفقدك هذه المعجزة ؟

– شعرت بتيار هواء بارد يهب من هذا الممر الضيق ... رفعنى إلى أعلى . كنت مجرد أفكار وأحاسيس ، وأدركت .. أدركت أن هذه هى حالة موت الجسد . الآن أعرف إحساسى عندما أنفصل عنه ... الخلاصة ... لقد نلت الحرية .

وعاد الصوت يحاورها من بعيد

– لقد تعلمتِ درسا عظيما .. الجسد هو مجرد رداء للروح . مستحيل أن يموت الإنسان وروحه خالدة منذ يوم ولادته . لكن الحرية هى مكافأة للروح الطاهرة . المعرفة التى حصلتِ عليها سوف تبقى بداخلك . كل ما رأيتِ ستخفيه تحت غطاء الأسرار . فهو ليس متاحا للجميع . هذه المعرفة جزاء الطاهرين . الصفوة المختارة .

همست لنفسها : الصفوة المختارة ؟ أى أننى يمكننى بلوغ درجة أعلى من ذلك ؟

لحظة صمت

– بداخلك الآن إجابة على كل الأسئلة ، لكن حان وقت انصرافك .

على مهلها نهضت من التابوت ...

- أنصرف ؟

أنزلت قدمها بحرص على السلم الموصل إلى أسفل . المكان مقسم إلى ممرات عديدة .. واحد .. اثنان .. ثلاثة ..

لكن إلى أين ؟ أنا لا أعرف إلى أين أتجه ؟

- لا يهم إلى أين ... المهم أن تفتشي عن طريق يؤدى إلى عالمك الخاص داخل عقلك ، إلى المعبد السرى لروحك . هناك ستجدين ما كنت تفتشين عنه . كل الحجرات والتاريخ القديم الموجودين بداخلك هما جزء من نفسك . هو أنتِ نفسك . لا تنسى ذلك . اذهبى .

- بنبرة خافتة : وأنت ؟

- مكانى هنا .

بنبرة اعتراف : لكننى أخاف أن أختار ممرا خاطئا .. وأنا لا أريد أن أنصرف ! اتركنى هنا!

- هذا مجرد خوف ، اقتليه داخلك ! اقتليه ! .

للحظة ما ظل هذا الصوت يتردد فى البهو ، ثم ذاب داخل النقاط المبللة على الجدران الحجرية وسال عليها ببطء حتى تحول إلى سكون .

أمام المرآة وقفت تصفِّف شعرها . خمسة عشر يوما انقضت منذ عادت من مصر . مازالت هى تحت تأثير هذه الرحلة . فرحة الحياة

تعمّر روحها . زوجها مازال يلح فى سؤالها عما حدث لها وعن سبب تغيرها الكلى بهذا الشكل ، وهى تجيبه بضحكاتها . ارتدت فستانها وجرت نحو التليفون وطلبت رقما

- سلافيك ؟ هاى ، عزيزى ، هذه أنا . زوجى خرج . وبعد عشرين دقيقة سأخرج أنا . هل تقابلنى ؟ أنت فى الأستوديو ؟ رائع . هل ستعرفنى ؟ سألبس جاكيت أسود اللون . باى !

على الفور ارتدت ملابسها وكبحت جماح شعرها تحت غطاء يشبه شبكة ، ولبست الجاكت ثم لست شفتيها بأحمر شفاه .

هذا الفلكى مسل جدا .. كما تعتقد .. لسبب ما غريب كانت تفكر فيه . أغلقت الباب ونزلت السلم .

لو أعطته أذنيها لضاعت عليها هذه الرحلة الرائعة .

فى الخارج كانت تواجه سماء رمادية وأفواج سيارات ووجوها عابسة فى الزحام . فى الناحية الأخرى من الشارع رأت صديقها سلافيك . هو صديقها .. فنان ناجح وشخص مقبول بنسبة كبيرة .. لوّح لها بيده . نظرت حولها .. لا تستطيع عبور الطريق الآن .. لكن هذه السيارة تسير ببطء كاف ... لذلك عبرت الطريق إلى سلافيك .

فرملة سيارة قوية تقاطعت مع ضجيج الشارع ..

* * *

بسـعـادة ينهـمـر المطر على الأسطح . السـائرون يسـارعـون إلى التـاندات عند مـداخل المنازل المزينة بفـخـامـة . أشـجـار المدينة رفـعت فروعها إلى أعلى لتقابل تيار الماء المتدفق .

فى بداية القرن العشرين شيد رجل أعمال مشهور واحدا من هذه المبانى . قام بتأجير كل الشـقق . زمن طويل جاء فيه وذهب مستـأجرون كثيرون ، مع الوقت ذابت ظلالهم . قامت حروب وتغيرت حكومات ، لكنها تركت آثارها على الجـدران . بعض التـعـاريج ظهـرت على السطح وتساقطت بعض قطع بياض المحارة .

فى السنوات الأخيرة أقبل الأغنياء على شراء شقق فى هذا المبنى . كثيرا ما هدموا الجدران وأعادوا التخطيط والطلاء . كم من مرة ارتعش المبنى بسبب غزو البناة ، لكنه مع ذلك كان سـعيدا لأن الناس تذكرته أخيرا ، مما منحه دورة حياة جديدة ستساعده أن يؤدى واجبه لوقت أطول قليلا .

الطابق الأخير ملك لاتحاد الفنانين . أستوديوهات كثيرة . واحد منها ملك فنان شاب موهوب تلقى لوحاته شعبية كبيرة وبخاصة فى الغرب . تُرينا النافذة مشـهد سـيدة ما ترقـد على أريكة قديمة . هناك رجـلان يحاولان مساعدتها . الأول كان الرسام يرتدى بدلة خفيفة من الكتان عليها بقع ألوان ، أما الثانى الأشقر الطويل الرياضى فهو طبيب .

تطلع الفنان إلى الطبيب بقلق

– هل أنت متأكد أن كل شيء على ما يرام ؟

همس الطبيب : سلافيك اطمئن . ليس هناك أى سبب لتكون عصبيا بهذا الشكل .

تصرفاته وكلماته وحركاته تنم عن شخص هادئ واثق بنفسه .

– آه لو كنت أستطيع أن أمسك هذا الـ ....

أمسك سلافيك مسدسا وأطلق طلقة فى الهواء .

– وماذا كنت ستفعل له ؟

سأله الطبيب بسخرية ثم أمسك يد المرأة

– كنت سأقتله .

– صحيح ! ستقتله! هل هذه نكتة ؟ انظر إلى نفسك ! أنت ولد نحيف جدا .. جلد على عظم !

– أنا لست صبيا صغيرا ! سوف أبلغ الثلاثين قريبا . حاضر . لن أقتله لكن سألقن هذا البهلوان درسا فى ضرورة النظر أمامه ليعرف أين يسير .. أليس كذلك ؟

أخذ علبة سجائر من على حافة النافذة وراح يبحث عن عود ثقاب .

– أتمنى ألا تقول لى إنها قفزت أمام السيارة بنفسها . علبة الكبريت .. هناك .

تحرك الطبيب تجاه المائدة

– أوكى .. نعم . هو كذلك ..

وضع سلافيك سيجارة فى فمه

– كنت أنتظرها ! قررت أن ألاقيها فى منتصف الطريق . كانت تعبر الشارع ثم رأتنى و... اندفعت إليها السيارة ..

مصدقا على كلامه : وكيف يتصور أحد أى شىء آخر ؟

– سيرجى ! لا يمكن أن نمزح الآن !

– لحظة واحدة فقط انظر فيها إلى نفسك ! تواعد أمراة جميلة و... وما هذه الهلاهيل التى تلبسها ؟ هل مسحت فيها كل فرش ألوانك ثم قررت أن تلبسها ؟ كلها مكرمشة وقذرة ! نظرة واحدة إليها .. آه عرفت .. غالبا هى ...

– ماذا تقول ؟ هذا كتان . طبيعى جدا أن يبدو مكرمشا . آه .. هذه الألوان ... سوف تذهب إلى حال سبيلها .. هذا هو أسلوبى .. أنت لا تفهم ! والآن كفاك انتقادا لى . أنجز عملك . أنقذها ..

– لكنى أقول لك .. آه .. كل شىء سيكون على ما يرام . ضربة خفيفة على الرأس وبعض الكدمات . اسمع . الأحسن اذهب وأحضر شيئا نأكله ، فأنا جائع جدا ..

من جيبه أخرج سلافيك بعض النقود وبدأ فى عدها . كان مندهشا ! كل الأطباء نسخة واحدة .. باردون تماما ! تاتيانا فاقدة الوعى وهو على أتم استعداد أن يجلس بجانبها وهو يستمتع بمضغ هامبورجر بالجبن . مهنتهم تجعلهم متبلدى الإحساس ! التفت خلفه فوقعت عيناه على سيرجى يفك أزرار بلوزتها ، مرة أخرى عاد سلافا مكانه هناك ..

– هيه ! أنت !

– ماذا بك ؟ هل تظن أننى لم أرَ سيدة عارية أبدا ؟ هل تعرف ؟ لقد مللت ذلك .

نهض الطبيب وألقى بسماعته على الأريكة .

– هيا ! قم أنت بالعمل . يوجد هنا حقن وإبر ، وهنا جهاز قياس الضغط . أتعرف لماذا يستعمل ؟ لكل منا ضغط دم .. فى الداخل !

واقترب أكثر من صديقه ..

– الضغط عال ويتبدل باستمرار .. أحيانا يرتفع .. أحيانا ينخفض .. هيا ! لا تنظر إلىّ بهذه الطريقة ! كل شىء على ما يرام ! أؤكد لك . ستفيق بعد قليل . ثم بعد ذلك ... سلافا ... ماذا سيحدث بعد ذلك ؟

قذفه بنظرة لها معنى

– ثم ستذهب إلى بيتها .. إلى زوجها .

– آه ! عندنا زوج هناك .

- نعم .. زوج .

ركز الطبيب نظره على وجه المرآة

- كان يجب أن أخمن ذلك . لكنها لا تحبه .

هناك أمور لا تؤخذ بهذه البساطة .

همس الطبيب سيرجى : وأنت ؟ ما دورك ؟؟

تأفف سلافيك : أنا صديقها .. أحسن أصدقائها .. وما عدا ذلك لا يخصك .

- فى هذه الحالة أحب أن أمنحك نصيحة ستنفعك . يا صديقى .. نحن هنا منذ فترة طويلة ، ألا تعتقد أن عليك الاتصال بزوجها . أظن أنه يبحث عنها الآن .

- كنت أفكر فى ذلك .

اقترب من المرآة ونظر إلى صورته فيها

سيرجى على حق . ياله من منظر .. ووجهه هذا .. كما لو كان يشرب بلا توقف من أيام .

سيرجى بسخريته المعهودة : هذا ما لاحظته . ما الذى يمنعك ؟

وقف سيرجى على قدميه وتمطًى . أدار رأسه إلى اليسار ثم إلى اليمين واستنشق نفسا عميقا ، ثم استقر على الأريكة مرة أخرى .

راح سلافيك يفكر مع نفسه ..

لا توجد طريقة يوضح بها لصديقه المتوحش أنه حتى لا يعرف اسم زوجها . فتاتيانا تشير إليه دائما باسم "كوزيا الذى أملكه" . كيف يمكن أن يدير رقم البيت ويقول له .. " يا كوزيا ، يا رجل .. اهدأ .. كل شىء على ما يرام . فزوجتك ترقد هنا على أريكتى . تشعر ببعض التعب .. لكن .. أتعرف ؟ لا يوجد ما يدعو للقلق .. فأنا إلى جانبها .. أنا صديقها .. ومعنا أيضا رجل آخر يحمل جاذبية جنسية تدفع النساء إلى الجنون .

التفت إلى المرأة . إنها تعنى الكثير له . من عشر سنوات بدأت معرفتهما . لكن ربما يندهش أحد أنهما فعلا صديقان فقط .

- انظر ..

لاحظ سلافيك حركة صغيرة تصدر من يدها .

- اذهب واطلب زوجها . من الأفضل أن يحضر إلى هنا .

سلافيك مفزوعا : أين ؟

سيرجى بعصبية : بعقلك أنت تعتقد أين ؟

- ماذا سأقول له ؟

- هكذا ببساطة ! كل ما حدث أن زوجتك ترقد الآن على أريكتى فاقدة الوعى . فقد اندفعت أمام السيارة عندما رأت وجهى فى الزحام . أرجوك احضر إلى هنا وخذها إلى المنزل .

– وماذا عندما يرانى ؟!

لا يستطيع سلافيك أن يرفع عينيه فى عينى زوج تاتيانا

– وماذا عندما يأتى إلى هنا ؟ فى الأستوديو ؟؟

بلهجة تشجيعية لصديقه : سيعرف شعورها . سيفهم . لا تخف .

نصف ساعة مرت قبل أن يندفع زوج تاتيانا داخل الأستوديو

أفاقت هى ورأت وجهى زوجها والرسام يميلان عليها . نظرت حولها وهى لا تستطيع أن تفهم ماذا حدث ؟

بقلق : آه ..... ماذا ... هل هو؟

– لا تقلقى ! إننا صديقان قديمان . أعنى صديقان . أقصد أننا كبار فى السن ! المسألة بسيطة .

لم يستطع سيرجى أن يمنع ابتسامة .

– ثانيا ! يوما ما ستدفعيننى إلى الجنون ! ألا تعرفين أنك يجب أن تكونى حريصة وتنظرى إلى الطريق !

و ... نظر الزوج إلى الطبيب بسرعة .

سيرجى بحزم : أوكى أيها الأصدقاء ! اتركانا وحدنا .. يجب أن أفحصها وأرى كيف ستكون ردود أفعالها ..

– تانيا ، سوف تتسببين فى جنونى ! حقيقة ! هل هذا يعقل يا فتاتى ! هل يمكن عبور الطريق دون النظر إلى الجانبين ؟ ثم ...

نظر الطبيب إلى الزوج .

– الآن يا رفاق .. اتركانا وحدنا . يجب أن أفحص المريضة ... أفحص ردود أفعالها ...

هذا ما كان ينقصنا .. أن يستفسر الزوج الآن عما حدث ..

الصديق والزوج فى نفس واحد : أى رد فعل ؟

أطلق الطبيب زفيرا ..

– أنتما سوف تصلان بى إلى حافة الجنون ..

يتعاملان معها كما لو كانت دمية مرسومة . ولكن إذا دققنا النظر جيدا سنجد أنها تحمل العديد من المميزات .. شفاه حساسة . بشرة ناعمة . عنق رقيق . صدر جميل ..

– هيا بنا !

جذب الرسام الزوج بحزم من كم قميصه .

فى طريقهما إلى الباب مرًا بجانب مائدة عليها باروكة سوداء .

صاح الطبيب : خذا معكما فروة الرأس !

التفت إليه الزوج : ماذا ؟!

احتـج سلافكا بتوتر : ماذا بك ؟ يمكن أن تفيد فى المستقبل .. مرة أخرى .

تفيد من ؟

بسخرية : قد تفيدك أنت ؟

ثم فقد سلافكا أعصابه

– ماذا حدث لهذا الرجل ؟. كيف يمكن ذلك ؟ . نحن هنا ...

أخذ الزوج الباروكة من على المائدة وقاطعه ..

– هذه الباروكة ساعدت بعض الشيء ، بمعنى أنها قللت من قوة الضربة ؟

على الفور أجابه سيرجى بجدية وهو يكتم ضحكته

– ساعدت جدا جدا ..

– هذا ما اعتقدت ! شكرا .

خرجا وأغلقا الباب خلفهما .

استدار سيرجى إلى الناحية الأخرى . بالأمس حصل على ثلاثة أيام إجازة من عمله وكان يحلم بشيء واحد فقط ... أن ينام نوما عميقا ، عميقا ، ثم ينام مرة أخرى نوما عميقا . لكن الجرس ضرب وأيقظه صديق الدراسة من راحته . يطلب منه الآن ، فى الصباح ، أن يحضر

إليه فى الأستوديو .. لكى ينقذ امرأة ما .. وبسرعة ، لماذا ؟ لكن فى الحقيقة سلافكا عنده حق .. فسيارة الإسعاف يمكن أن تحضر بعد الغذاء ! فجأة تملكته رغبة مثيرة فى استكشاف تفاصيل حياة صديقه السرية . أصبح كل همه العثور على حجة لمقابلته رغم بلاهة الحجة فى بعض الأحيان . نادرا ما كانا يتقابلان . لكل منهما حياته الخاصة التى تختلف عن حياة صديقه . دائما لم يكن فيها مكان لذكريات . ماذا يمكن أن يحدث مع اختبارات صديق الدراسة ؟ اقترب من تاتيانا الراقدة على جانبها فوق الأريكة . فجأة ضبط نفسه وهو لا يفكر فيها كمريضة ، بل كامرأة جميلة ترقد قريبا جدا منه و ...

وقطع أفكاره بنفسه ليسألها ..

– هل تتذكرين اسمك ؟

ابتسمت ابتسامة خفيفة : وأنت .. ما اسمك ؟

– سيرجى .

– اسم نادر .

سألها بغباء وهو يصطدم بنظراتها : وماذا تفعلين هنا ؟

– أعتقد أننى جئت إلى هنا لأتعرف عليك .

أجابها بغِل : يشهد الله أننى لم أسع إلى ذلك كثيرا .

– لماذا الكذب ؟

أنزلت قدمها من على الأريكة وحاولت النهوض .

- كنت تحلم طوال حياتك أن تتعرف على امرأة مثلى

" يا إلهى .. ماذا أقول ؟ " .

ترددت هذه الفكرة فى رأسها وهى تقوم وتتكئ على طرف المائدة .

قام الطبيب هو الآخر واقترب منها

- هذا يعنى أنك سليمة .

- رأسى تدور قليلا . ربما بسبب تغير الجو !

أكد الطبيب كلامها : العواصف المغناطيسية لا تهدأ !

- ممكن !

نظر سلافيك من خلف الباب .

مرت دقيقتان ثم ارتفعت حدة صوت سيرجى

- بعض الناس يتجولون هنا ويضايقوننا فى إنجاز عملنا .

اقترب منها حتى كاد يلامسها

- اسمعى . وقتى قليل . ولد الشاعر بوشكين فى عام ١٧٩٩ ، أليس كذلك ؟

واستكمل بجدية ..

تذكرى جيدا .. فى عام ١٧٩٩ . وقتلوه فى عام ١٨٣٦ . عام ميلاد بوشكين هو رقم تليفونى دون آخر ثلاثة أرقام ... يعنى ... ١٧٩٩١٨٣

وراح يراقب الباب

– وماذا أيضا ؟ ماذا سأقول لك أيضا ؟

– نبضك . لم ألحق أن أقيسه . اتفقنا ؟

بادلته الجدية : الأفضل أن أضرب نفسى بالرصاص .

التفت مرة أخرى إلى الباب . لعبة . كانت هذه لعبة ما . اشترك هو فيها دون أن يفهمها ، وعندما فهم كان الأوان قد فات ، فقد خطا الخطوة الأولى وانتهى الأمر .

أمسكها سيرجى من كتفيها وهزها قليلا فأجبرها أن تنظر إلى عينيه .

– أبدا لا تتصلى بى .. أبدا .. لأى سبب .

وزاد توتره قليلا

– لا أريد أن أسمع صوتك أبدا .... لا أريد أن أرى عينيك أبدا ... أبدا .... لا تضحكى ! هل تسمعيننى ؟ وخرج من الحجرة وتركها وحدها .

– أسمعك ..

ورددت بصوت خافت

١٧٩٩١٨٣

* * *

السيارة المارة إلى جانبها أغرقتها بماء ممتقع اللون من بركة كبيرة وهى فى منتهى السعادة

ثم ذهبت فى حديث طويل بينها وبين نفسها ..

- لا يهم .. سأشترى لنفسى سيارة ، وسوف ... ... بالمعاندة للسائقين الآخرين سوف أسير بذوق .. بأدب ، سوف أخفض من سرعتى عند رؤيتى لأى بركة ماء ، سوف أسمح بعبور المشاة عند أماكن العبور ، لن أجلس خلف عجلة القيادة إلا وأنا فى قمة تركيزى . عندئذ ...

ابتسمت من أفكارها ..

أكيد سوف يضمونها إلى لجنة التنظيم الشعبية.

رفعت عينيها إلى شباك شقتها . المطبخ مضاء . أفضل شىء أن كوزيا فى البيت . لا يوجد ما يدعو للتفتيش عن المفتاح فى حقيبتها . فذلك سيستغرق بعض الوقت . حقيبتها كبيرة ودائما تصطدم يدها بكل الأشياء إلا ما تبحث عنه : أحمر شفاه ، زجاجات عطور ، مذكرات ، بعض الشيكات ، قصاصات ورق ، حلويات ... صعدت إلى الطابق الثانى ودقت جرس الباب .

أبدى زوجها دهشته وهو يقضم قطعة من اللانشون الذى يحبه ..

- آه .. ما أجمل هذا البوكيه ! من أين هذه الزهور؟

- اشتريته بنفسى .. كوزيا .. ما هذه الأسئلة السخيفة ؟ هل أبدو من نوعية النساء التى يهدونها زهورا ؟!

ولمست أنفه

- توقف عن الأكل .. ليس من الأدب أن تأكل وأنت تتحدث مع امرأة !

- امرأة ! أين استحممت ؟! قولي الحقيقة .. هل ذهبتِ دوني مرة أخرى إلى حمام السباحة ؟

- لن أكررها ثانية .. أقسم لك .

خلعت الملابس المبللة ولبست الجينز الذى تحبه وبلوفرا لونه أسود

لاحقها الزوج فى المطبخ

- كيف حال العمل ؟

- حتى الآن لا جديد .

أخذت فازة وملأتها بالماء ونسقت فيها الزهور ووضعتها إلى جانب النافذة .

- ألا تعتقدين أنك تتحملين مسئولية .. ؟

قاطعته وهى تصب الشاى : لا أعتقد ..

- إعجابى بك يسبب لى المتاعب . بالمناسبة جهِّزى بعض الأكل ، بعد ساعة سيحضر زميل من العمل مع زوجته .

تمالكت نفسها بصعوبة . لم يكن عندها أية رغبة لاستقبال ضيوف وتسليتهم بأحاديث فارغة .

- ما اسمه ؟

كوزيا بسرعة : أيرينا .. أقصد .. إنه زميل عمل !

بجفاء : هل أعرفه ؟

- لا ؟ فهو زميل جديد .

- جديد ؟ شيء رائع ! يعمل معكم من زمن قصير وبسرعة عرفت اسم زوجته ؟ هل هى شقراء أم سوداء الشعر ؟

- شقراء ... على ما أعتقد ... نعم .. هل تستجوبيننى !

وأغلق باب الثلاجة بنرفزة

- لماذا تحضر أغرابا إلى البيت دائما ؟

- نعم ، هو شاب لطيف ، ماذا بك ؟

وانتبه لسلوكه .. هل كان يجب أن يتورط هكذا وينفلت لسانه باسم أيرينا ؟!!

- أنت مازلت لا تعرفه ! ... كل الناس عندك لطفاء

فتحت الشباك فتسرب ضجيج الشارع إلى الشقة

- الناس اللطفاء كثيرون . هل ستحضرهم جميعا إلى البيت ؟

قاطعها زوجها : غيرى من لهجتك هذه .

هذا يكفى .. فهو إنسان ناضج . لا يجوز أن نلقنه كيف يعيش . أيرينا لفتت نظره فألحق زوجها بالعمل فى القسم نفسه معه . ماذا فى ذلك ؟ لم يحدث بينهما أى شىء .

نظرت إليه تاتيانا بغرابة كما لو كانت تستمع إلى ما يقول .

رددت أفكاره بسخرية : لم يحدث شىء بينهما بعد ...

لم يستطع أن يتمالك نفسه

– لا داعى لذلك ! يجب ألاَّ تتِحدثى معى بهذه الطريقة ! أنا لست طفلاً . لا تنسى أننا أخذنا هذه الشقة من أبى وأمى ! ولم يحدث يوما أن رفعا صوتهما أحدهما على الآخر . وأنتِ ....

– نعم .. أنا كنت سأجن إذا عشت وسط هذا الزيف كما فعلا . بالنسبة لوالدك .. الوالد يفعل ما يريد ، أما الوالدة فهى تعرف كل شىء ، لكنها تتحمل من أجل الشقة .

– لا تتجرئى ! هل تسمعين .. لا تتجرئى !

وانطلق مغادراً الحجرة . بعد لحظة قصيرة سمعت صوته من البهو

– أنا ذاهب ..

وأغلق باب الشقة بعنف . جلست تاتيانا على مقعدها وسط المطبخ . هذا هو عيب الزواج فى سن متأخر . أنتِ شخصية تشكلت وانتهى الأمر وهو أيضا شخصية تشكلت وانتهى الأمر . لكل منكما اهتماماته

وماضيه وعالمه . كيف يمكن أن يتوحد كل هذا ؟ رفعت سماعة التليفون وأدارت رقما وهى تفكر ..

١٧٩٩١٨٣

* * *

صوت غناء مرح لرجل انفجر فى جنبات الشقة . مساكين ، مساكين السكان ! لم يسعدهم الحظ مع جارهم ! لكن من كان يتصور أن هذا الرجل بمظهره المحترم الوقور ، مدمن للغناء فى الحمّام .. يقف تحت الدش وهو يغنى ، يجلس فى البانيو وهو يغنى ، يجفف نفسه بالمنشفة وهو يغنى .. دائما يغنى وصلاته التى لا تنتهى . أغانيه تقريبا محدودة . رنين التليفون قلقل مزاج وصلة الغناء ، فقد كان يشدو بهذه الأغنية فى كل مكان .. وهو جالس يقضى حاجته ، وهو يصفّف شعره ، وهو يطبخ لنفسه . رنين التليفون يرفع صوته كأنه شريك خفى يشاركه الغناء . خرج سيرجى من البانيو وأغلق الدش ، لف نصفه السفلى بمنشفة وخرج إلى الممر . يوما ما كانت هذه الشقة الكبيرة لأستاذ جامعى كبير . كانت جميلة بفضل كل هذا الكم من الكتب واللوحات والمشغولات المتنوعة .

– معك جريلوف .. من أنا ؟ أنا ألكسندر سرجييفتش . اسمحى لى من الذى يريده ؟ تاتيانا نيكولاييفنا ؟ يا آنسة ، يبدو لى أنكِ ...

وفجأة اكتشف أنه يعرف هذا الصوت ..

- تاتيانا ؟ أنتِ ؟ يااه .. أنا سعيد ! كيف أخوالى ؟ أنتِ أول إنسان يسألنى عن ذلك . سيئة . تانيوشكا ! سيئة للغاية ! رأسى يؤلمنى ومعه قلبى ويدى وقدمى .... أنتِ ؟ الآن ؟ ... هل أنتِ جادة ؟ هل تعرفين كيف يقاس النبض ؟ يا ربى ، طبعا ، سأقول لك ، شارع النصر ، منزل رقم أربعين ، شقة رقم سبعة . تعالى أنا فى انتظارك !

نظر إلى المرآة وداعب نفسه بحركة مضحكة من وجهه . هذا عجيب .. بهذه البساطة ! السمكة الذهبية تسبح بنفسها نحو شبكته ! نظر حوله متفحصا . بصفة عامة كل شيء مرتب . فهو مثل كل أطباء الجراحة يحب النظافة والنظام . هذه طبيعة فى دمه . تناول سيرجى الملابس الداخلية التى كان قد ألقاها على المقعد عندما كان يستعد للاستحمام ووضعها فى الغسالة . لا ينبغى الاحتفاظ بالملابس الداخلية وهى قذرة . يجب غسلها فورا حتى لا يصبح تنظيفها مشكلة . من الدرج أخذ قميصا وبنطلون جينز وعطَّر نفسه أكثر من المعتاد بعطر " لانفسين " .. سيتجلى فى أبهى صورة ، اقترب من المرآة ، وصاح بصوت مختلف عن صوته كمغن ... ياه ! يبدو أنه فقد عقله . تماما . يجب الذهاب إلى طبيب نفسى . اقترب من الشرفة . هلَّت تباشير الظلام لكن المصابيح لم تؤد وظيفتها بعد . هل من الضرورى أن يستقبلها ؟ كم هو غبى .. لماذا لم يقترح ذلك ؟

جرس الباب قطع انتظاره . أمر مضحك جدا .. لاحظ هو أنه يعانى من قلق ما نسيه من زمن بعيد . ذهب إلى الباب وفتحه . تاتيانا تقف فى المدخل .

من مكانها ألقت عليه نظرة

- ممكن ؟ ألم أعطلك عن أى شىء ؟

تذكر سيرجى أغنية لكنه فكر أن عليه التصرف بأدب فى وجود الضيوف ولا يغنى .

- ادخلى .. ادخلى يا تاتيانا ! ... هذا هو عالمى .

دخلت تاتيانا إلى الشقة ولم تخلع المعطف . نظرت بعناية إلى سيرجى وسكتت ثم ابتسمت له .

حاول أن يبدى اهتمامه بها

- تانيوشا ، هاتى معطفك !

بدلع مصحوب بابتسامة : لماذا ؟

- لتأخذى راحتك ..... دون المعطف .

متحدية : ولماذا لا أجد راحتى داخل المعطف؟

بتوتر : هذا ما يحدث فى المعتاد

- هات يدك !

– يدى ؟ تفضلى ! خذى قلبى أيضا ..

– النبض طبيعى .

لحظة صمت

– لكنه متوتر .. هل عندك دواء فالكوردين ؟

– نعم .. يمكن .. طبعا يوجد عندى . الآن .. سوف .....

– جرب قبل النوم ثلاثين نقطة .

بعينيها أدركت كم يتمتع بجسد قوى

– لا بالنسبة لك خمس وثلاثون . هكذا نكون قد انتهينا . يجب أن أنصرف !

كيف ؟ هل ستنصرف ؟ لم يفهم أى شىء . لماذا حضرت إذن ؟ حتى تقيس له النبض ؟ ما هذا ؟؟ لا بد أنه فعل شيئا أخافها . هل عندها حساسية من الروائح ؟ هل أغرق نفسه بالعطر أكثر من اللازم ؟

– تانيوشكا ، لن أتركك تذهبين إلى أى مكان ! من فضلك ابق حتى ولو لدقيقة ! من كل قلبى أرجوكِ ! إذا كنت مستريحة هكذا لا تخلعى المعطف . لكن قولى لى شيئا جميلا .

أمامها وقف هو بفانلة رياضية واسعة وبنطلون جينز ضيق . عادت عيناها تتفحصانه .

- قدماك جميلتان ....

أبدت ملاحظتها وهى تتجه إلى الباب . أمسكت بمقبض الباب وأدارته لكن الباب لم ينفتح . قفل الباب ليس من النوع التقليدى . لم تعرف كيف تتصرف معه وحدها .. أدارت تاتيانا رأسها . الردهة خالية . فجأة دوى صوت سقوط شىء ما قادم من حجرة الصالون .

- سيرجى .. أنا ذاهبة .. ألن توصلنى إلى الباب . ربما نسى صاحب البيت أصول الضيافة بعد يوم عمل شاق ، لكنها لم تلاحظ أبدا أن هذا هو تأثيرها الفريد على الرجال .

- سيرجى ! أين أنت ؟

عبرت الردهة ودخلت الصالون . كادت أن تقع عندما اصطدمت بجسد سيرجى . فهو يرقد على ظهره ويداه متباعدتان وعيناه مغمضتان .

- هيه ! ماذا بك ؟

مالت عليه وضربت وجنتيه بيدها ضربة خفيفة . لا يوجد أى رد فعل . دخلت إلى الحمَّام وملأت كوب ماء وعادت .

- الآن سأسكب عليك الماء وستفيق بسرعة ...

مالت عليه مرة ثانية لكنها فجأة أحست أنها تفقد توازنها وستقع .. طوال هذا الوقت كان سيرجى يمثل أنه فاقد الوعى ، لكنه فجأة أمسك بقدميها وأسقطها على السجادة ثم بدأ يخلع عنها المعطف .

- ألا يكفى أنكِ سخرتِ منى ... الآن تريدين .. تريدين أيضا أن تغرقينى بالماء ! لا تعضينى .. العضة تؤلمنى ! سأضطر بعد ذلك أن آخذ الحقن المضادة .. نعم .. تغرقيننى .. أما إنقاذ الغرقى فهذه مهمة منِ أغرقهم . انتفض ونهض من على الأرض واضعا معطفها على رأسه كإكليل النصر.

- أنت لست طبيبا .

قامت تاتيانا وهى تنفض ملابسها .

- على فكرة .. يجب أن تنظف الأرض ... أنت ممثل ... أقصد ممثل قروى .

ألقى سيرجى المعطف على المقعد واقترب منها ثم أمسك رأسها بقوة وقبَّلها . حاولت أن تفلت منه لكنها فجأة ضعفت وردت له القبلة . كيف .... نعم ... إنها قادرة أن تسمح لنفسها بذلك .. ولم لا ؟ . إنها تحس بالسعادة الآن . وبمجرد أن ترغب سوف توقف ذلك ... الآن ... قليلا . قليلا أكثر . حرَّر يده اليمنى التى انزلقت كالثعبان على ظهرها وانتقلت إلى فخذيها ، ثم ارتفعت ببطء تحت بلوفرها الأسود الذى لم يكن يخفى وراءه لحسن الحظ أى وسيط بينه وبين جسدها .. يعشق سيرجى عدم ارتداء السيدات ملابس داخلية ... تدخلت يده الأخرى لمساعدته وحاول أن يخلص جسدها من قشرة الملابس .

- تانيوشكا !

لامست شفتاه خدها برقة

- أنتِ لا تعطين الريف قيمته الحقيقية . فالممثلون القرويون- لم يكفه نفسه - هم ... أبرع ... الممثلين .

- توقف .

أخيرا وجدت فى نفسها القوة لتدفعه عنها . أنا لا أطيق أن ينزع عنى الرجال ملابسى !

بادرها باهتمام : وهل هم .. كثيرا ... ما نزعوا عنك ملابسك ؟

بصوت مفزوع : فقط عندما رغبت فى ذلك . ليس أكثر من ذلك .

- أنا أعلن استسلامى .

رفع سيرجى يديه عنها وجلس على طرف المائدة .

- افتح لى الباب .

التفتت تاتيانا إليه وتسمرت مكانها فجأة . لفت انتباهها باب الحجرة المجاورة الذى فتح بمعرفة تيار الهواء . اقتربت خطوة واحدة فى اتجاهها . راحت تتأمل التماثيل القديمة والكتب فى الظلام . ولاحظت أن شيئا ما لمع على الحائط .

انخفضت نبرة صوتها

- سيرجى !... عندى رغبة فى ...

قفز من على المائدة وصرخ بسعادة

- أنا تحت أمرك !

تراجع صوتها أكثر : كُف عن ذلك ! أريد الدخول إلى هناك ..

وأشارت إلى الحجرة ..

- هل تسمح ؟

أجابها صاحب البيت بجدية : بالطبع .. تفضلى .

أضاء النور وفتح الباب . تخطت تاتيانا عتبة الباب . وقعت عيناها على تماثيل ولوحات وأوراق بردى وصور فوتوغرافية لعملية تنقيب عن الآثار ...

بالوتيرة الهامسة نفسها : ما هذا يا سريوجا ؟ من أين لك هذا ؟

انزلق معها إلى الوتيرة نفسها : إنها مجموعة والدى .. كان عالم مصريات شهير ، كان أمله أن أواصل رحلته . لكن لم يحدث .

- كان ؟

بصوت متردد : لقد توفى .. أعتقد ذلك .

لم تقنع تاتيانا بالإجابة

- لم أفهم .

- هذا لا يهمك فى شىء .

- لماذا ؟ احك لى ..

بدأت تـاتيانـا تتعـامل على سجيتـها . اقتربت منه وأراحت يدها على كتفه .

- هيا يا سيرجى ! أرجوك .

- أنت تحملقين فىَّ بطريقة غريبة كما لو كنتِ تقرئين ما بين سطور أفكارى . اسمعى .. ماذا حدث لكِ ؟ لماذا كل هذا ؟ لقد جئتِ إلى هنا بقدميك !

وترك خده يتمسح فى يديها

- لم تعجبنى طريقة تفكيرك عندما حضرت إليك . قد تكون الحقيقة ، لكنها لم تعجبنى . هل تفهم ؟ .. لا أستطيع أن أكون واحدة من ضمن المجموعة . لكنى أستطيع .. لو كنت تعلم .. هناك ما يسمى بالمتاحف الخاصة . متاحف تقتنى لوحة واحدة . هل تفهم ؟

بسخريته المعهودة : ولماذا تظنين أنك واحدة ضمن مجموعة . من أين جاءك كل هذا اليقين ؟ قد يكون الأمر مختلفا .

قـاطعـتـه بسـرعة : ربمـا .. هـل تـعـرف ؟ عندى رغبة أن آكل أى شىء .

عاد لتوتره : ماذا ؟

ابتسمت : أريد أن آكل

سرح سيرجى مع أفكاره .. أمرها غريب جدا هذه المرأة . تتغير فى كل ثانية . ليس فى ملامحها الخارجية فقط ، بل من داخلها أيضا . وكأنها تقول " انظر .. عندى المقدرة أن أكون حادة وسخيفة ، رقيقة وضعيفة .. على كل شكل . خمن .. من بين كل هؤلاء ما وجهى الحقيقى ؟".

- أنتِ .. معك يصل الإنسان إلى حافة الجنون ! وزوجك .. كيف مازال ..

وراح يوجه إصبعه ناحية رأسه ويديره ليرسم علامة الجنون

- مازال محتفظا بعقله على غير المتوقع ؟ طوقا نجاة ينقذانه دائما .. الأول أنه ملكى أنا ، أى أنه زوجى مدنيًا ، فنحن لم نسجل زواجنا رغم أننا نعيش معًا منذ خمس سنوات .

دخل المطبخ وأشار إليها بالجلوس إلى المائدة

- وثانيا ؟

- ثانيا ؟ ولماذا أخبرك ؟

جلست هى على أريكة فى أحد الأركان ووضعت ساقا على ساق.

من الثلاجة أخرج سيرجى لفة تفاح وأفرغها فى الحوض وفتح عليها الماء .

- تكلمى أنتِ فى البداية .

- يبدو لى أنه مستعد أن يمارس الحب باستمرار مع أخرى .

انفتح سيرجى فى الضحك .

بلهجة جادة : ليس فى هذا ما يضحك .

- نعم .. لقد رأيت علاقتكما معًا ! ماذا تقولين ؟ أى امرأة أخرى ؟

قادت هى الدفة ناحية السخرية مرة ثانية

- أتعرف .. الرجال لا يحبون الصعوبات . لماذا يحتاجون للتفكير والأمر أبسط من البساطة . نظرة فكلمة فالوقوع فى الحب مباشرة . وأنت أيضا .. بمجرد ما جئت إلى هنا ، قلت فى نفسك انزع عنها ملابسها ثم افعل ما شئت . ربما أردت أن أراك . ألا يمكن أن يكون كذلك ؟ لكن الأمر صعب على أى حال ! هل هى شهوة العين ؟ لماذا ؟ لماذا كل همنا هو إشباع شهوة العين فقط ؟ مثلا جالكا أو سفيتكا تتعريان على عتبة الباب .. لكن هذه الشهوة .. لماذا أحتاج إليها ، ثم أقع فى حبها وبعدها أتعذب ! أليس هذا ما يحدث ؟ هذا ما ينطبق على سلافكا على سبيل المثال ...

التقط منها سيرجى طرف الحديث

- نعم .. سلافكا .. ماله ؟ هل يفهمك ؟؟

- سلافكا صديقى .

وعاد لسخريته : صديق ؟ تريدين أن تقولى إنك لم ..... ؟

ولم يجرؤ أن يخرج كل ما فى رأسه بوضوح

- طبعا لا .

- لكن يبدو أنه يحبك !

- بطريقته .. نعم .

وتسللت ابتسامة على وجهها

- نعم .. لا يهم من يحبنى ، المهم من أحب أنا .

ووجهت إليه نظرات مفعمة بالتحدى .

تراجعت شجاعة صوته : ومن هذا الذى تحبينه ؟

لم يمهلها لتجيب وأناب عنها فى الرد

- نفسك .

- إذن أنت تعرف أفضل .

وضع أمامها طبق التفاح .

- من الأفضل أن تأكلى فواكه . لقد غسلتها جيدا . وبعدها سأتصل بواحدة من الشقراوات الجميلات .

- اسمح لى .. هل يمكننى أن ألقى نظرة على هذه الحجرة مرة أخرى قبل أن أرحل ؟ أقصد حجرة والدك . دقيقة واحدة فقط ..

- تفضلى .. مسموح لكِ أن تتركينى .. لكن لدقيقة واحدة فقط ..

فتحت تاتيانا الباب بحذر وكأنها تخاف أن توقظ شخصا ما . اقتربت من الحائط الذى يحمل علبة زجاجية وبداخلها جعران ذهبى . فتحت غطاء العلبة وأمسكت بالجعران ووضعته على راحة يدها . فى هذا الجعران شىء غريب . شىء تعرفه جيدا و... حملته بإصبعين وقربته من تجويف إسورتها . وإذا بالجعران يستقر داخلها وكأنه كائن حى ولد ليسكن هذا المكان تماما .

- مرحبا بك .

قبلته برقة

تدفقت أشعة الشمس داخل جسد السيدة ذات الثوب الأبيض ، الواقفة وسط مبنى صغير ، ثم لمست هذا الجعران الذى اشتبكت أقدامه بقوة مع الإسورة الذهبية .

- مرحبا!

من مكان قريب استغرق رجل عجوز فى تأملها ، وهو جالس فى مقعده الذهبى المطعم بالرسومات .

- " أنوكت " .. ابنتى ! أنتِ اليوم آية فى الجمال . فليشهد أوزوريس على ذلك . مع من تتحدثين ؟

- والدى العزيز ... لا تهدر وقتك الثمين فى كلماتى وأفكارى ، فهى لا تستحق اهتمامك . وبدأت تطبق كف يدها تدريجيا .

- لكن على أى حال ..

- فكرة واحدة تلح علىَّ .. علمونا فى مدارس إعداد كهنة أمون العليا عدم اللجوء إلى الاقتراض أبدا . أما الآن فقد أنهكتنا الحرب ، وأصبحنا نشكو من قلة الأموال . هذا يعنى أننا سنخالف تعليمات الكهنة ونطلب المعونة من الدول المجاورة ؟ هذه مسألة شاقة للغاية .

- إيزيس وحدها هى التى تعرف أن الأصعب من عدم وجود المال هو خيانة الأصدقاء الذين يختفون وقت الشدة .

هز الأب رأسه بحزن

- وماذا كنت ستفعل يا أبى لو واجهتك هذه الكارثة ؟

غادر الرجل العجوز مقعده واقترب من النافذة .

- عن أى الحالتين تتحدثين ؟

- عن الحالة الأسوأ .. عن خيانة الأصدقاء .

دون أن يلتفت : لو كنت مكانك كنت أحاول أن أطير فوق أحزانى وأتركها وحيدة على الأرض لا حيلة لها فى شىء .

- ألن تعاقبهم بالموت ؟

- لقد عاقبوا أنفسهم بأنفسهم .

- كيف ؟

- بموت أرواحهم .. لقد آن أوانك .. فالمحكمة المقدسة فى انتظارك . أما أنا فقضايا بلادى فى انتظارى . كل منا له طريقه ..

دنا منها وطبع قبلة على جبهتها ثم غادر الحجرة . فتحت كفها وراحت تخاطب الجعران الذهبى .

- وأنت .. لا تذهب إلى أى مكان . ابق معى . ساعدنى أن أواصل طريقى حتى النهاية .

دخل أحدهم إلى الحجرة بملابس داكنة

- لقد آن الأوان .

استدار وسار أمامها كى يرشدها إلى الطريق وتبعته هى . توقفًا عند بوابة كبيرة .

- اذهبى .

اقتربت المرأة من البوابة ودقت عليها بكفها . جاءها صوت من الجانب الآخر للبوابة

- من بالباب ؟

- خادمة الحكمة " أنوكت " .

- ماذا جاء بك إلى هنا ؟

- جئت لأنال الحكمة المقدسة .

- كيف تجرئين على إزعاجنا ؟

- أنا ابنة فرعون .

- ومن قال إن من حقك أن تزعجينا ؟

- لقد وهبت نفسى من أجل الحكمة .

انفتحت البوابة . من بين الأعمدة الضخمة سارت وراء مرشدها بملابسها البيضاء حتى وصلت إلى مبنى صغير مظلم .

- ابقى هنا وفكرى فى صانع الخلود ، فى صانع كل شىء ، فى صانع كل شىء مرئى ومجهول فى هذا الكون ، فى صاحب الخلود ذاته .

أغلق الباب خلفه وبقيت هى وحدها فى هذا الظلام الذى خفف من وطأته هذا الضوء الواهن القادم إليها من مكان ما من أعلى .

عادت تاتيانا تواصل حديثها الهامس مع الجعران وهى تحاول إخراجه من مكمنه فى التجويف الذهبى .

- أنا سعيدة لأنك معى يا صديقى الصغير . لقد انتظرنا معا هذا اليوم .

وفجأة انطلقت منها صرخة من فرط الألم . فقد انغرست قدم الجعران الحادة فى إصبعها فسالت منه الدماء .. قربت يدها من شفتيها ولعقت جرحها . ثم ظهر الطبيب قلقا على الباب .

- ماذا حدث ؟

- إنه يعض ..

محاولة مرحة منها للتغلب على الموقف

- هذا جزاء حب الاستطلاع .

أعاد سيرجى الجعران مكانه وأغلق العلبة الزجاجية .

- على أى حال .. لو كنت مكانكِ كنت فعلت الشىء نفسه .. هل أحضر لكِ صبغة اليود ؟ فقد اقترب عمر هذا الشىء من مائة عام وأكثر . مجرد تصور هذا الأمر شىء مخيف !

- لا داعى .. فقد مرت المسألة بسلام . هل تعرف ..

وقطعت كلماتها بابتسامة ثم استكملت

- كم أشعر بالراحة هنا ! كما لو أنى أمضيت كل حياتى بالقرب من ورق البردى والتماثيل . انظر كم هى جميلة هذه الكتابة الهيروغليفية ! وانظر إلى أبو الهول على هذا الرسم ! سريوجا .. يا عزيزى .. أنا أتنفس هنا بمنتهى البساطة !

ثم عادت تتجول بعينيها فى أنحاء الغرفة

- نعم ! ماذا ؟ هنا !! تقصدين أنك تتنفسين هنا دون أى مشكلة ؟؟!! أما عنى فأنا أراعى ألا أدخل هنا أبدا . عندى حساسية فظيعة ضد كل هذه الأشياء .

مسح الحجرة كلها بنظرة كريهة

- أشياء فظيعة

فجأة توقفت هى واستندت إلى ظهر مقعد ثم جلست بحرص على حافة أريكة .

سيرجى بقلق : ماذا بك ؟

أخذ يفحص وجهها وهو لا يعرف هل تمثل أم أنها متعبة بحق .. ؟

- الدنيا كلها تدور بى .. آآآآه .. أمسك بى .. بقوة أكبر .. أنا خائفة ! أمسك بى .. أنا أرتعد من الخوف .

اقترب منها بسرعة وأخذها بين ذراعيه

- اهدئى .. اهدئى .. لا شىء يخيف .. لن يحدث ما يخيف ..

وضمها إليه بإصرار أكبر .. تنبعث من شعرها رائحة عطرة . حاول أن يرفه عنها قليلا

- رائحتك جميلة .. رائحة غريبة ..

- أنا أحب مزج العطور الجميلة .. آآه .. من فضلك أمسك بى !

تعلقت به بقوة

- أنا خائفة .

حاول سيرجى أن يهدئ من روعها

- مم تخافين ؟ أنا معك !

- نعم أنت مـعـى ، لكن .. آآآه .. لا تدعنى أفلت منك .. كل شىء يدور بى ، حتى لو أغمضت عينى ... وكأننى أسقط داخل مكان ما ..

- تعالى هنا .

رفعها بين يديه ووضعها على الأريكة

- نامى .. لن أدعك تذهبـين اليوم إلى أى مكان . ستنامـين هنا . إذا حـدث أى شىء .. أنا مـعك . سـأعطيك الآن دواء وسـينتـهى الأمـر تماما . فإصابتك مازالت حية بعدما قفزت كالوعل أنوكت أمام السيارة .

غطاها ببطانية ووضع تحت رأسها وسادة .

- " أنوكت " .

أغمضت عينيها

- " أنوكت " .

هذه الأصوات تعرفها هـى جيدا ..

- " أنوكت "

وكأن أحدهم قد وضع يده بحنان على جبهتها .

سألته وهى مغمضة العينين : ماذا قلت الآن ؟؟

- لقد قارنت بينك وبين الوعل المقدس " أنوكت " .. انظرى ! هذا التمثال على مائدة والدى .

خرج وعاد بدواء فى يده يساعدها على استعادة هدوئها . رفع رأسها قليلا ..

- اشربى هذا .. ونامى قليلا ..

سألته باهتمام وهى تشرب الدواء : ما هذا ؟

استرد وعى سخريته : سيناير بوتاسيوم .

ثم فتح النافذة وأطفأ الأنوار .

بدأت تشعر ببعض الراحة .

- أنا أيضا فهمت ذلك .. أنت إنسان فظيع !

- أنا إنسان طيب .. نامى .

وجلس على حافة الأريكة

تمتمت تاتيانا : أنا .. أراك .. مفعول الدواء بدأ يظهر .

- أنا .. أيضا .. أستطيع أن أراكِ .

- لا .. أنا الآن .. أقدر أن .. أقدر أن أنظر إلى أى شخص وأعرف فيم يفكر .. هذا أمر مزعج للغاية .

واستدارت على جانبها

- أنت تحمل شيئا لونه أسود

- نامى أيتها الغازية كاسندرا ..

وعدل فانلته السوداء

برطمت بصوت ناعس : غريب جدا .. أنا إنسانة عادية .. عادية .. ثم فجأة .. مرة واحدة ! أنقلب إلى إنسانة غير عادية ...

- لقد لاحظت ذلك ..

وقف وخرج بهدوء من الحجرة وأغلق الباب إلا قليلا . انتظر سيرجى لحظات . يبدو أن هذه المرأة الغريبة قد نامت . فى حياته ذنوب كثيرة . عرف كثيرات وهجر كثيرات وهجرته كثيرات . هو .. الموهوب ، الذكى ، الوسيم . لم يقدره أحد حق قدره . ماذا يمكن أن يفعل ؟ يحدث هذا أحيانا . أما أن تكون المرأة جميلة وذكية فى الوقت نفسه فهذه حالة نادرة . ليست امرأة .. إنها ظاهرة .. وبخاصة أننا الآن فى زمن السيدات المزيفات .. قليل من الكسل .. قليل من العطور .. وكما يقول الأذكياء .. النساء المزيفات مثل كذبة كبيرة معتادة . يمكن انتزاع طبقاتها واحدة وراء أخرى .. ورقة وراء أخرى .. هذا المعطف ماركة كاردان . الفستان فالنتينر .. حذاء .. عطور .. أدوات ماكياج .. ثم اخلع .. اغسل .. هد كل شىء .. وفى النهاية ماذا سيبقى ؟

خرجت تنهيدة من صدر سيرجى

أما تاتيانا .. أغلب الظن أنها مجنونة .. غير طبيعية . غريبة . ليست مفهومة . لكنها لطيفة جدا ! اقترب من التليفون . يجب أن يجرى عدة مكالمات . فاليوم علامة فارقة لكثير من المتغيرات فى حياته . من الآن فصاعدا يجب أن يضعها فى الحسبان . طلب رقما . فترة انتظار طويلة دون رد . أخيرا جاءه صوت رجل على الطرف الآخر . نظر سيرجى حوله . باب المكتب نصف مغلق . يمكن أن يتكلم بحرية .

- كيف الحال ؟

سعل قليلا لتنقية بعض الشوائب العالقة بحنجرته

- لا يمكنك الحضور هنا اليوم . نقود ؟ دعنى أفكر قليلاً . لا .. الأفضل فى البيت . هيا .. تعالَ بالسيارة بسرعة . لكن .. أوكى . موافق .. لكن لابد أن تتصرف إذا حدث أى شىء . عليك أن تراعى فقط أننى لست وحدى . لا بد أن تكون حريصا .

وضع سيرجى السماعة مكانها واتجه ناحية باب المكتب . لحظة صمت ثم ابتسامة . أما لماذا يحتاج إلى كل ذلك فهو سؤال مثير . دخل المطبخ وصب لنفسه كوبا من البيرة الباردة . هيا يا سيرجى .. لا أحد يسمعك الآن . قل ما فى نفسك . ماذا حدث لك ؟ مشاعرك تحركت ناحيتها . ابتسم .. بعض مشاعرك انجذبت إليها . ولم لا ؟ لا أحد يعرف شيئا . ولن يحدث . وربما تكون كلها أوهامًا .

جرس التليفون أربك أفكاره . وقف سيرجى وراح يفتح الباب دون حماس . لا يمكن أن يصل الشخص المنتظر بهذه السرعة . وإذا لم يكن هو ، فلماذا العجلة فى فتح الباب ؟ يمكنه ألا يفتح أصلا . فى النهاية هناك امرأة فى الحجرة المجاورة . أليس هذا سببا قويا ؟ نظر من العين السحرية

– سلافكا ؟!

فتح سيرجى الباب وسأله بعصبية

– لماذا جئت دون أن تتصل أولا ؟ على أى حال لقد جئت بالفعل .. ادخل .

دخلا المطبخ . أشعل سيرجى براد الشاى الكهربائى وجلس منهكا على هذه الأريكة الخضراء البنفسجية بلونها الغريب .

– اليوم يتملكنى إحساس ثقيل غريب . طوال الوقت وأنا أفكر .. من فى الدنيا يحتاج لوحاتى ؟ احتمال كبير أن لوحاتى لا تساوى شيئا . هل أن أوان الاعتزال ؟ يمكننى العمل فى محطة بنزين .

فى المقعد المقابل جلس سيرجى أمامه وابتسم ابتسامة خفيفة وسرح كالعادة مع أفكاره ..

– مريض نفسى آخر يشرفنى بالحضور اليوم . هل يمكن أن تكون هذه أحوال الدنيا ؟ كل من حولى مرضى نفسيون ؟

– هل تذكر .. يوما ما رسمت بورتريها لوالدك ؟ هل تذكر ؟!

سرت رعشة فى حنجرة سيرجى

– والدى ؟ وما دخل والدى هنا ؟

– لقد ترددت .. ترددت كثيرا ، ثم قررت أن أقوم بعمل جميل ! قررت أن أهديك هذا البورتريه ..

ذهب سلافيك إلى الردهة ثم عاد حاملا لفة مستطيلة كبيرة

– كنت تحبه بصدق . أعرف ذلك .. على أى حال تفضل ..

أزاح سيرجى الغطاء فوجد وجه رجل كهل أشيب الشعر يطل عليه النظرة نفسها التى يلمحها فى عيون الكثيرين .. نظرة انعدام الثقة .. وهاتان العينان باللون الرصاصى .. يا لها من هدية

– سلافكا .. أنا عاجز تماما عن أن أقول أى شىء !

استدار وتناول كوب ماء من فوق الرف ثم وضعه على المائدة

– تشرب قهوة ؟

بهدوء : ولا شىء . شكرا . اشرب أنت . أما بالنسبة لوالدك فكيف .. هل وصلتك أى أخبار عنه ؟

بجفاء : لا جديد . لقد أغلقت القضية .

أحضر زجاجة فودكا من الثلاجة وعلبة مفتوحة من السمك المملح وبعض حبات الزيتون فى طبق صغير .

سرح سلافكا فى الفراغ أمامه

– نعم .. فى زمن ما .. فى زمن كنا نعيشه .. كان يوجد إنسان .. ثم اختفى هذا الإنسان .

زحف التوتر على سيرجى : وما دخل الزمن فى هذا ؟ لم يكن هناك أى داع لفتح هذا الموضوع . المسألة مؤلمة جدا . كلنا سنموت .

تناول سلافكا سيجارة وثبت نظره على صديقه

– وهل أنت متأكد أنه مات ؟

– ودفن .. نعم .. لقد مرت ثلاث سنوات حتى الآن .

تطلع سيرجى إلى ساعته

– خرج الرجل من المنزل ليشم الهواء .. خرج ولم يعد .

ردد سلافكا كلماته : خرج ولم يعد .. هل يمكن أن يكون حادث سرقة ؟ أقصد هل اختطف ؟

– ومن كان يحتاجه غيرى ؟ بالإضافة إلى ..

وراحت عيناه تلقائيا ناحية حجرة المكتب حيث تنام تاتيانا واستكمل ..

– بالإضافة إلى هؤلاء المصريين البؤساء .

برهة صمت ملأها بوضع حبة زيتون فى فمه . هذا الحديث لا يروق له . وقع نظره على ريموت كونترول التليفزيون الملقى على المائدة: هذا

موعد نشرة الأخبار ، ثم ضغط على زر الإنقاذ فى الريموت فصرخ صوت التليفزيون الحاد يفض الصمت فى الغرفة . لا يحب هو الأصوات العالية . صوت المطرب المخنث المشهور " موسييف " راح يعبئ الغرفة .

... اعتدلت تاتيانا على الفراش. أزاحت الغطاء ووقفت ثم أضاءت الأباجورة . الشارع يسبح فى الظلام التام إعلانًا عن انتهاء يوم آخر وهى لم تستغله فى أى شىء . أنصتت تاتيانا .. أصوات ؟ نعم .. سيرجى .. وفيما يبدو .. سلافيك . طبعا . إنه هو . هذا ما كان ينقصنى . جذبتها قدماها ناحية الحائط وألقت نظرة على الجدران . انعكس ضوء المصباح فأضفى لونا أخضر على اللون الذهبى .

وصلها صوت المغنى " موسييف " وهو يشدو .. « يا ناس .. أنتم قادرون على أن تكونوا أكثر كرما .. » مما دفع سلافكا لإبداء ملاحظة ..

– إنه يغنى هذه الأغنية أفضل منها .

ارتفعت شحنة التوتر عند سيرجى : من هى التى تقصد ؟

وبخه سلافكا بهزة من رأسه : هذه أغنية المطربة الشهيرة " بوجاتشوفا " .. إنها من الكلاسيكيات .

بالتوتر نفسه : أنا لست مجبرا على معرفة أغانيها

سلافكا مندهشا : ولماذا هذا الغضب ؟

ومد يده إلى الريموت كونترول ليخفض صوت التليفزيون

– وهل هذا يخصك فى شىء ؟

موسييف مازال يواصل الغناء

«مع من أقتسم الخبز فى المساء ؟

من أنتظر فى ظلام الليل ؟ »

ارتسمت الجدية على وجه سلافكا . أما سيرجى فلم يعد يتحمل أكثر من ذلك ..

– أسكت هذا الأحمق .

باعتراض واضح : كما تريد .. ما هذا الذى تقوله ؟! إنه فنان موهوب شفاف . هل تعرف ماذا يغضبك ؟ أنه .. مختلف عن الآخرين والناس لا يحبون هذا الاختلاف ، فهم لا يعرفون التسامح .. وإذا فكرنا فى المسألة بجد سنسألهم .. أين أنتم من كل هذا ؟

وقف سيرجى يفتش عن طفاية

– أين نحن من كل هذا ؟

عدَّل سلافكا الضمائر بهدوء : لا .. أنتم ..

واصل سيرجى غضبه : هل هذا يعنى أنك أنت أيضا موهوب وشفاف ؟

– لك الحرية أن تحتقر كلماتى .

– أنا لا أمارس هذه الألعاب !

غرس سيرجى شوكته فى قطعة حمراء من السمك الشهى ورفعها إلى فمه . نقطة صلصة تساقطت على المفرش . على الفور نهض سيرجى وأحضر قطعة إسفنج رفيعة ونظف المائدة . قرّب الإسفنج من أنفه ثم فتح صندوق القمامة وألقاها فيه بقرف .

– اذهبى إلى الجحيم .

كان حديثه موجها إلى قطعة الإسفنج وإلى سلافكا معا . ثم صب بعض الفودكا وأفرغ همه فى شربها .

– تشرب ؟

هز سلافكا رأسه . صب سيرجى لنفسه مرة أخرى .

– سريوجا .. لماذا تكره كل الناس بهذا الشكل ؟

– ولماذا يجب أن أحبهم ؟ فى المستشفى التى أعمل بها شاهدت الكثير .. أكثر مما يمكن احتماله .. يحضرون إنسانا كل أعضائه الداخلية ممزقة .. ومعه يحضر كل أقاربه .. "أنقذه" .. كلهم على أتم استعداد للدعاء من أجلى . ست ساعات أتصلب على قدمى فى غرفة العمليات . أنتزعه من العالم الآخر . أصنع المستحيل .. وماذا بعد ذلك ؟ ..

فجأة انهال سيرجى على المنضدة بكل قوته ..

– بعد يوم أو اثنين تأتى حاشيته مع وفد الصحفيين يهرولون ومعهم كل ما تتخيل من باقات الزهور الضخمة والحلويات والعلب .. كى

يظهروا فى وسائل الإعلام .. بالأمس قابلت المريض فى الردهة ، لكنه حتى لم يكلف خاطره بإلقاء التحية . حقيقة .. هز سيرجى رأسه .. أشكره جدا على هذا الموقف !

أطفأ سلافكا سيجارته

– وماذا كنت تنتظر ؟ أن يقدموا لك أنت هذه العلب والحلويات والزهور ؟

– كل ما أتمناه أن تكون هناك علاقات إنسانية طبيعية بين البشر ! ماذا أقول لك ! لن تفهم .. أنت رومانتيكى ..

– وما العلاقات الطبيعية من وجهة نظرك ؟

ارتفع صوت نقاش الرجلين أكثر . اقتربت تاتيانا من الباب أكثر بينما سلافكا يستكمل طرح آرائه ..

– من الذى حدد هذه الأشياء ؟ قد يكون هذا هو الطبيعى بالنسبة إلى شخص ما يعنى شيئا ، أما بالنسبة لك فهو شىء مختلف . أنت لا تحب الناس ، لهذا فهم يبادلونك مشاعرك نفسها . لقد اخترت بنفسك ممارسة هذه المهنة .

ارتد سيرجى إلى قواعده ساخراً : وماذا يمكن أن أفعل ؟ أنا أكره الضعفاء ، المستضعفين ، هذه الشكاوى اللانهائية تسبب لى الغضب المستمر .

– عزيزى .. يمكننى الآن تشخيص حالتك .. " المهنة لا تتناسب معك " .. عليك يا سيرجى أن تغير مهنتك .

– أبداً لا تنتظر ذلك يومًا ما .. فهذه المهنة تمنحنى إحساسا بأننى إله !

وضع يديه خلف رأسه واتكأ على المقعد .

انزعج سلافكا : ماذا ؟ ما هذا الذى تقوله ؟

– ما سمعته .

افترشت تاتيانا الأرض وفتحت الباب قليلا . المسألة أصبحت مثيرة ..

– تصور أننى جراح .. جراح شهير .. ماهر .. يحضرون لى شخصًا عنده نزيف داخلى .. عضو داخلى ممزق .. أو ربما أى شىء آخر .. هذا لا يعنينا الآن .. المهم أننى سأتوجه ناحية سرير العمليات . يمكننى بالطبع أن أقول .. " أراد الله أن ينقذ هذا الإنسان وأنا نفذت رغبته " .. لكنى أتصور شيئا آخر .. أنا أعتقد ..

وقف سيرجى وسط الحجرة وبدأ يتحدث بطريقة مسرحية

– أنا أعتقد أننى أمتلك خبرة وعلمًا ومعرفة .. أن حياة هذا الإنسان بين يدى . هذا الإنسان سيغادر الدنيا إلى الأبد بسبب قرار واحد منى غير مدروس . لهذا فليذهب الجميع إلى الجحيم .. فلتذهب كل الأفكار .. إلى الجحيم ! فى حجرة العمليات لا يوجد إلا أنا وهو . ويجب

أن أنقذه . وأنا أستطيع بعد قضاء ست أو سبع ساعات فى غرفة العمليات أدرك جيدا أننى فعلت كل ما بوسعى وأكثر .. وأن المريض الميئوس من علاجه سيعيش ! فمن يجرؤ أن يقول إننى لست إلها!!

- أنا سأقولها .

ألقت تاتيانا كلماتها ودخلت إلى المطبخ . هب سيرجى منتفضا . فقد كان غائبا فى التعبير عن أفكاره لدرجة أنه للحظة نسى وجودها فى الشقة . أما سلافكا فنهض بسعادة لاستقبالها ..

- تانكا .. أنتِ ؟

- أهلا بك .. سلافا ..

اقتربت منه وقبلته

- أهلا بك .

ظل سيرجى يراقبهما باهتمام

- هذه مستشفى المجاذيب بحق .. على كل صنف ولون .

- باى باى .

قفز سلافا : لا .. انتظرى .. وأنتِ ماذا تفعلين هنا ؟

أفلتت ابتسامة على وجه تاتيانا

- خمن أنت .. أمامك ثلاث محاولات .

مرر سلافا يده عبر خصلات شعره

– لكن ..

– يا لك من ذكى !

لمست كتفيه

– بالمناسبة .. هل معك سيارة ؟

– نعم .

– هل يمكن أن تأخذنى إلى البيت ؟

شعرت تاتيانا بسيرجى يقترب منها

– لن أتركك تذهبين ! هل تسمعين ؟ ستبقين هنا ! عندى ..

ورمق سلافا بنظرة ما

– لقد هبط علينا فى وقت غير مناسب ! أنا أعيش وحدى .. أرجوكِ يمكنك أن تعيشى هنا أى مدة تحددينها ! استريحى فى غرفة المكتب واسكنيها . أنتِ معجبة بهذه الحجرة . قلتِ إنك تتنفسين فيها بسلاسة . هل تريدين ذلك ؟ عندك هذه الرغبة ؟

راحت عيون تاتيانا ناحية باب الغرفة المفتوح . ظلال ما تتجول على الجدران . لعبة الأضواء . أو ربما تخيلات . توت عنخ أمون . رمسيس . أخناتون .. زوجته الأولى التى لا يعرفها أحد .. كيا .. لأنه تزوج زوجته

الثانية فيما بعد .. نفرتيتي .. وقد أمرت هى بإزالة اسم الزوجة الأولى الذكية القوية والجميلة من على كل الكتابات والتماثيل . بعض صفاتها نسبت فيما بعد إلى نفرتيتي . على يد نفرتيتى ؟ من سيتذكر كل هذا الآن ؟

وتقلصت نظرات تاتيانا فى عينى سيرجى

– أنا .. أريد .. وليكن ما يكون .

رفع سيرجى قبضته المضمومة فوق رأسه علامة النصر

– yes !!!

ستبقى .. استسلمت .. ستقضى الليل هنا اليوم . لا . الأمر ليس كذلك . ستقضى الليلة معه . وسيمر الليل .. لم يعد مهما هل سيتمكن من لمس جسدها أو لا .. أو سيغرق فى دوامة المشاعر المجنونة والحنان والألم والراحة أو لا .. المهم هو وجودها هنا ، فى هذا العالم . فى عالمه . ستتاح له الفرصة أن يقترب من الباب ويستمع إلى أنفاسها . ستتاح له الفرصة أن ... فيما عدا ذلك أمور فنية بسيطة ..!

بسعادة استدار ناحية سلافا

– اذهب إلى بيتك ! أما هى ستبقى !

عند باب المطبخ توقفت تاتيانا ..

– آه .. أرجوك .. إياك أن تفعل ذلك أبدا .. إياك أن تقرر أبدا .. أى شىء نيابة عنى ! لقد قلت لك .. إننى .. أريد ذلك وهو ما لا يعنى أى شىء حتى الآن ! لا يعنى أى شىء .

واستدارت إلى سلافا المستغرق فى حالة توهان حقيقية

لا يهم ، سيفهم وسيغفر لها كل شىء . هذا ما سيحدث فيما بعد . أما الآن ..

– سلافا ! هل تستطيع أن تذهب معى إلى بيتى لإحضار بعض الأشياء والعودة معى ؟ هه ؟

لمسته لمسة

– لكن ، سلافا ، أفق ، عد إلى نفسك .. هذا ضرورى .. أوكى .. فيما بعد .. أما الآن .. ساعدنى ...

أثناء استدارتها التقطت عيناها البورتريه الذى أحضره سلافا لصديقه

– أنت رسمت هذا ؟

انحنت على البورتريه

– يا الله ! يا لحظ هذا اللقاء ! لقد تم تدوينه .. أصبح حقيقة .. هكذا بكل بساطة .. بطريقة رائعة .

انتشى سلافا : هل يعجبك ؟

الحقيقة أن أهل الفن يتصرفون كالأطفال تماما !

- كما لو كان من لحم ودم .

سيرجى بصوت مكتوم : غيِّروا الموضوع من فضلكم !

نظر إلى ساعته . كل هذا لا يعجبه . لا يعجبه ! رفع الأوانى والأطباق من فوق المائدة ووضعها فى الحوض . سد الحوض بالسدادة وأمطره ببعض نقاط سائل التنظيف وفتح الماء الساخن . تصاعد بخار الماء من جنبات الحوض . الرجل عندما يعيش بمفرده ، ولمدة طويلة ، يكتسب عادات بعينها لأداء المهام المنزلية . أبدا لم يتزوج سيرجى . من حين لآخر ظهرت فى بيته بعض المرشحات لاحتلال قلبه ، لكنه كان يقترح عليهن أشياء أخرى غير قلبه . أمر غريب أن يكون كل الأطباء الذين يعملون معه فى القسم عزَّابًا ، ومنهم مطلقون ، ومنهم هاربون . أما من يشبهه فهو كالريح ..

- من هذا ؟ والدك ؟

تمعنت تاتيانا فى ملامحه ..

يبدو ذلك . إنه يشبهه تماما .. لكن .. هو .

وارتفعت حرارة ارتباكها

استعجلها سيرجى : ماذا ؟ هو ماذا ؟؟

- لا شيء .

صمت جماعي .

أسدل جرس الباب ستار النهاية على الكلمات المختفية بين السطور . إحساس ما مشترك يدفعهما لعدم إتمام المناقشة . لا هو ولا هي استطاعا أن يقولا ما يمكن أن يقال . لم يقولا ما كان يدور في بالهما أو ما كان يجب أن يقولا . إنها لعبة . وهما اللاعبان . ربما لا يكونان أفضل اللاعبين .. جرس الباب لا يكف عن الصياح .. مرة بعد مرة ..

اتخذ صوت سلافا هيئة الرجل الشهم

- ماذا ؟ هل علينا أن ننصرف ؟

هز سيرجي رأسه

- أحمق ! كم هو أحمق ! .. يجب أن تختار بينهما .. إما أن تنتبه لعملك .. وإما أن تطارد النساء .. واحد من اثنين .

- ماذا الآن ؟ نذهب ؟

- نعم نذهب . طبعا نذهب .

أمسك سيرجي بيدها

- تانيوشا .. أنا .. أنتظر ؟

ابتسمت : ألن تندم على ذلك ؟ أنت لا تعرفني جيدا

– المهم ألا تندمى أنتِ .

– أنا لا أندم أبدا على أى شىء . أبدا على أى شىء .

توالى صراخ جرس الباب . ضم سيرجى سلافا من كتفيه ومال عليه وهو يهمس

– سلافا .. ادخلا إلى غرفة المكتب .. وبعدها اخرجا كما تحبان .

– مفهوم .. فهمت .. من القادم ؟ امرأة أخرى ؟

سيرجى مندهشا : ماذا تقول ؟

غمز لسيرجى بعينيه وهو سعيد

– لا تخف .. سننفذ ما قلت .. هيا بنا !

أمسك بيد تاتيانا وجذبها إلى حجرة المكتب .

بنرفزة واضحة : اتركنى ! إلى أين تجرنى ؟ ما هذه الحماقة ؟ من القادم ؟

– والدته .

إجابته أصابتها بخيبة أمل مع أنها سمعت كيف فتح سيرجى الباب وأدخل شخصا ما إلى المطبخ .

الآن يمكننا الانصراف .. سيدة فظيعة .. فظيعة فقط لا غير .. أخذ معطفها من فوق الشماعة وفتح باب الشقة . سرح مع أفكاره بسعادة

وهو ينزل السلم .. يا الله .. غيورة جدا .. بارعة .. شريرة كالكلب .. فظيعة كالشيطان ..

تاتيانا : غريبة .. إنه لطيف فعلا ..

خرجا إلى الشارع . فى هذا الوقت لا توجد سيارات . سيارة سلافا " الجيجولة " تعلن عن نفسها فى الظلام من بعيد رغم وقوفها أمام المنزل المجاور .

بمرح : لطيف .. لطيف .. هذا صحيح . لكن بسبب والدته لم يبتسم له الحظ . منذ طفولتنا كنا نفر منها بمجرد رؤيتها .. شىء فظيع .

جلسا فى السيارة . فجأة تسلل القمر إلى السماء . استقبلت النجوم هذا الحدث بتوتر ، وسارعت بالاختباء فى قلب أشعة ضوئه البارد المنعكس ، فقد باغتها بظهوره المفاجئ من خلف السحب فاضطربت تصرفاتها . مرة أخرى عاد القمر إلى الظهور . النجوم تسعد جدا .. طالما أنه ليس موجودا .. إذن لماذا يحبه الناس كل هذا الحب ؟ دون القمر تتعاظم أهمية النجوم وقيمتها أكبر من ... تسللت النجوم للاختفاء واحدة وراء أخرى داخل السماء الزرقاء الداكنة كفقاعات صابون ملونة .

... انحرف سلافا فى الشارع الذى يؤدى إلى منزلها. رجل مرور يقف على الناصية .

تجهم سلافا قليلا : رجل مرور .

– ماذا ؟

لم تفهم تاتيانا قصده .

كتفا رجل المرور يخلوان من النجوم .. إذن ليس له مستقبل أيضا .

– انظر إنه يستوقفنا .. هل خالفت المرور فى أى شىء ؟

– لا أعتقد .

فى عقله بدأ سلافا يعد النقود المتوفرة فى جيبه .

من شباك السيارة تطلع إليهما رجل المرور

– مساء الخير !

فى العامين الأخيرين تغيرت نوعية رجال المرور . بعض مظاهر الثقافة بدأت تتجلى فى عيون بعضهم . مظهرهم الخارجى دخل زمرة أصحاب القوام الرياضى . نغمة التسول اختفت من أصواتهم . ربما تتضح هذه المتغيرات فى الشوارع الرئيسية فقط . ربما . لكن على أى حال لقد سعدت بمبدأ التغيير مهما كان ضئيلا . هل يمكن أن يتغير كل شىء إلى الأفضل ؟

– ملازم ماكسيموف .. أوراقكما .

– لماذا ؟ لماذا الأوراق بالذات ؟

ضغط سلافا على ذراعها لتصمت ، فصمتت وتأملت الضابط بعناية . لم تكن نظرة فاحصة فقط ، لكنها تزحلقت إلى أعلى وتوقفت على طرف أنفه .

تأوه رجل المرور .

لاحقته تاتيانا بسرعة : علبة الأدوية فى الخلف .

ثم عاودت التركيز على طرف أنفه وتوقفت عنده

- آه .

- إذن لقد اجتزنا الفحص الفنى .

قالتها تاتيانا وهى تدير عينيها .

شفاه واحدة فقط تحركت مع سؤاله

- أين الإيصال ؟

- فى صندوق القفازات . لقد انفصل عن الزجاج . أعذرنى . لقد انخلع .

- آه .

- كنت سأعيد لصقه على الزجاج . أعذرنى من فضلك .

احتل الفزع عينى الضابط

- آه .

- لم يشرب خمرا ! فهو لا يشرب أبدا . لا يحب الشرب . يمكن أن تتأكد بنفسك .

راح الضابط يأخذ دورته حول السيارة وهو يمسك الأوراق بيديه ، حتى وصل إلى سلافا مرة أخرى ومال ناحيته

- تعال معى .

غادر سلافا السيارة وأغلق الباب بقوة خلفه . سوف يبدأ ..

صاحت تاتيانا بمرح وهى تفتح الشباك

- لم تكن هناك أى علامة تمنعنا من التقدم . لم يكن هناك أى شىء ! نستطيع أن نعود ونريها لك .

رد الضابط له الأوراق

- اذهب .. هل السيدة معك فى السيارة مختلة عقليا إلى حد ما ؟

ابتسم سلافا : نعم .. يمكنها بمنتهى البساطة أن تسألك إذا كانت زوجتك لها عشيق أو لا ؟

- ماذا ؟ هل تستطيع ؟

وانشغل الضابط بأفكاره

- بسهولة .

وألقى سلافا نظرة إلى الضابط

- حتى أنا أستطيع أن أفعل ذلك .. هل تريد ؟

هربت تنهيدة من صدر الضابط وللحظة ما بدا أنه أكثر بدانة

- لا .. لا أريد . انصرف .

على الفور اتخذ سلافا مكانه فى السيارة وغادر المكان فى لمح البصر

" أصحاب الحاسة السادسة هؤلاء مزعجون جدا ! هذه الموهبة يمتلكها بعض الناس ! يحدث هذا أحيانا . أحيانا يتساءلون .. لماذا تقود السيارة بينما نسيت أوراق السيارة عند عشيقتك على المكتب ؟ أو .. لماذا حطمت الإناء الأخضر الذى شربتما فيه قبل أن تجلس أمام عجلة القيادة ؟ وأحيانا أخرى يقولون .. لقد اكتشفنا إصابة من باع لكما رخصة مزيفة بقرحة دامية فى المعدة . ألا تعرفان ذلك .. هيه ..؟ " .

استيقظ الضابط من أفكاره وراحت عيناه تتابع السيارة ثم انتفض فجأة

- ماذا ؟؟ وأحزمة الأمان ؟؟؟

لكن السيارة ذهبت مع الريح .

عاد الضابط لنوبة سرحانه .. أمر غريب .. لقد لاحظ بالفعل أنهما لا يربطان أحزمة الأمان . أو ...؟ و.. هل يمكن ؟ هل صحيح ؟! ثم أصلح الضابط الكاب وبخطوات واثقة سار إلى كشك الحراسة . هل يتصل بزوجته ؟ كان يشك فيها منذ فترة طويلة ! هذه السيدة التى

تمتلك الحاسة السادسة ... إنها امرأة رائعة ! ابتسم من هذه الفكرة . فى النهاية هو أيضا إنسان . وإذا لم نترفع عن الصغائر ، فستصبح الحياة جميلة بمعنى الكلمة .

تبع سلافا تاتيانا إلى بئر السلم المظلم بالمنزل

– كنتِ رائعة معه . أوشكتِ أن تدفعيه إلى الجنون . هكذا تكون المعاملة . ما إن يبدأ أى إنسان فى الكلام حتى تعرفين عنه كل شىء . أى أنك تسمعين فيما يفكر . أوكى . يعجبنى ذلك .

ردت على إعجابه بحزن

– أما أنا فلا يعجبنى .

– ماذا بك ؟ هذا شىء رائع .. أن تشعرى أنك .. إلهة .. أليس كذلك ؟

ارتفع صوتها : ماذا تقول ؟ هل فقدتكم عقولكم جميعا . الكل يريد أن يشعر أنه إله . مستحيل ! نحن .. بشر . بشر عاديون ، بشر مصيرنا إلى زوال . بعضنا أكثر سعادة والآخرون أكثر موهبة . وهناك آخرون أكثر توفيقا . انتهى الأمر . الآلهة آلهة .. أما كسارير فهو كسارير . هل تذكر كيف انتهت قصة برج بابل ؟

– هذا يكفى .. أى برج هذا ؟

وصلا إلى الباب . سلافا يراقب تاتيانا كيف تخرج المفتاح من حقيبتها .

لن يقنعنى أحد أن قراءة أفكار الآخرين شىء سيئ . ولا داعى لكل ذلك .

فتحت تاتيانا الباب وأضاءت نور الصالة

- ادخل .

- بل أجيبينى أنتِ أولا !

دخل الشقة وتلفت حوله

- هل صحيح قراءة الأفكار أمر سيئ غير مرغوب فيه ؟

- غير مرغوب فيه . تخيل أننى أتحدث مع زوجى وفجأة لا أسمع ما يقوله فقط ، بل وما يفكر فيه أيضا .

فتحت الدولاب وتناولت منه حقيبة رياضية وضعت فيها بعض المتعلقات ثم ذهبت إلى المطبخ .

- هذا رائع !

ودخل خلفها إلى المطبخ

- وماذا لو كانت أفكاره لا تعجبنى ؟

لاحظت آثار شاى فى كوب على المائدة ، فغسلته بحكم العادة ووضعته على الرف .

- لا يعجبك ! أوكى ! أنا أعتقد أنك مضبوطة على موجة أخرى كما يحدث للتليفون المحمول .

وفجأة تغيرت نبرة صوتها ..

- هيا بنا .. لقد تأخر الوقت .

فى صمت مطبق نزلا إلى السيارة . لم يكن لديها رغبة فى الحديث . أمور كثيرة جدا تستحق التفكير . صمت هو الآخر وفكر أن النساء مهما كن ، فكلهن تافهات . من كان يتصور أنه سيضبط تاتيانا عند سيرجى اليوم ! وصلا إلى بئر السلم .

- سأوصلك ..

قالها سلافا وهو يخفى عينيه

- سأنصرف . وبعدها اطرقى الباب . اسمحى لى .. كفانى ما لقيت اليوم . أوكى ؟

وضع الحقيبة عند الباب

- إذا احتجت شيئا اتصل بى .

- شكرا ! أنتِ أكثر الصديقات إخلاصا .

قبلته تاتيانا فى عجالة

- اسمع .. هل يعرف سيرجى عنك ... ؟

- ربما يكون قد خمَّن .. فنحن زملاء دراسة . نادرا ما نلتقى . نحافظ على علاقتنا أساسا بالتليفون . علاقة خاصة . لكنه إنسان طيب . ضعى هذا فى الحسبان .

- أشكرك على كلامك .

وألحقتها بابتسامة .

- لكن أنا فهمت ذلك من نفسى . إلى اللقاء . سلامى لأندريه .

- اتصلى بى .

وأخذ سلافا السلم جريا .

دون أن تطرقه انفتح الباب وحده . كان ينتظرها . جميل . جميل جدا . دخلت الشقة وألقت حقيبتها على الأرض .

- ألم أتسبب فى إرباك أى شىء ؟

لحقها سيرجى بقبلة على خدها

- خفت أن تغيرى رأيك .

رفع حقيبتها ببساطة

- هل هذه كل حاجياتك ؟

- وهل كنت فى انتظار سيدة ثرية ؟

دخلت المطبخ

- هل انصرف ضيوفك ؟ هل يمكننى دخول حجرة المكتب لأغير ملابسى ؟ فهمت منك أنك تمنحنى هذه الغرفة . هل أنا على حق ؟

- نعم .. أعذرينى .. باختصار لا يوجد أصغر منها .

فتح سيرجى باب حجرة المكتب الكبيرة

- تفضلى ! على فكرة .. هل تريدين أن تأكلى معى ؟

تاتيانا بتنهيدة : أنا أتبع ريجيما قاسيا لإنقاص وزنى

- كما تريدين .

أغلق سيرجى الباب بغضب .

صاحت بسرعة : سريوجا .. ماذا عندك ؟

فتح الباب وهو يصدر طنينا شاكيا

- أعلنك أن قائمة الطعام مزدحمة . بطاطس محمرة ..

اعترضت تاتيانا : تتسبب فى زيادة الوزن بسرعة .

- سلاطة خضراء . طماطم ..

- أوكى .

- سمك ...

- سمك ؟ أى نوع ؟

بأداء مسرحى : سمك سلمون أحمر !

دون تفكير جرجرته تاتيانا خلفها إلى المطبخ

– بسرعة ! أنا أعشق سندوتشات السلمون الأحمر !

جلسا إلى المائدة المهيأة لاستقبالها من قبل . تناولت قطعة خبز أبيض وفرشتها بطبقة رقيقة من الزبد وعليها قطعة سمك ثم أمطرتها بقليل من الليمون .

– نظام عجيب للأكل . سمك دهنى مع الزبد !

– لن يفسد الخبز بسبب الزبد .

والتهمت قطعة من السندويتش بشهية . نعم .. يجب أن تتصرف بطريقة أفضل ، لكنها الآن لا تستطيع . فمنذ الصباح وهى على فنجان قهوة ، وما إن رأت هذه المائدة حتى أحكمت السيطرة على نفسها بصعوبة ، حتى لا تبدأ فى ابتلاع كل شىء مرة واحدة . فالبطاطس مهما كانت ضارة . وهذه السلاطة الروسية الجاهزة المحفوظة فى علبة بلاستيك . المهم أن تأكل كل شىء وبأسرع وقت ممكن .

– والسمك ؟

أطلق سؤاله الأخير وهو يقطع الطماطم

– السمك بالخبز ؟ ماذا تقول ..؟

أول طبقة من الإحساس بالجوع بدأت تتلاشى ، فاتكأت على ظهر المقعد .

– كل ما أريده منك يا سيرجى .. فقط .. مرة أخرى لا تقبلّنى . فكما حضرت سأنصرف . غدا أو .. الآن ..

نظر إلى الشباك الكاشف للظلام من خلفه

- لا .. غدا ..

شعرت بنوع من نشوة الشبع الخفيفة .

- فلتكن علاقتك بى .. لكنى ، لا أعرف ، تخيل أنك اصطحبت امرأة مجنونة بلا مأوى . أعرف . هذا صعب عليك . أنت براجماتى . فقير الخيال .

هزت رأسها قليلا

- خلاص . أريد أن أنام . اخرجوا جميعا ! .

ألقى سيرجى نظرة خلف كتفه ليعرف بالضبط من هم " جميعا " .

- هيه ! امرأة مجنونة بلا مأوى ! انتظرى ! لا تستغرقى فى النوم ! .

جلس فى مواجهتها

- على الأقل قولى لى .. ما اسمك ؟

- تاتيانا .

رفعت حاجبيها بدهشة لأنها لحقت نفسها على آخر لحظة .

- اسمك جميل .

- أعرف .

– وأنتِ أيضا جميلة ، هل تعرفين ذلك ؟

– خمنت ذلك يا سريوجا .. هذا اليوم كان شاقا . لا تغضب . أنا .. أنام على نفسي بالفعل .

وقامت من مكانها

يراوده أمل

– أوصلك ؟

بحزم : سريوجا ..

– فهمت .. فهمت .. أتمنى لكِ نوما هادئا .

في المطبخ انعزل وحده يتسمَّع إلى ماء الدش وكيف يتصادم مع قيشاني الحمام ، ليصرف تفكيره عنها وعن جسدها ، وعن رغوة الصابون البيضاء المنزلقة على صدرها وظهرها وساقيها . تذكر لحظة اقتراب عينيها منه لدرجة أنه عاني كثيرا لئلا تلتهم عيناه صدرها الرجراج الذي ملأ جنبات يديه . وهذا البلوفر الأسود الناعم .. والشعر الأسود الأملس .. والرائحة العطرة الطائرة .. خطوات في الردهة تشبه صوت دقات قلبه . فتح باب حجرة المكتب بقوة . انتفض سيرجي بحدة حتى إنه كاد يسقط بورتريه والده . انحنى ووضعه إلى جانب الشباك . وراح يوجه كلامه إليه ..

– صحيح لا تستطيع أن تقول شيئا ؟ صحيح بورتريه حي من لحم ودم .

قرَّب شفتيه منه وهمس له رغم سخرية عينيه ..

تصبح على خير يا بابا ..

الحمام أنعشها قليلا. أغلقت باب الحجرة وتمددت على الأريكة . هكذا . حتى الآن كل شيء يسير بشكل طبيعي . أخطاء قليلة لكنها ليست مؤثرة . كان من الممكن ألا تسمح له بالاقتراب منها بهذه الدرجة . لكنه السماح الذي يترجم استجابة لهمس قلبها وكان عمره قصيرا . لماذا تلوم نفسها الآن ؟ في لحظة ما تحول هذا الرجل عندها إلى مرآة ترى فيها نفسها . كان يجب أن تنظر في عينيه . نظرت و.. وقررت ألا تكررها أبدا . أما سلافا فهو شخص رائع ، فقد قدم لها مساعدة قيمة .

بحرص أنزلت قدمها من فوق الأريكة . لم تصدر الأرض أي صوت . جميل . اقتربت من المكتب الضخم وأضاءت الأباجورة . درج المكتب العلوي تجاوب معها بصعوبة . أخرجت كراسة سميكة مستقرة على السطح وتصفحتها بسرعة . ليست هذه هدفها . أخذت كراسة ثانية .. ثم ثالثة . أوراق ، ملفات ، مذكرات ، وبعض الملحوظات المكتوبة على قصاصات متفرقة ، وعادت إلى الكراسات . متيمة هي بالكراسات فقط . ركزت أذنيها في الخارج لتتنصت .. يبدو أنها يخيل إليها .. هناك كلب ينبح في الخارج . حاولت مع الدرج السفلي . لا شيء . مستحيل . إذن عليها أن تبدأ كل شيء من جديد . أشعة الفجر الحمراء بدأت تخترق الشباك . عليها أن تسرع . قد تكون الليلة هي فرصتها الوحيدة . وضعت

عباءة على كتفيها وانهمكت فى العمل ...

* * *

أرضية مستشفى الأمراض النفسية المؤقتة البديلة مصنوعة من المرمر . الممرضات ينزلقن فوقها بأحذية خفيفة كما لو كانت أرضًا ثلجية . السجادة الخفيفة وسط الردهة لم تحل المشكلة . لقد أضافت صداعا أكثر . منذ زمن طويل وعد أصحاب المكان بحل هذه المشكلة ، لكنهم لم يستطيعوا أبدا الوصول إلى حل مناسب . الممرضات الشابات وجدن حلا يريحهن بارتداء أحذية مطاطية . اعتاد المرضى التعرف على هوية القادم من صوت خطواته . الحياة بدأت لتوها فى المستشفى فى هذا الوقت المبكر من الصباح . ممرضة جميلة تجلس إلى المنضدة بالقرب من حجرة مكتب تحمل لافتة " نائب كبير الأطباء " . دقات الكعب العالى أجبرتها على رفع رأسها . كيف تستطيع رئيستها الإسراع على هذه الأرضية بكعب عال ؟ وما فائدة هذا الكعب العالى أصلا ؟ لم تدرك الفتاة . مالها الأحذية المطاطية ؟ فالكوتشى حذاء مريح . حاولى أن تسيرى طوال اليوم على أطراف أصابعك . يقولون إن الساقين تبدوان أطول من حقيقتهما . من أجل هذا الهدف يجب الحرص على هذا التمرين . هل من أجل خاطر كبير الأطباء الذى لا يتواجد فى عمله كثيرا ، أم من أجل خاطر هؤلاء المرضى النفسيين ؟

– من أجل خاطر نفسك يا ابنتى ..

أجابتها تاتيانا من بين ابتسامتها

– صباح الخير .. هل هو موجود هناك ؟

مرت الممرضة بأصابعها على خصلات شعرها

– آه .. تاتيانا نيكولاييفنا . دائما تفزعينني ! صباح الخير . إنه هناك كما طلبتِ .

– رائع . لا تدخلى أحدا .

دخلت تاتيانا غرفة المكتب واسترخت على الكرسى المتحرك بجوار المكتب ، ثم استدارت ناحية الرجل الأشيب الشعر بالقميص الأبيض الجالس على الجانب الآخر من المكتب . ملامح وجهه تشبه .. من بعيد .. لا يهم .. من يكون ؟ الآن يجلس أمامها مريضها . رجل خرج من اللوحة .. أو ببساطة .. إنه والد سيرجى ...

وبدلا من تحيته قالت له ..

– لا يوجد أى كراسة ! إلا إذا !

– هل فتشتِ جيدا ؟

– أكثر مما تتخيل . لا يوجد ما أفعله أكثر من ذلك .

بثقة : مستحيل .

- فحصت كل شيء . يجب أن يكون مرسومًا على الصفحتين الخامسة والعاشرة جعرانا . أليس كذلك ؟

- تماما .

- لا وجود لهذه الكراسة مطلقا .

- أنت تقتلينني .

وأمسك رأسه بين يديه

- كان هذا أملي الأخير .

- إذا كانت هذه الكراسة مهمة عندك إلى هذه الدرجة ، حاول أن تعيد كتابتها من الذاكرة مرة أخرى .

- تطلبين مني إعادة كتابتها مرة أخرى ، وهي التي استنزفت من عمري ثماني سنوات ؟

- حاول ! ولنبدأ من الآن .. ما الموضوع المهم المكتوب في هذه الكراسة !

وقفت وخطت ناحية النافذة .

- مرة أخرى تنهمر الأمطار في الشوارع . الصيف حزين هذا العام . يا ربي لماذا لا أعيش في مكان ما في جامايكا أو إفريقيا مع الشمس الساطعة ، مع مرح الناس وترحيبهم الدائم بالضيوف ، أما عندنا ..

كيف يمكن أن يبدع الناس فى هذا الجو الضبابى معظم الأيام ، تحت كل هذا الكم من السحب التى تملأ السماء ! لكن هل تولد هذه السحب الرمادية من مدى تكيفنا نحن مع الجو المحيط بنا ؟ من أفكارنا الرمادية وتعاستنا ؟ من يدرى .. تنهدت وأعطت ظهرها إلى الشباك واستندت على حافة النافذة .

صوت رفيقها أعادها إلى أرض الواقع

– أنا أقدم رؤية جديدة لتاريخ مصر ! أثبت فيها أن ما يطلق عليها " مصر القديمة الفرعونية " دولة مسيحية .

بدأ يأخذ الحجرة ذهابا وإيابا وهو منفعل ويلوح بيديه

– بمعنى ؟

عادت إلى مقعدها وهى تضع ساقا على ساق

– مصر هى بلد الصلبان .. كثير من الآلهة المرسومة على الجدران والآثار والتماثيل تمسك بيدها أحد رموز السيد المسيح فى القرون الوسطى . وهو ما نسميه الصليب القبطى .

اقترب منها وعلى الفور رسم الصليب أمامها على ورقة

– هكذا ...

* * *

أدارت الصفحة .. كان هذا تقريرا عن العام الماضى .

اتجه الرجل العجوز إلى الأداء المسرحى

– وأبو الهول .. ماذا تقولين عن أبو الهول ؟

اندهشت تاتيانا : أنا ؟

– ألم تلاحظى أبدا أن رداء رأس أبو الهول يماثل رداء الرأس الشهير للمسيحيين ، ومازال حتى الآن يضعه رجال الدين فى الكنيسة الأرثوذكسية ؟

– نعم .. نعم .. لقد قرأت شيئا من هذا فى بحث العالم الأكاديمى " فوفيكو " الذى أعطيته لى

همس : بالطبع كل هذه الأفكار تتبخر فى الهواء ! وأبو الهول الكبير ..

تاتانيا بفزع : ماله هو الآخر ؟

– يمثل أربعة أشكال .. الثور والصقر والأسد والإنسان ، وكلها رموز الإنجيليين !

ثم صرخ بقوة

– وما هذا الرمز ؟!

انفتح باب غرفة المكتب وأطلت الممرضة على من بالداخل وهى منفعلة

صاحت تاتانيا : كل الأمور عادية .. أغلقى الباب .

تبعها الرجل بحزم : نعم .. نعم .. أغلقى الباب .

ثم عاد للكشف عن أفكاره

– لقد اتحدت رموز الإنجيليين على هيئة أبو الهول بالجيزة ! أوكى .. وما هذا الرمز ؟ هذا رمز مسيحى مشهور جدا .. وله أربعة أوجه .. أسد وإنسان وصقر وثور . وبعدها .. فى العصور الوسطى لتاريخ مصر انتشرت المسيحية القبطية .

وطوح يده فى الهواء

– هذا أمر يعرفه كل الناس

تاتيانا فى تردد : نعم .. نعم ..

– طبعًا .. لهذا اسم مصر " إيجبت " يعنى قبط .. من كلمة قبطى .. أى ..

ثم عاد إلى مكانه وجلس فى مواجهتها .

شرح كل هذه الأمور بسيط للغاية ! خصوصا الدولة الوسطى والدولة القديمة لمصر .. فالاثنان واحد .

قامت واقتربت منه ..

– أنت عبقرى .

عاد الرجل يقف وتشبث بكتفيها

- تاتيانا نيكولاييفنا ! تانيوشكا ! يا ابنتى ! أحتاج هذه الكراسة بشدة . يجب أن أنشرها . هذه هى الطريقة الوحيدة التى أفلت بها من هذا العالم ! هناك يوجد الكثير .. الكثير جدا ! ترجماتى للصلوات المصرية للآلهة المختلفة تتطابق بشكل غريب مع الصلوات المسيحية ! ساعدينى !

أصر ألا يفارق عينيها

- أستحلفك .. من أجل كل شىء مقدس

بطراطيف أصابعها مسحت تاتيانا جبهتها . اعتصرت رأسها بشكل غريب . العينان .. هاتان العينان .. هاهما .. أقرب ما تكونان إليها . ماذا بها ؟ لماذا تتذكر هيئة هذا الرجل لكن فى ملابس أخرى ؟ قبلت يده . . مسح هو على شعرها بحنان . قوة غير عادية ورقة متناهية تنبعثان منه فى الوقت نفسه . كم تقدر مكانة هذا الرجل . لقد منحها الحياة . منحها هذا العالم .. إنه هو الذى منحها كل ما تملكه الآن .. مرة أخرى مسحت جبهتها . يجب أن تتماسك .

وحاولت الابتسام

- ما هذا الذى يحدث لى ؟ شىء غريب . لقد خيل إلى الآن أننى أعرفك منذ آلاف السنين .

أجابها بهدوء دون أن يفارق عينيها : من يعرف .. من يعرف ..

- اسكت .. الآن .. الآن ..

هوت في مقعدها وأغمضت عينيها

- لقد انتهى كل شيء . أنا أعرف ، أعرف أين توجد كراستك . تذكر . فكر ! كنت أنت فى عجلة من أمرك . سمعت طرقا على باب الغرفة . نعم .. قفزت .. قفزت حقيقة من فرط الألم .. سمعت طرقات قوية . أمسكت الكراسة ثم اقتربت من الدولاب . تذكر ! ساعدنى ! بسرعة ! اقتربت من دولاب الكتب .. أنا لا أرى أى شيء بعد ذلك !

قطب جبين الرجل .

أخذت كتابا .. ثم وضعت فيه الكراسة .

- هذا الكتاب .. هيا .. فكر ! تذكر ! أنا أعرفه تقريبا .

أضاف ببطء : " أسطورة إيزيس وأوزوريس فى مصر القديمة " .

- رائع ! أنت رائع ! .

قفزت ناحيته وقبلته

- لقد أخطأ ابنك عندما أرسلك إلى مستشفى الأمراض النفسية ! . ارتكب خطأً فادحًا .

ملَّس الرجل على شعرها ورفع الخصلات التى سقطت على جبهتها وخفتت درجة صوته

- بالعكس .. أنا ممتن له . فلو لم يفعل ذلك ، لم يكن يمكن أن نتقابل أنا وأنت .. يا ابنتى .

رأسها تدور .

التقطت أذناها عبارات من مكان بعيد ..

- تقريبا أنتِ الآن قتلتِ الخوف داخلك .. لم يبق إلا القليل جدا ... نعم .. سوف يشهد علىَّ أوزوريس ..

يدان قويتان احتوتاها ورفعتاها . ذهبت فى سبات عميق وهى تضع رأسها على صدر هذا الرجل . من بعيد جدا راحت تستمع إلى دقات قلبه .

* * *

سألته تاتيانا وهى تراقبه يعد لها القهوة ..

- سيرجى .. القهوة خالية من الكافيين ؟

- ما معنى أن تكون القهوة خالية من الكافيين ؟ أيتها السيدات .. أنتن تثرن الضحك بجد .. قهوة دون كافيين كالسكر دون سكر .. لماذا يفقد بعض الأحياء وعيهم خصوصا فى أماكن عملهم ، حيث لا يستلهمون القوة من أى مصدر آخر ؟

وضع أمامها فنجان القهوة وبعض الفطائر

– تفضلى .. هذه فطائر أصلية من مدينة تولا التى تشتهر بها .

قضمت تاتيانا قطعة

– لذيذة صحيح .

– ضعى فى اعتبارك أننى لن أسمح لكِ بالذهاب إلى عملك غدا . سأمنحك إجازة مرضية ! .

فجأة احتواها بين ذراعيه وقبلها فى خدها .

لا أريد أى مناقشة !.

– مرة أخرى ؟ هذا لم يدخل فى اتفاقنا .

ودفعته عنها بيديها .

– سيدتى .. اختارى بين اثنين .. إما أن تكونى مصنوعة من الفولاذ وإما أنكِ شاذة جنسيا ..

طاف كفها يتحسس رقبتها ونزل إلى كتفيها وإلى صدرها

– على فرض أن كل هذا ليس مصنوعا من الفولاذ ، إذن لا مفر من اختيار الحل الثانى .

رفع سيرجى يديه إلى السماء

– كم أنا تعيس ! هل كان يجب أن أتورط بهذا الشكل ؟ لكن أرجو ألا تحضرى صديقاتك هنا ؟ فهذه الزيارات المفاجئة كما تعرفين ..

قطع جرس الباب كلماته .. تبادلا النظرات . فتح سيرجى الباب وخرج على السلم . صوت مكتوم لحديث بين رجلين أثار فضولها للتنصت . تريد أن تعرف هى من القادم وماذا يقولان ! . بفعل التوتر ارتعشت يداها . كيف تتصرف هى بهذا الشكل ؟ شربت القهوة . تماسكى يا تاتيانا .

راحت تدير إسورتها حول معصمها بعصبية . لم يبق إلا القليل .

جاءها صوت من بعيد .. " إنه الخوف . اقتليه ! .. اقتليه ! "

أمام رجل طويل نحيف جدا وقف سيرجى يحملق فيه .

- أخبار سيئة .

- أنت متأكد ؟ .

- جدا . كنت هناك . أخبرونى أن المستشفى أغلقت أبوابها ، وأنهم وزعوا المرضى على ثلاث عيادات نفسية .

ثم همس الرجل النحيف بسرعة

- مريضك ذهب إلى عيادة " بروليتاركا " .

التفت سيرجى ليتأكد إذا كان باب الشقة مازال مواربا

- أنت كنت هناك ؟

- كنت هناك . هذه هى الحقيقة .

سيرجى بجدية : يجب أن أفعل شيئا .

- أنت الذى لم ترغب فى ذلك .. قلت إنه أبوك . وقد اقترحت عليك .

ارتفع صوت سيرجى : كفى

- أوكى . إنه والدك . فكر . كان يمكنك أن تذهب إلى هناك بنفسك . كان يمكن أن تلتقيا! .

ابتسم سيرجى ابتسامة شريرة

- أشكرك .. لم أنس أبدا اعتراضك وأنت تقول لى " قاتل .. قاتل " ..

- ولأننى واجهتك بالحقيقة أرسلته إلى مستشفى الأمراض العقلية ! أمر غريب يا صديقي . أمر غريب .

- وهل كان يمكن أن أرسله إلى مكان آخر ؟ .

- أتذكر كلامك جيدا . هناك حقيقة نحتاجها وأخرى لا نحتاجها .

تراجع صوت سيرجى : وماذا فى هذا ؟ بدأت أخيراً أومن أن أكثر الحقائق ليس بالضرورة أن يعرفها أحد .

- سأنصرف . هذه الفلسفة لا تهمنى فى شىء . على فكرة . مهما يكن يجب أن تذهب إلى هناك ! ستجد المديرة . أقصد النائبة . شيئًا جميلاً ! متعبة لكن رائعة . على ذوقك .

وضربه النحيف على كتفه

- من أجل خاطرها على الأقل اذهب إلى هناك .

سرح سيرجى فى أوصافها

- ما اسمها ؟

- سأبحث عنه عندما أعود إلى البيت . اسمها مكتوب عندى . لكن لماذا تقف على السلم ؟ عندك ضيوف ؟

- هل أرسلوه هناك منذ زمن بعيد ؟ .

الضيف المتوتر : أرسلوا من ؟

- والدى ؟

- منذ أسبوعين .

- أسبوعان .. اذهب .. اتصل بى بالتليفون وأخبرنى ما اسمها ؟

- نعم .. كنت أعرف أنك مضبوط على هذه الموجة .

صاح الضيف وهو يجرى على السلم

- انتظرنى .

سيرجى وهو يغلق الباب : أنا فى الانتظار .

من خلفه جاء صوت تاتيانا بدلال وهى تخرج إلى الردهة

- من هذا الذى تنتظره ؟

كل هذا الوقت كانت تبذل قصارى جهدها لتستمع ولو إلى كلمة واحدة من حديث سيرجى مع ضيفه الغامض . بمرور الوقت تسرب الهدوء إليها وأضفى على تصرفاتها رنة الدلال .

- تعرفين المعجبات .. واحدة تنصرف لتأتى الأخرى

بادرته باستعجال : ربما يمكن أن أنصرف الآن ؟

- لا يا عزيزتى .

اقترب منها واحتضنها بقوة

- لا .. لن تهربى بهذه السهولة من شباكى !

بصعوبة فرت تاتيانا من بين يديه وضربته بقبضتها فى أنفه . صرخ وحاول كتمان أنفه بيده ، لكن الدماء تسيل بغزارة .

بحدة : هل تعرفين ماذا يسمون هذا التصرف ؟

- ضربة قاضية أو ضربة فنية .. دائما أخلط بينهما .

اقترب منها سيرجى ومازال ممسكا بأنفه . أخيرا تركها فوجد كفه مضرجا بالدماء . توقفت عيناه عند قميصه البنى الفاتح ، ثم انتقلت إلى تاتيانا ووضع يده على صدرها .

- هل عندك قلب ؟ هل يدق ؟

راح ينصت إليها

- صحيح . إنه يدق .. مازال يدق حتى الآن .

رفع يده وترك مكانها بقعة دماء على فستان تاتيانا الفاتح . فى صمت دخل سيرجى دورة المياه . على الفور عادت تاتيانا إلى حجرة المكتب وخلعت الفستان ثم لبست " كيمونو " . اقتربت من الدولاب . مرت بعينيها سريعا على أسماء الكتب . هذا هو ما تبحث عنه . فتحت الكتاب و ... سقطت منه الكراسة . صوت الماء مرتفع من دورة المياه . اندفعت كالسهم ناحية التليفون وأدارت رقما .. هيا .. بسرعة ... هيا ! أين الآنسر ماشين ؟؟؟ كل ما تسمعه جرسا طويلا لا ينقطع . وضعت السماعة وبدأت تتصفح الكراسة وهى جالسة على طرف الأريكة . بعض الكتابات مكتوبة على الصفحة الأخيرة بخط صغير .. قرأت منها ..

" ماكسيموف .. الرابع من أبريل عام ١٩٩٢ ... تروفيموف ... الثانى عشر من يونيو عام ١٩٩٣ ... يوشين ... الأول من أبريل عام ١٩٩٤ ... شيف ... شوف ...

حاولت تدقيق النظر

- ... شفشنكو .

صوت سيرجى جعلها تقفز من المفاجأة . ظهر سيرجى على باب الحجرة يلبس الجينز بدون فانلة .

استكمل ما كانت تقرأه بصوت عال وهو يدخل الحجرة على مهله

- شفشنكو .. فى الأول من ديسمبر عام ١٩٩٧ .

زحزح رأسه قليلا فبدا كثور يافع يستعد للهجوم

- ما هذا ؟

بسخرية متناهية : ماذا ؟ أعياد ميلاد ...

- لا .. مكتوب هنا .. توفى بسبب .. توفى بسبب .

- يعنى تواريخ وفاة .. وما الفارق ؟

انتصب أمامها وهو يباعد ما بين قدميه وهو عارى الصدر والشر يتطاير لمعانه فى عينيه ، فأحست هى بخطر حقيقى . ومع ذلك حاولت أن تتماسك وقالت ..

- وهذه هى الحقيقة !

جرس التليفون أجبر سيرجى على مغادرة الحجرة ، لكنه عاد أسرع مما توقعت حتى إنها لم تأخذ فرصة لتفكر فيما يجب أن تفعله بعد ذلك . جاء وفى يده قطعة قماش بيضاء اللون .

- وماذا بعد ذلك ؟

جلس بجانب تاتيانا على الأريكة .

- هل انطفأت نارك الآن ؟ جئتِ إلى بيت رجل عازب .. تسيرين وأنتِ نصف عارية .. تتدللين .. تتلاعبين بى كما يحلو لكِ . فى رأيك هذا أمر طبيعى ؟

أعطاها قطعة القماش فتبينت أنها قميص المجانين . على الرغم من مقاومتها العنيفة ألقى بها على الأريكة .

– والآن .. الآن .. سنصلح من شأنك بعض الشيء .. هكذا ..

بإحكام قيدً قدمي تاتيانا بشريط مطاطي .

– أوكي .. وسنتصل بطبيب نفسي معرفة . حاصل على درجة الدكتوراه . يمكن أن نعتبره عبقريا ! صحيح .. لكن عنده عيب واحد .. إنه امرأة ! عند السيدات الأحاسيس دائما لها الكلمة العليا على عقولهن . أليس كذلك ؟ ما رأيك ؟ نتصل ؟؟

أخرج ورقة من جيب البنطلون الجينز وقرأ ..

" ليبيدينا تاتيانا نيكولاييفنا .. نائب كبير الأطباء "

هذا هو رقم تليفونها . ما رأيك ؟ هل نتصل بها ؟؟

في صمت تام راحت تاتيانا تحملق فيه وهي تحاول أن تتماسك بصعوبة فواصل كلامه

– لن نتصل بها . يعني .. ولماذا يجب أن نتصل بها ؟ فهي ليست هناك . إنها تتمدد هنا . يا دميتي ..

تحسس جسدها بيده .

– هكذا إذن ؟ هل تريدين أن تقولي أي شيء ؟ لا .. أنا الذي سأقول ! .

نهض وصرخ فجأة بصوت عنيف

– سترقدين هنا حتى تموتى !! إلى اللقاء ..

وأضاف بسخرية

– لن تتحولى إلى مومياء ! هل تحبين عندنا كل ما ينتمى إلى مصر ؟

تحسست يده رأسها ، فانتفضت هى تحاول إبعاد يده

– ذكية .. كم أنتِ ذكية يا فتاتى .. هكذا رتبتِ كل شىء ! على فكرة أنا لا أعتبر نفسى من الأغبياء . من أول وهلة تشككت فى الأمر . عندما اتصل سلافكا وقال .. " بسرعة .. لقد صدمتها سيارة ، إنها تموت .. آه .. " ، وبعد ذلك .. ما رأيك .. هى .. ورفع إصبعه إلى أعلى علامة أنها من صنف ممتاز .. قبل أن تفقد وعيها طلبت هى ألا نستدعى سيارة إسعاف ، بل الاتصال بك . أنا .. ومن أين تعرف عنى أى شىء ؟ آه .. منك أنت يا سلافيك . مفهوم .. ومن تكون هى ؟ نعم .. طبيب نفسى ؟ نعم .. وتعمل فى مستشفى الأمراض العقلية ؟ وبعد ذلك كان يجب علىَّ أن ألعب معك . وهذا هو ما فعلته بالضبط . كنت أجهل ماذا تريدين منى ! ها هو صديقك سلافوشكا ! ها هو صديقك الغبى ! .

تاتيانا من بين أسنانها : غبى .

– وأنا أؤيدك ! إنه غبى ! يمكنك الآن أن تعلنى أن العملية فشلت كلها . عمليتك وليست عمليتى . كنت أحتاج للكراسة . هذه الكراسة !

هذه ! لقد بحثت وقلبت كل شيء ! أشكرك على مساعدتك .

بصوت متحشرج : هل تهتم بمصر ؟

- أنا ؟ أهتم بهذه الأشياء ؟ هرم خوفو فارغ تماما من أى محتويات . لقد وضعوا التابوت الكبير داخله لأغراض أسطورية . كان أفلاطون أحد الأجانب القلائل الذين سُمح لهم بالتعميد .. وكذلك فيثاغورث وبلوتارخ وهيرودوت وهوميروس .. كلام فارغ .

وقلب الصفحة

- ها هو .. هذا ما كنت أحتاجه !

لاحظت أنه فتح الصفحة الأخيرة

- ما هذا ؟

- ماذا ؟ ألا ترين ؟ إنك جرّاحة .. سيدة متقلبة المزاج . يا سيدتى أنتِ تجرين العملية الجراحية بدقة تامة . وفجأة .. يحدث أحيانا .. أن تتوقف حياة المريض على شعرة بسيطة جدا . مرة من المرات حدث ذلك . لم أرتكب شيئا عن قصد . مفهوم . كل ما هنالك أن هذا الشخص غير مرغوب فيه عند الطرف الآخر . هناك حالات كثيرة بهذا الشكل .. أشخاص غير مرغوب فى وجودهم . لم يكن لدى رغبة فى أن أقبض الثمن . لكن بعد ذلك قبضته . هل تعرفين كم يبلغ مرتبى ؟ ثلاثمائة دولار ؟ نعم ؟ لا تصدقين ! جراح مشهور بارع ! هذا لا يكفى ، أليس كذلك ؟ وبعدها

تكـــرر الأمر مـرة ثانيـة .. وفى إحـدى المرات .. أحـضـروا لى المال أثناء وجود والدى .

راح الشر يلف ابتسامته مرة أخرى .

ظهر والدى فـجأة وهو يقفـز ويقول : سمعت كل شـىء .. عرفت كل شـىء .. سـمـعت كل شـىء ، لقد دونت الأسـمـاء ، سـأبلغ البـوليس .. هو سيتصل بالبوليس وأنا قررت أن أرسله إلى مستـشـفى المجانين ! والآن وبمساعدتك يا سيدتى عادت الأسـمـاء إلىَّ ، الآن سوف نـحرقـهـا . طبق الورقة إلى نصفين ووضعها فى النار وأشعل طرفها العلوى . ..

هكذا .. والآن لا يهم ماذا سيقول والدى المتطفل .

سعلت تاتيانا

- سيرجى .. أريد أن أشرب .

- فلتختنقى ! .

مرة أخرى عاد سيرجى إلى الكراسة .

- احبـسـوه فـورا . واضـح جدا مـــن أول نظـــرة أنه مـجنـون ! " الإنسان لا يمــوت لأن روحه خالدة " .. صـحيح . لكن لا تخبرينى أنا الجراح بهذا أبدا ..

ظلت تاتيانا تنصت إليه وهى تحاول أن تتذكر شيئا ما . صـوت ما يقترب . صـوت سيرجى قـادم من بعيد . من هذا الدخان الخفيف تكوَّن

أمامها شكل ما . أجراس تدق باستمرار من مكان ما .. الظلام يهبط بتأن . أحست وكأنها تنفصل عن الأرض قليلا . مرة أخرى رأسها تدور بعض الشيء . على غير انتظار ظهر بين أطياف الضوء وجه الرجل العجوز . بذلت جهدا لتحاول العودة إلى الواقع .

سألته بصوت منخفض وهو يفك أزرار قميص المجانين الملتف حولها

– كيف عرفت ؟

– لم تحضرى إلى العمل . كراستى .... لقد خفت عليك .

– اخرج بسرعة . سيقتلك . اتصل بزوجى . التليفون ..

– أعرف .. الأفضل أن أقول .. عرفت .. وهل هو ...؟

– نعم .. يعرف كل شيء .

– ولماذا تساعديننى بهذا الشكل ؟ هل تعرفين أنتِ على الأقل ؟

ابتسامة خفيفة : بدأت أخمن .

فجأة هبطت عليها أصوات من جميع الجهات .. أصوات غناء .. موسيقى .. أمسكها الظلام من يدها وأخذها إلى مكان ما .. فى قلب الليل ...

... تمثال الإله حورس يقف على منضدة صغيرة أمام مقعد . رأسه على هيئة طائر . الدخان يتصاعد . رجل عجوز جميل الطلعة يجلس على المقعد والحكمة تطل من عينيه .

كان يفكر فى الحياة التى عاشها ، فيما حقق ومالم يحقق من أجل بلاده المسكينة التى يحبها من كل قلبه .

على الباب ظهرت ابنته .. أنوكيت .. التى يفتخر بها ويضع عليها آماله

- أنت وحدك يا والدى ؟ أين خدمك ؟

- الوحدة فى اعتقادنا .. لعنة .. لكن عندما نصل إلى الحكمة نعتبرها تقديسًا . إياك أن تفتشى عن روحك فى الزحام . هناك ستجدين أى شىء إلا الروح .

- وأنت تركت خدمك ينصرفون ؟

- لأفكر .. لكن ما الذى أتى بكِ إلى هنا فى الليل ؟

- تقلقنى بعض الأفكار السيئة . احك لى واحدة من الأساطير القديمة كما كنت تفعل وأنا طفلة . وأنا سأجلس عند قدميك وأنصت .

- وماذا تريدين أن تسمعى بالذات ؟

- أسطورة إيباجومينا ؟

جلست عند قدمى والدها وهيأت نفسها للإنصات .

حالة صمت .. ويبدأ يحكى بصوت منخفض

- يوما ما كانت الإلهة نوت على علاقة سرية بكرونس ، لكن الإله رع كشف الأمر فلعنها .. وعندها وقف يفكر بينه وبين نفسه .. ثم أعلن

أنها لن تتخلص من الحمل فى أى شهر من شهور السنة . كان هيرميس يهيم حبا بهذه الإلهة ، ولكى يعبر عن امتنانه لها بتفضلها بالعطف عليه ، ذهب ليلعب الشطرنج مع إله القمر وفاز بالجزء السبعين عن كل يوم . ثم ربط كل هذه الأجزاء فى بعضها البعض ، فحصل على خمسة أيام كاملة . ثم أضافها إلى الأيام الثلاثمائة والستين التى كانت تمثل عدد أيام عام كامل من قبل . فى هذا الوقت كانت هذه الأسماء تسمى " إيباجومينا " ، أى التى أضيفت إلى ما سبق ، ونحن نحتفل بها كأيام ميلاد الآلهة أوزوريس وحورس وست وإيزيس ونفتيس .

وأنهى الرجل حكايته .

سرحت أنوكيت مع أفكارها ..

– حب هرميس ترك آثاره على الخلود .

– نعم .. لكن لماذا طلبتِ منى أن أقص عليك ما تعرفينه منذ طفولتك ؟ اعترفى يا ابنتى !

وضع يده على رأسها وقبَّلها فى جبهتها .

– أريد أن أبقى بجانبك أطول وقت ممكن . وهل تريد أن أنصرف ؟

– أريدك أن تبقى بجانبى إلى الأبد . لكن مع الأسف هذا مستحيل .

– كيف ؟ هل يعجز الحب الذى يربط بيننا أن يمنحنا هبة عدم الافتراق الأبدى لأرواحنا ؟ أى حب هذا ؟

- سنتقابل أنا وأنت كثيرا فى المستقبل .. وبعدها . سنتقابل فى عـالم الخلود .. فى اللحظات الصـعـبـة التى سـتـمـر بـأرواحنا .. لكن المؤسف أننا لن نستطيع أن نتعرف على بعضنا .. وسنمر بجوار بعضنا ونحن لا ندرى .

- حتى نستطيع أن نتقابل .. فى المستقبل ، هل يجب علينا الحفاظ على نقاء أرواحنا؟

- يجب أن نفعل الخير . عندها وفى يومٍ ما سيقترب منا إنسان ما ويسألنا " هل تعرفنى أو لا ؟ "

- وهل سأتعرف عليه ؟

- ستعرفينه لو كان قلبك مستعداً للحب ولو بقيت روحك نقية .

- سـأدير الأمر فى رأسى . أمر صعب أن نغدق الخير على الناس مقابل الشر والخيانة والخداع .

- احذرى يا ابنتى وتذكرى أنك من الصفوة المختارة .. لقد بوركت ومع ذلك لا تستطيعين التعرف على كل قدراتك بما يكفى .

- لكـن يا والدى .. لا أستطيع أن أفارقك الآن . أفكارى الشريرة لا تريد أن ترحل إلى الصحراء .

- اذهبى للنوم .. أريد أن أبقى وحدى .

اسـتـدارت وتوجـهـت ناحـيـة البـاب . المـمـر خـال . أذاعت الأرض الحجرية وقع أقدامها . فجـأة اعتراها خوف هائل عندما سمعت صـوت

ارتطام شيء ما .. اندفعت تجرى نحو الباب وفتحته . الفرعون العجوز يتعارك مع رجل بملابس سوداء . ميزان القوى غير متكافئ أبدا . رجل الملابس السوداء يمسك بيده خنجراً مدبباً ويحاول أن يطعن الفرعون . أمسكت أنوكت بتمثال الإله حورس واقتربت من خلفه ، وهوت بكل قوتها على يد القاتل المرتفعة فأسقطت منها الخنجر .

وانشغلت بفكرة ما راحت تدور فى رأسها

– وماذا بعد ذلك ؟ هل يجب أن أحبه ثم أغفر له أيضا ؟ وهو الذى حاول قتل أبى ؟

فى لحظة واحدة رفعت الخنجر من على الأرض وانقضت على رجل الرداء الأسود .

– يا خائن ! كيف تجرؤ أن تلمسه ؟ كيف تتجرأ أن ترفع يدك عليه !

وبكل ما أوتيت من قوة طعنته فى صدره ، فسقط صريعا .

حالة من الارتعاش الكامل . بصعوبة بالغة حركت قدميها من مكانهما . لا يوجد أحد فى الشقة . لا أحد . جرت ناحية الباب وانطلقت هاربة .

* * *

الشارع مظلم والمطر قليل .

سارت وهى لا تعرف إلى أين تتجه . أفكارها مرتبكة . سيارة بأنوارها الكبيرة المضاءة تقترب عند ناصية الشارع . اقتربت منها ثم توقفت بعدما سدت عليها الطريق . انفتحت أبواب السيارة . هزمت ارتباك أفكارها وجلست فى المقعد الخلفى دون مقاومة . أدار السائق رأسه ناحيتها وصبر عليها هو الآخر فى صمت . طوحت بيدها إلى الأمام ! تحركت السيارة . رفعت تاتيانا رأسها و.. بدأت تقدر أبعاد الموقف . عبر مرآة السيارة ظل يحملق فيها . عيناه تحملان إحساسًا غامضًا لرؤيتها . هذه الروح هى التى قادتها أثناء طقوس المباركة .

– أنت ؟

– أنا ...

– أرجوك ! ساعدنى .

– تكلمى

– لقد قتلت الخوف داخلى ، ومن أجل إنقاذ إنسان قتلت إنسانًا آخر شريرًا .

– شرير ؟

تمتمت لنفسها : شرير .. أما الإنسان المعتدل ..

– نعم .. هذا الإنسان بالذات .. إذا بحثنا عن الاتزان سنجده صراعًا دائما بين الأبيض والأسود يدور داخله .

- لقد أخذت على عاتقى أن ألعب دور القاضى ...

- القاضى الأعلى ؟ الله وحده هو الذى يمنح الإنسان الحياة وهو وحده الذى يستردها . ماذا تريدين أنتِ ؟

صرخت مفزوعة : أنا ؟ .. أنا ؟ أبدا ! .

مالت إلى الأمام ناحية السائق

- ارجع بى ! أرجوك .. عد بى ! أنت تستطيع أن تعيد الزمن إلى الوراء ! أعرف ذلك ! امح كل ما حدث كأنه لم يكن ! أتوسل إليك ..

- كأنه لم يكن ؟

بنبرة تحذير : لكنك تجازفين .

- بماذا ؟ ماذا يمكن أن يحدث أبشع من ذلك ؟

- سأعود بك على شرط واحد فقط . ستفقدين ذاكرتك . ستنسين كل ما حدث . أنت تجازفين بالسير على نفس خط أخطائك السابقة ..

بصوت خافت : هل أنت قاس إلى هذا الحد ؟ ماذا سيحدث ؟ لقد سرت فى الممر الخطأ . أنا موافقة . لكن سارع بالتنفيذ بقدر ما تستطيع ! انتظر ..

أرخت عينيها

- فقط أخبرنى .. لماذا كان يجب أن يحدث كل هذا ؟

– لماذا ؟ حتى تحصلى على حريتك فى اختيار طريقك الذى يؤدى إلى داخل عقلك أنتِ . إلى المعبد السرى لروحك . الحرية هى مكافأة الروح الطاهرة .

نظرت تاتيانا إلى يديها الملوثة بالدماء

– ساعدنى بسرعة ! عد بى ! نفذ ..

– لقد بدأت تنفيذ ذلك بالفعل .. إلى اللقاء .

* * *

– لماذا كان من الضرورى أن أفتح الشباك ؟ الجو بارد أصلا !

لفت تاتيانا نفسها بالبطانية . زوجها مستغرق فى النوم . استدارت لتنام على بطنها وأسندت رأسها على يدها وراحت تتأمله .

تمتم زوجها وهو مغمض العينين : ممنوع النظر إلى إنسان نائم . أنتِ نفسك قلتِ هذا ! .

– عندما أريد أفعل ما أريد وأنظر كما أشاء .. أنت زوجى.

وقبلته .

– أفعل ما أريد .

– هذه هى حياتنا باستمرار ... لماذا أصبر عليكِ ؟

- نعم ، تصبر ؟! تصبر ؟!

وانتزعت منه البطانية .

- اهدئى .. اسمعى .. يخيل إلىَّ .. صوت تليفون .. من الذى يتصل فى هذا الوقت المبكر ؟ هل من الأفضل ألا نرد ؟

- سنرد ..

قفزت من فوق السرير وجرت حافية ناحية التليفون وبدت عليها الغيرة وهى تنصت إلى الحديث وتكلمت بصوت مسموع ..

- كم عددهم ؟ واحد فقط ؟ لمدة شهر ؟ أوكى . أرجو ألا يكون عنيفا .

ابتسمت

- تمام . اتفقنا .

عادت إلى حجرة النوم . إلى زوجها الذى كان قد ارتدى بنطلونه .

بدلال : لبست ثيابك ؟ لحقت ؟

- تاتكا .. انظرى إلى الساعة . تأخرنا فى النوم عن كل شىء . من الذى اتصل ؟

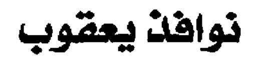
- لا يهم . أمور فى العمل .

لبست الروب وأحكمت الحزام حول خصرها بإحكام .

حادث ما وقع فى شبكة كهرباء الحى الخامس عشر . لهذا سيعيدون توزيع المرضى فى أنحاء المدينة . سيحضرون لنا اليوم رجلاً عجوزاً . فقد عقله بسبب العلم . ما لنا نحن بهذا ..

رغما عنها وقع نظرها على السجادة . جعران ذهبى كبير لامع يقبع ساكنا . انحنت ومدت يدها . لا شىء . مجرد أوهام .. ليس لنا علاقة بالرجل العجوز .. أليس كذلك ؟

خرجا من غرفة النوم وأغلقا الباب خلفهما . بداية يوم جديد . على ضوء أشعة الشمس جعران ذهبى يرقد وحده على الأرض بهدوء ...



نوافذ يعقوب

أمام فاترينة محل بشارع جراين وقفت جاكلين . مرة بعد مرة راحت تتأمل البدلة التى أعجبتها وتتخيل نفسها داخلها . مقابلة حبيبها بملابس حريرية ماركة ديور ولو لمرة واحدة حدث مثير . داخل الشقة نصف المظلمة تقترب منه ببطء . جمالها الفاتن يثيره فيمد يده إليها و...

– ذوق البدلة متدنٍّ للغاية .. أليس كذلك ؟

تلفتت حولها فوقعت عيناها على امرأة مظهرها يسبب الصداع الأزلى. امرأة سوداء الشعر مبتسمة تتطلع إليها بعيون خضراء مثيرة . غالبا عدسات لاصقة . شعرها مصبوغ . جاهدت جاكلين لتمتص توترها بسرعة . بشرتها بيضاء .. غير مسموح لها بالتعرض إلى الشمس بأوامر الأطباء ... انتهت جلسة العلاج النفسى .

– أرجو ألا أكون قد تسببت فى قطع حبال أفكارك . زوجى السابق كان يقول دائمًا إن أسوأ شىء هو قطع حبل أفكار الإنسان .

فكرت جاكلين : زوجها السابق ؟ المسكينة . غالبا .. هجرها ..

دون مقدمات سيطر عليها انجذاب ما تجاه المرأة الجميلة التى لا تعرفها . فهى كوكتيل من التعالى الملكى والعفوية الطفولية . من خلال

الحوار بينهما عرفت جاكلين أن المرأة اسمها إيلين ، وأن عمتها توفيت منذ فترة قصيرة ، وأنها تركت لها ميراثا عبارة عن بيت كبير قديم فى ضواحى فيينا ، وأنها حضرت إلى فيينا كى تستكمل الإجراءات اللازمة لاستلام البيت ولكى تراه أيضًا ، وعرفت أيضًا أن إيلين تقيم الآن فى الفندق الجديد " كرتير إن جراند أوتيل " الذى افتتح منذ وقت قريب .

– الفندق ليس بعيدا عن هنا . ألا ترغبين فى صحبتى ؟ سنجلس فى البهو نشرب القهوة . طبعًا هذا إذا كان وقتك يسمح . أنا لا أعرف أى مخلوق فى فيينا ، وسأكون سعيدة لو رافقتنى سيدة لطيفة مثلك .

ارتخت عيون جاكلين فى تواضع .. لماذا لا تجلس معها؟ والوقت .. مازال الوقت متسعًا اليوم. جنريخ سينتهى من عمله بعد السادسة مساء. رغم حرارة جو فيينا على غير العادة ، الشوارع مزدحمة بالناس. هذه شلة تجتمع بملابس أمريكا اللاتينية وبالقبعات الكبيرة ، يشدون بأغان حماسية دافئة جدا وهم يرقصون فى مكانهم . العرق الغزير يفيض على وجوههم السمراء . باهتمام شديد انهمكت إيلين فى مراقبة الموسيقيين .

– يغنون من قلبهم .

– كلما نظرت إليهم أشعر بالجو الحار .

وأسرعتا الخطا .

البرودة المنبعثة من بهو الفندق الضخم أنقذتهما . غطست جاكلين داخل المقعد الوثير الضخم وتلفتت حولها . فازة عظيمة بزهور صفراء

تقف إلى جوارها . تعشق هى اللون الأصفر . أما جنريخ .. زوجها .. فهو يسخر منها ويؤكد لها أن اللون الأصفر دليل على الغباء حسب قوانين الألوان . آه من هؤلاء الرجال ! .

سألتها إيلين ..

– ماذا ستشربين .. مارتينى بالثلج أم قهوة ؟

– مارتينى .. مع ثلج كثير .

نظرت جاكلين إلى الجرسون .

– اثنان مارتينى بالثلج .. سنكتفى بهذا الآن .

بدأت تفحص إيلين الجالسة فى مواجهتها . النساء .. مستحيل توقع أفعالهن . أحيانًا لا تظفرين منهن بكلمة واحدة ، وأحيانًا يفتحن لك أبواب أرواحهن . بالمناسبة .. شىء لطيف يحدث دائمًا بين المسترسلين فى الكلام ، فبالتدريج يتحولان من شخصين غريبين عن بعضهما البعض إلى شخص واحد يدخل فى حوار غريب مع ذاته .

ابتلعت جاكلين رشفة مارتينى

– هل من المحتمل ألا يستحق هو أن نذكره ؟

بالغت جاكلين فى وضع قطع الثلج أكثر من اللازم . من الأفضل ألا تصاب بنزلة برد ، فالوقت غير مناسب لذلك أبدًا .

– ومع ذلك .. يمكن أن نذكر الكثير من مميزاته .. فقط إذا فكرتِ فى ذلك .

وضعت إيلين ساقًا على ساق

- هو ذكى .. أكثر من اللازم . يعجب النساء . يحب المغامرات . وماذا أيضًا ؟

مدت إيلين يدها إلى الأمام .

- ومظهره أنيق .

ابتسمت جاكلين : أسلوبك غريب . لقد تحدثتِ عن مميزاته بلهجة توحى أنها سيئات .

أشعلت إيلين سيجارة .

- لكن من يدرى .. ما الحدود الفاصلة بين صفاتنا الحميدة والسيئة ؟ أليس كذلك ؟ فى جميع الأحوال لا يترك هو أى امرأة فى حالها إلا ويتخذها حبيبة ، ثم يحلف لها أنها أول وآخر حب فى حياته ..

فجأة مرت على خاطر جاكلين صديقتها بريدجيت مديرة البنك . دائمًا هى من علاقة حب إلى أخرى ، وكالعادة تحلف أنها أول وآخر مرة فى حياتها . وكانت دائمًا تقول لجاكلين .. " لن تصدقى أبدًا ! كل علاقاتى السابقة لا تساوى شيئا " . هذه العبارة كانت تتكرر عدة مرات فى العام الواحد . منذ زمن بعيد يئس منها زوجها السمين الطيب وبدأ يعيش حياته ، مع الأخذ فى الاعتبار أنه ما زال يحب بريدجيت ، التى يمكنها بكل بساطة أن تتسلل خارج البيت فى الثانية بعد منتصف الليل بمجرد أن يقول لها أحدهم فى التليفون " أنا أنتظرك " . كالعادة كانت

تلقى إلى زوجها حججًا وهى فى طريقها للخروج عن حدوث حريق فى البنك ، أو حالة طارئة ربما تؤدى إلى وفاة أحد أصدقائها .. طبعاً كانت صديقتها هى المنقذة الوحيدة . أما الزوج فكان ينزوى فى الجانب الآخر ويغمغم بينه وبين نفسه ، ليؤكد لها أن مطافئ فيينا قد أصابتها حالة من البطالة الأزلية فى الفترة الأخيرة ، وأنه لا يفهم لماذا لا يزيد مرتب زوجته بفعل مساعداتها فى إطفاء الحرائق .. وتذكرت جاكلين كيف أصابها الفزع عندما زارتهما مرة ، فلاحظ زوج بريدجيت أن أحوالها كأفضل ما يكون بالنسبة لأمثالها من مرضى الصفراء .. وقد تحسنت حالة جاكلين أكثر وهى تشرح بعدها ، كيف ساهمت إقامة صديقتها عندها لمدة أسبوعين فى شفائها بينما هى ترقد فى الفراش .. مرت لحظة صمت قطعها جنريخ بقوله.. "نعم .. نحن ممتنون جدا لبريدجيت". الدخان الذى ابتلعه فى خضم حماسه للدفاع عن صديقتها دفعه للسعال. ضرورى أن نذكر أن الدموع التى ترغرغت فى عينيه دفعت جاكلين للاعتقاد أنها اكتشفت عند جنريخ موهبة التمثيل ..

وضعت كأسها على المنضدة وهى تنظر إلى جاكلين التى تستكمل قصتها . لا يمكن إنكار جمالها . أمر مؤسف ألا يساند الحظ نوعية هؤلاء النساء .. رائع .. من خلال حديث إيلين عرفت أنها تزوجت من طبيب نفسى سببت له طبيعة عمله بعض الخلل . فيما يبدو أنه لم ينتبه إلى أن بجواره امرأة جميلة وذكية ، يفقد الكثير من الرجال عقولهم من أجل خاطرها . مرات ومرات حاولت إيلين إيقاظ غيرته بحديثها عن

المعجبين بها ، لكن كل محاولاتها تطايرت فى الهواء . عمله ومرضاه كانا أهم عنده من زوجه الجميلة .

- هل تؤمنين بعد ذلك بجدوى الزواج ؟

أرادت جاكلين أن تتأكد أكثر

- تقولين إن زوجك طبيب نفسى شهير ؟

- نعم .. جون بيسون .. ألم تسمعى عنه ؟

وأصلحت إيلين من أوضاع شعرها .

صمتت جاكلين. أشياء غريبة تحدث فى هذا العالم . جون بيسون..

- لا .. بكل أسف .. أتعرفين ؟ أنا بعيدة كل البعد عن عالم الطب النفسى !

وأخذت جاكلين راحتها داخل المقعد أكثر وأكثر ..

مذكرات جاكلين

التاسع والعشرون من شهر يوليو

اليوم تعرفت على سيدة رائعة .. اسمها إيلين . دردشنا معًا حتى وقت متأخر من المساء وتبادلنا أرقام التليفونات . مع الأسف ستعود إلى بلدها .. لندن. حكت لى عن زوجها السابق.. طبيب نفسى مشهور جدا .. جون بيسون .

الثالث من أغسطس

بالأمس لم أستطع كتابة كل شيء . على غير العادة رجع جنريخ من عمله فجأة . وجهه متعب . يتحرك بحكم العادة . قبلة لا تعنى أى شيء . فى الظاهر هو رجل عاد إلى بيته ، لكن عقله مازال يسكن عمله . كل شيء نسخة من الأمس . تعبت من الرتابة . أعتقد أنه على الرغم من روعة الحياة ، فإنها تمر إلى جانبى وأنا أقف على رصيف محطة أراقب القطارات التى شدت رحالها . بدأ اليأس يتسرب إلى تفكيرى . سمعت نفسى تهمس بشيء عن قدرى الصعب فى الحياة .

أخبرنى جنريخ وهو يحتضننى أنه سيفكر فى شيء ما ، ونصحنى أن أكون أكثر إقناعا واستعدادا فى المرة القادمة إذا رغبت فى الحديث عن حياتنا السيئة معا . فى كل الأحوال من الضرورى أن أتخلص من كل زينتى . لكن الأهم هو النتيجة ! سأذهب مع جنريخ إلى مكان ما . لا يهم إلى أين . إفريقيا .. أمريكا .. القطب الشمالى .. لا يهم إذا كان سيذهب إلى هناك ، تلبية لطلب أحد الزبائن من أجل دراسة حالة معينة. المهم أننى سأذهب معه .

السادس من أغسطس

اليوم قال جنريخ إننا سنذهب إلى المغرب ! إفريقيا ؟ ولم لا ؟ عنده بعض الأعمال هناك وقد وعدنى بأن يأخذنى معه . النغمة الوحيدة

الحزينة أن إيلين سترحل غدا إلى بيتها في لندن . لقد ارتبطت بها بسرعة، والآن لا أستطيع أن أتصور أننى منذ شهر واحد مضى لم أكن أعرف عن وجودها أى شيء . تبادلنا العناوين والقبل حتى إننا بكينا . وكيف لا نبكي في هذا الموقف ؟ في الحياة لا نقابل الكثير من السيدات المتميزات ، كما أنه ليس من السهل خلق حالة من التفاهم مع كل صديقة . مرة من المرات قبلت بريدجيت كثيراً وأنا أودعها بمنتهى السعادة لأنها ستنصرف أخيرا . ولدهشتى الشديدة عادت للجلوس مرة ثانية في مقعدها ، وهى تحاول أن تقنعنى أنها لاحظت علىّ منذ فترة دلائل ميولى إلى الجنس نفسه . كيف ؟ هل يمكن أن نتحدث هنا عن أى تفاهم متبادل ؟

عشرون أغسطس

أسبوعان كاملان من المتعة . لم أكن أحلم برحلة كهذه . بمجرد هبوط طائرتنا فى الدار البيضاء انتقلنا لاحتلال مقاعدنا فى طائرة أخرى متجهة إلى أغادير . درجة حرارة المدينة خمس وعشرون درجة مئوية فقط فيما لا يتوافق مع إفريقيا . أغلب الظن أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن مدينة أغادير ترتفع عن شاطئ المحيط ، وأن الجبال تفصلها عن الصحراء المجاورة . استمتعنا بالسباحة فى حمام ضخم وركبنا الجمال إلى المحمية التى تسكنها طيور الفلامنجو الوردية .

بصراحة كان السفر بالجمال اختباراً شاقًا لصحتنا .. يمكننى أن أضيف .. ولحياتنا أيضًا . فهذه الحيوانات التى تبدو لأول وهلة لطيفة وبطيئة ، قد انثنت ثلاث مرات تقدم لنا ظهورها المثبت عليها مقاعد جميلة إلى حد ما . أبداً لم أتخيل أن سفينة الصحراء تقدر على الجرى ثلاثين دقيقة بمحاذاة شاطئ المحيط بلا توقف . أثناء العدو كنت أنا أيضًا أتأرجح بنفس إيقاع عدو الجمال . تأملات وهدوء طائر الفلامنجو لم تحرك عندى ساكنًا. دائمًا كنت أفكر فى طريق العودة .. العودة فقط. خيِّل إلىَّ أن الرجال الأربعة الذين حملوا جسدى المتصلب كله تقريبا لينزلونى من فوق الجمال ، أمراء من الأساطير رغم ملابسهم الصوفية الممزقة . على الفور أدركت أن ملابسهم قد تمزقت ، على الأرجح أثناء عمليات إنزال الضحايا باستمرار من فوق الجمال . غالبًا ما كانت الهزات تؤدى إلى سوء تقدير الضحايا فيعتقدون أنه سيتم إرسالهم لمشاهدة طيور الفلامنجو مرة أخرى . جنريخ هو الأكثر سعادة بنتائج مغامرتنا ، فأى حركة كانت تسبب لى ألما شديدا ، ففقدت القدرة على ممارسة الجنس .. إذا رغبت فى ذلك . انسجم جنريخ مع المرح واللهو كما لم يفعل من قبل . بعدها أمضينا معظم الوقت فى هدوء وسلام ، ونحن مستلقيان تحت الشمس باستثناء رحلة صيد القروش التى رتبوها لنا . بدايات عاصفة أدارت رأسى بطريقة مميتة ، كادت أن تسقطنى من على سطح المركب .

الحادى والعشرون من أغسطس

لحظة هبوط الطائرة إلى مراكش العاصمة القديمة للمغرب ونزول سلم الطائرة . هاجمتنى رغبة عنيفة للعودة فوراً إلى الطائرة وعدم مغادرتها أبداً . درجة الحرارة بلغت سبعاً وأربعين درجة مئوية . فيما بعد عرفنا أن أفضل وقت لمغادرة الطائرة هو الليل . لهذا ذهبت مع جنريخ لمقابلة الشخص الذى دعاه فى الليل إلى هنا .

وصلنا المطعم بالسيارة . عشرون كيلومتراً بعيداً عن العاصمة ثم وجدنا أنفسنا فى قصر أسطورى . على مدخله تقف فَرَسان عزبيتان يركبهما فارسان بالزى البربرى القديم . كان فى انتظارنا عرض غنائى راقص وألعاب نارية . استمتعنا بمشاهدة العرض ونحن جالسان فى خيمة وحدنا . بعدها عرفت أن صاحب الدعوة اشترى كل مقاعد الخيمة. طوال الليل ونحن نجلس فى الخيمة بسبب تأخر صاحب الدعوة . بدأ جنريخ يضطرب وراح يدخن بشراهة ، ثم قال إننا حضرنا إلى هنا بناء على دعوة واحد من أكبر أثرياء المغرب ، كان يوما ما صديقًا حميمًا لوالده أيام الشباب . وجهة نظر زوجى تشتم من وراء هذه الليلة مكسباً عظيمًا . فقط علينا أن ننتظر . عند انتهاء العرض ظهر المضيف الذى جئنا من أجله إلى هذا البلد . رحب بنا السيد على بصوت هادئ . تعارفنا وثرثرنا دقائق فى أشياء تافهة ، ثم عرض على ركوب خيل عربية أصيلة أثناء انشغال الرجال بالحديث فى أمور سرية . وجه جنريخ الشاحب المضطرب هو أول ما لفت نظرى عند عودتى . كان يتحاشى

النظر إلى عينى ويحاول الاختباء خلف سحب الدخان . فيما يبدو أن طلب المضيف كان غريباً أكثر من اللازم. ودعنا السيد على وتوجهنا على مهلنا ناحية بوابة الخروج، وقد صحبنا باقى ضيوف المطعم الذين كانوا يتراقصون على أنغام الموسيقى الصاخبة . أضيئت السماء بألوان الألعاب النارية المختلفة . كنت فى حالة نفسية مثالية وبدت لى الحياة رائعة .

الثانى والعشرون من أغسطس

يا ربى لماذا جئنا إلى هنا ؟ يبدو أنه قد تم استدراجنا إلى مغامرة فظيعة .

الثالث والعشرون من أغسطس

مرة أخرى قضينا الأمسية كلها فى بيت الدكتور على . على فكرة .. بيته غريب ، فهو أقرب ما يكون إلى حصن محاط بجدران عالية ، عليه حراسة مسلحة طوال الليل والنهار . منذ اليوم أصبحت أنا اليد اليمنى لجنريخ فى العمل الذى أسنده إليه هذا الشخص . وعدوه أن يقدموا لنا ابنة الدكتور غداً ، والتى فيما يبدو أننا حضرنا إلى هنا من أجلها . طوال الليل يسهر جنريخ فى كتابة أوراق ما ، ثم يحرقها ويعيد كتابة غيرها ..

الرابع والعشرون من أغسطس

العادات والتقاليد فى هذا البيت غريبة جدا . الكل يتكلم بصوت خافت ويتحرك بلا صوت كالأشباح . فى المعتاد يلجأ الناس إلى هذا الأسلوب فى حالة حزنهم على وفاة أحد أفراد المنزل .

الخامس والعشرون من أغسطس

أخيراً تعرفنا اليوم على المدموازيل . كاد الفضول أن يقتلنى . يا ترى ما شكلها ؟ دخلت الحجرة امرأة تلبس عباءة شرقية وملابس تغطيها من رأسها إلى قدميها ! لست خبيرة فى أسماء الملابس لكن أعتقد أنه خمار ، فأغلب الظن أن الخمار يجب أن يغطى الوجه بأكمله . كل ما أستطيع رؤيته من الجالسة أمامى هو عينى هذه المرأة وجزءاً من وجهها . لم تعجبنى عيناها . فهما ثاقبتان ، شريرتان ، تلمعان كقطعتين من الثلج. جلست المدموازيل رغماً عنها على فوتيل وثير بجانب الموزايكو الغارق فى المياه . اقترب منها والدها واستند بكوعه على ظهر الفوتيل. تعرفّى يا عزيزتى على هؤلاء الناس . لقد طلبت منهم مساعدتك. وسأدفع لهم مقابل هذا العمل مائة ألف دولار. وأنا واثق أنهم لن يخذلونا .

ذكر جنريخ سبعين ألفا فقط ، فمن الذى يكذب هنا ؟ نظرت إلينا المدموازيل فى صمت دون أن تتغير تعبيرات عينيها .

– كما أخبرتك يا عزيزتى .. هناك طبيب يمكنه أن يساعدنا ، وقد أرسلنا له عدة خطابات لكنه رفض الحضور إلى هنا .

– أنا لست فى حاجة إلى مساعدة . أرجو أن تكون زيارتكم لبيتى عمرها قصير .

وتفحصتنا المدموازيل بنظرة باردة .

– اسمح لى بالانصراف ! .

وجهت هذا الكلام إلى الدكتور على بصوت هادئ ، فأحنى رأسه موافقًا . قامت وذابت في الشرفة شبه المظلمة . أشاح المضيف بيده ..

– لا تنزعجوا . لقد نبهتكم إلى أنها لا تعترف بمرضها . يجب أن تبقوا فى البيت أيامًا أخرى ، حتى نتمكن من مناقشة دور مدام جاكلين فى هذا العمل بالتفصيل .

عندما عدنا إلى حجرتنا تمددت وفكرت.. "لولا النقود التى وعدنا بها هذا الرجل، لتراجعت عن تقديم أى شىء إلى هذه الشخصية الكريهة ."

السادس والعشرون من أغسطس

سمعت صوت صفير فرامل فنظرت من الشباك . من السيارة الكابورليه قفزت شخصية أشبه بالجنية بجونلة قصيرة وخصلات شعر متحررة . من على مقعد السيارة أخذت ملفا ودخلت البيت . قلت فى نفسى .. " آه .. أشم رائحة قصة رومانسية ".

كاد حب الاستطلاع يغتالنى فى مقتل ، فأمسكت بأول كتاب على الرف وقعت عليه يدى واندفعت أجرى إلى الدور السفلى . أخيرا ظهر فى هذا البيت الغريب إنسان طبيعى ، بالإضافة إلىّ طبعًا .

سيدة شابة أنيقة تقف فى الردهة تتأمل الرسومات الموجودة بالملف . مدت المرأة يدها وهى تقدم نفسها وتبتسم . يطلقون عليها .. " صوفى " .

بمجرد حصولى على عربون مقابل عملى ، سيطر علىّ إحساس أننى جاسوسة . كنت دائمًا ألاحظ أننى أمتلك القدرة على التفكير التحليلى . بصفة عامة أنا أتمتع بذكاء ينتسب إلى عالم الرجال ، حتى إن أحدهم نقل إلىّ هذه الملحوظة بوضوح . لا أفهم .. لماذا لم يستعن جنريخ بقدراتى المتميزة فى الجاسوسية من قبل ؟ هكذا .. من تكون هذه السيدة بالنسبة لصاحب البيت ؟ هل عندها علم بهذه الابنة غريبة الأطوار ؟ ...

انفتح الباب واندفع صاحب البيت إلى الحجرة .

– لقد عدتِ يا حبى أنا ! القلق بدأ يهاجمنى . لماذا تغيبتِ كل هذا الوقت ؟ هل هذه رسوماتك الجديدة ؟ أريد أن أراها إذا سمحتِ لى.

شعرت أن وجودى كان خطأ ، فهذا لقاء بين حبيبين . لم يكن هناك داع للاستعانة بقدرتى على التحليل لأفهم ما يحدث . وأغلقت الباب ورائى بهدوء .

السابع والعشرون من أغسطس

التعامل مع صوفى التى وافقت على الإقامة معنا عدة أيام مسألة ممتعة جداً . لم تظهر الدموازيل مرة أخرى . يبدو أنها تنتظر رحيلنا بفارغ الصبر. صوفى إنسانة غريبة الأطوار بعض الشىء وقليلة الكلام . ومع ذلك عرفت كيف أستدرج منها بعض المعلومات ، لكن الأمور لم تكن خالية من السحب كما كان يبدو . بالفعل صاحب البيت يحبها من كل قلبه ، لدرجة أنه تحمل من أجلها إجراء العديد من عمليات التجميل . ساعتها أدركت أننى كنت محقة عندما لاحظت عدم التناسب بين عمره وملامحه . عندما كنت أفتخر أمام جنريخ الجالس في الفوتيل أمامى بهذا الاكتشاف فى المساء ، دخل الدكتور على فجأة وقد تغيرت بعض خططه ، فقد طلب منا التوجه إلى لندن صباح غد لنبدأ العمل . خطر على بالى أنه من الطبيعى أن يبقى مع صوفى عدة أيام وحدهما ، فقد أصبح وجودنا مزعجا بالنسبة إليه .

تركت الرجلين وحدهما ونزلت السلم إلى الدور السفلى . صوفى تقف بجوار الحائط بظهرها . عندى رغبة أن أودعها بكلمات جميلة قبل الرحيل ، فلمست يدها . التفتت إلىَّ بحدة ورمتنى بعينين باردتين كعيون الدموازيل .

– أعتقد أننى طلبت أن ترحلا من بيتى قبل الآن .

وجاءنى صوت دكتور على المضطرب ..

– جنريخ .. يبدو أننا تأخرنا هذه المرة . أعتقد أننى سأجن .

جون

الحرية ! ماذا في هذه الدنيا أجمل منها ؟ بعد كل هذه السنوات التى عاشها جون مع إيلين ، يستطيع الآن أن يجيب بكل ثقة ويقول .. " لا شيء أجمل من الحرية ! " . رافق جون الضيوف وابتعدوا وابتعد معهم ضجيج الأحاديث وهم منصرفون ، وذابت معهم أيضًا رنات الكئوس ونغمات الموسيقى . سيطرت عليه رغبة ملحَّة أن يسقط على الأريكة بملابسه الجديدة وحذائه الجديد من فرط التعب ، وأن يطلب رقم إيلين ليبلغها أنه اصطحب الضيوف حتى الباب ، وأنه يتمدد الآن بمنتهى الحرية وبمنتهى السعادة . ابتسم عندما تخيل إجابتها التى سيسمعها وبخاصة أن الساعة الآن الثالثة بعد منتصف الليل . كانت إيلين ومازالت هى الأسير الدائم لقواعد الإتيكيت والمظاهر الخارجية ، لكنها الآن على أتم استعداد لمخالفة كل القواعد الممكنة وهى تحت الدش عندما تكون فى حاجة إلى ذلك . يقال إن إيلين شوهدت عدة مرات فى أماكن عامة بصحبة شاب ألمانى شعره أحمر وغاية فى الثراء . لكن جون لم يبد أى اهتمام لكل هذا فى الحاضر ، تمامًا مثلما كان يتغاضى عنه تمامًا فى الماضى . كثيرًا ما كان يود أن يبصق عليها .

فجأة أسدل الستار على لحظة استمتاعه . مرة أخرى اخترقه إحساس قاتل بالقلق . كل هذا بسبب هذه الخطابات الملعونة . فقد وصل إليه مظروف من المغرب الشهر الماضى . عندما فتح جون الخطاب ، امتلكه إحساس غريب أنه قد أطلق جنيا من زجاجة ، وأن هذا الجنى يسكن البيت معه . الخطاب كان يحمل طلبًا له بالحضور بسرعة إلى

مراكش لعلاج سيدة ذات حيثية وثرية . أجاب جون أنه ملتزم بممارسة الطب داخل المستشفى فقط طبقًا للعقد الواقع بينه وبين رؤسائه ، لكنه مستعد لاستقبال السيدة المذكورة فى الخطاب لعلاجها فى لندن . الخطاب التالى كان أكثر إلحاحًا فى الحضور بشدة ، مع وعد بالتعويض عن أية خسائر لمخالفة العقد . هذا الخطاب دفعه إلى فقدان السيطرة على نفسه تمامًا . بعض الناس يعتقد أنه يمكن أن يتخلى عن مسئولياته مقابل المال . لا يريد جون خذلان رئيسه الذى هيأ له الظروف الملائمة للعمل ، ولم يتدخل فى أى شىء . المستشفى التى يعمل فيها تحتل مكانة رفيعة فى المملكة المتحدة ، وقد زادت تكاليف العلاج بها ثلاثة أضعاف منذ افتتاحها ، ومع ذلك لا يوجد سرير خال . لا يستطيع هو أن ينكر الجميل ، رغم أن إيلين كانت تعتقد أن الغاية تبرر كل الوسائل . مرة أخرى استعاد جون ذكريات هذه السهرة الغريبة ، عندما شرحت له إيلين خطتها التى تمكنه من احتلال مكان رئيسه فى العمل .. سألها .. " هل هذه هى الوسيلة ؟ " . قالت .. " نعم .. فأى شىء يمكن أن يحدث للإنسان " .. فى هذا المساء انفصل جون عنها .

مذكرات جاكلين

الخامس من سبتمبر

أبدًا لم أطلب يوما من جنريخ أن يحكى لى فى لحظتها عن كل شىء بالتفصيل ، أما أنا فكنت أحكى له كالبلهاء كل مساء عن ملاحظاتى

ويمنتهى السعادة . كان يحتاج هو إلى رد فعل الطرف الآخر . لكن هنا فى لندن سأثبت له أنه يتعامل مع سيدة ذكية قوية الأعصاب ، تقوم بمسئولياتها على أكمل وجه .

السادس من سبتمبر

مساء أمس شغلنى جنريخ عن كتابة ما أريد . أنا الآن فى لندن . وقد أقمنا فى فندق صغير واستقبلونا فيه أحسن استقبال ، كما لو كان المدير يحلم طوال حياته بوصولنا . والآن عندما حضرنا نجده يتفانى فى خدمتنا .

بدأت تنفيذ العمل . كلما مرت الأحداث بشكل طبيعى ، كلما عرفت الكثير عن السيد بيسون الذى نحتاج إليه . كان هو زوج إيلين التى تعرفت عليها فى فيينا بالمصادفة . لقد اتصلت بى هذا الصباح وثرثرنا معا حوالى ساعة على التليفون . اخترعت قصة تؤكد أن حضورى إلى لندن بسبب أعمال زوجى ، دفعنى لقرار مساعدة إيلين فى تحقيق حلمها القديم وإيقاف زوجها عند حده . طبقا لحكايات إيلين كان زوجها يتمتع بجاذبية غير عادية . يبدو أنه مدهون بالعسل ، والنساء كالذباب ، مجرد لمسه يدفعهن للخوف من الابتعاد عنه وإلا سيلاقين مصير الموت . بالنسبة إليه كانت إيلين هى مضرب الذباب ، لكنها أدركت بعد قليل أن زوجها لم يكن يحتاج إلى مضرب ذباب . خلاصة كل أحلامها فى

النهاية هى ظهور امرأة تستطيع أن تسحره ، على أن تحتفظ ببرودها وهى تستمتع بعذابه . وافق جنريخ على خطتى وأعلننى بمنتهى الجدية أنه من الصعب العثور على امرأة فاقدة أهلية الإحساس أكثر منى ! محصلة الحديث أن إيلين ستأخذنى إلى خبير الماكياج الذى تتعامل معه.

الثامن من سبتمبر

آه ... أعتقد أن هذه هى الكلمة الوحيدة التى ظللت أقولها لنفسى طوال يوم الأمس . من كان يتصور أنه سيفعل بى كل ما فعل ؟ لكن إحقاقًا للحق يجب ملاحظة أن خبير الماكياج قد انهمك فى مهمته معى ساعتين أو ثلاثًا . ربما امتد عمله إلى أربع ساعات بما فيها فترة الراحة لشرب الشاى . فى المساء كنت ألفُّ وأدور أمام جنريخ الذى اندهش بعض الشىء بسبب شكلى . دعوته لمشاهدة ملابسى الجديدة . أنا وإيلين اخترنا كل شىء بما يتناسب مع ذوق جون . فقد أصبحت أنا ببساطة المرأة التى ستحقق حلمه ! صحيح أننى ارتبكت قليلا عندما اختارت لى إيلين ملابس داخلية كستنائية اللون ، لكنها أفهمتنى أن هذا هو لون جون المفضل . ومع ذلك قلت فى نفسى إن الأمور لن تتصاعد إلى هذا الحد . فحصتنى إيلين من رأسى حتى قدمى بنظرة سيد يشترى لنفسه جارية فى مكان ما داخل إحدى المستعمرات الإفريقية ، وقالت بصوت يحمل رنينا معدنيا .. " أخشى كون الأمور ستتصاعد إلى هذا الحد " .

قمت بتجربة الملابس الداخلية الجديدة وذهبت ناحية المرآة وأنا أتحسس أردافي . دائمًا أؤمن أن وجود ملابس داخلية فاخرة في حياة الأنثى سيثير داخلها رغبة فورية كي تعرضها أمام شخص ما . مساء غد سأذهب للنزهة في الحديقة العامة التي يمر بها جون عادة وهو في طريقه إلى عمله . ضروري جدا أن ينتبه إلى وجودي .

العاشر من سبتمبر

لم يظهر أي رجل يشبه جون .

الحادي عشر من سبتمبر

اصطحبت اليوم كلب إيلين الذي اشترته منذ أيام للترفيه عن نفسي . وما إن سرت معه عدة أمتار داخل الحديقة العامة حتى فوجئت بجون . أول فكرة خطرت على بالي أن أهرب بلا أي تردد طالما أن الفرصة ما زالت سانحة. من أول نظرة إليه أحسست أنني الذبابة التي ستلتصق بشيء طعمه حلو . يا ربي ! هل يمكن أن تحصل امرأة على الطلاق من رجل كهذا؟ لقد تعرف عليَّ بأسلوب فريد حتى إنني لم أشعر بما حدث.. " ما ألطف هذا الكلب ! والألطف معرفة اسم صاحبته ؟ " .. معاملته محملة بثقة بالنفس وجاذبية . فعلاً .. كان جذابا بجنون . تمشينا معًا حوالي مائة متر ، عرف خلالها كيف يحدد لي موعدا لمقابلته هنا في السابعة مساء .

"طبعاً أنتِ لا تتجولين فى المساء مع كلبك اللطيف؟. متى ترغبين .. فى السابعة ؟ سوف أنتظرك فى السابعة مساء فى المكان نفسه . أستحلفك بكل شىء ألا تختفى . لا أريد أن أراكِ بقية عمرى فى الأحلام فقط " ارتفع صوته وهو يقول الجملة الأخيرة ثم اختفى عند الناصية . ضبطت نفسى تتملكنى الرغبة نفسها .. ألا أراه بقية عمرى فى أحلامى فقط .. إذن اللقاء فى السابعة مساء . مازالت عملية الصيد مستمرة . لكن السؤال .. من الصياد ومن السمكة ؟

الثانى عشر من سبتمبر

مر مساء أمس كالريح وكأنه ثانية واحدة . لقد طار جنريخ إلى فيينا ، وهو يذكرنى أنه من الضرورى أن أدير رأس جون دون أن أهتم بأعماله . يجب أن يتعود على وجودى . أنا لا أعترض على هذا .. فليتعود .. إذا كان الأمر مهمًّا ، فليكن ما يكون .

عشرون سبتمبر

لم يكن مريضًا نفسيًّا أبدًا . على العكس فهو ذكى جدا ! لقد أخطأت إيلين فى هذه المسألة . فهو يحكى لى عن أمور شيقة جدا بأسلوب سلس ، حتى إننى شعرت أننى أعرف كل هذا من قبل لكنى نسيته قليلاً . بالمناسبة .. اليوم أخبرنى أننى أتمتع بذوق رفيع . كان

يمكن أن أجيبه أننى أرتدى ملابس مطابقة لذوقه الرفيع ، لكننى التزمت الصمت فى سبيل العمل الذى أقوم به .

جون

عندما استيقظ جون فكَّر كثيراً فى أى من العينين يفتحها أولاً .. العين اليمنى أم العين اليسرى ؟ أما أن يفتح عينيه الاثنتين مرة واحدة فهذا هو المستحيل بعينه . الفودكا المكسيكية المنقوع فيها الصبار مشروب غشاش .. فتناوله أمر يتم بكل سهولة ورضا ، لكن فجأة يبدأ التوازن فى الغدر ويتضاعف عدد النساء حولك . بالمناسبة يمكن تأييد جون فى أن هذا المشروب - رغم كل ذلك - شىء رائع . أما فيما يخص النساء فقد اعتدل مزاجه كثيراً ، عندما تذكر أنه سيقابل اليوم صديقته الفرنسية الجميلة جاكلين . لم يكن يفضل النساء الأوروبيات خصوصًا الفرنسيات . فجمالهن من بعيد لبعيد ، حتى إنهن يضعن ماكياجًا حتى فى المطاعم . فى شوارع باريس تجد نساء كثيرات يرتدين الصوف والفرو، لكن إذا دققت النظر جيدا ستندهش من فرط شحوبهن .. كان جون يختلف عن باقى أصحابه فى أنه لا يقع فى أسر جمال السيدات اللائى يظهرن فى التليفزيون أو المجلات ، أو حتى اللائى يقفن إلى جانبه . فربما كان كل هذا المظهر مصنوعًا على يد محترف فن التجميل . لكنه لم يجادل فى وجود استثناءات .. لكنها قليلة . لهذا يجب أن نقدر هؤلاء حق قدرهن .. من هذا النوع سنجد مثلا جاكلين .

أوقف تفكيره فى النساء وفى جاكلين التى تمثل هذه النوعية بالذات ، وقرر أنه آن أوان التفكير فى واجبات وظيفته ، وأن عليه الذهاب إلى العمل . الجو رائع خال من السحب ، اكتسبت معه مكتبة لندن لونا أزرق لا مثيل له . مثل أى إنجليزى أصيل ذهب جون إلى المستشفى وفى يده شمسية . منذ عدة سنوات وجون منكب على دراسة موضوع مهم ، أى عالم نفسى يعرف جيداً مبدأ "مستوى معرفة الذات" الذى يطلقون عليه " نوافذ يعقوب " .

- ما يعرفه الشخص عن نفسه ويعرفه عنه الآخرون.

- ما يعرفه الشخص عن نفسه ولا يعرفه عنه الآخرون.

- ما لا يعرفه الشخص عن نفسه ولا يعرفه عنه الآخرون .

كان جون يهتم بهذا التصنيف الأخير فى عيادته ، وكان يتبع فرضية البروفيسور جروف بأنه يمكن فهم طبيعة اللاوعى من خلال تغيير صناعى أو طبيعى لتغيير حالة الوعى .

بدأت الأمطار تنهمر . فتح الشمسية وهو يفكر أنه اليوم يشترك فى تصنيف معرفة نفسه ، عندما يكون على علم بما فى نفسه ولا يعرف ذلك غيره . يبدو أنه كان يقف فى عمله على أعتاب اكتشاف مهم جدا ، ولن يتمكن أى شخص أو أو شىء أن يوقفه .

مذكرات جاكلين

الخامس من أكتوبر

طوال الليل جلسنا نتحدث . يعشق جون حديثى عن أى شىء يخصنى . لم أكن أتصور أن ثرثرتى يمكن أن تهم أى إنسان . أتكلم فيتلقفنى بعينيه التى أشعر أننى أغرق داخلهما . لأول مرة كلمنى جون اليوم عن عمله . فهو يعد بحثًا مهمًّا للغاية . بالنسبة إليه مرضاه كأطفاله تمامًا . فهو يعشقهم لدرجة أننى حقدت على واحدة من مرضاه لأنه يتكلم عنها بحنان فياض .

جون

اندمج جون فى عمله ونسى كل شىء إلا هو . لكن كلما زحف الليل تؤرقه فكرة أنه لا ينتج كما يجب . حتى وهو عالم عبقرى وجهة نظره أنه لم يحقق شيئا . كل هذا لأن الصورة بدأت تتضح أمامه وتؤكد له أنه مقبل على علاقة غرامية لا يستطيع مقاومتها ، من نوعية المغامرات التى تهبط عليه وحدها لتكسر وتيرة حياة العزوبية .

فى السادسة مساء ظهرت جاكلين على باب العيادة بكل جمالها ، تقريبا خالية من أى ماكياج ، مما أكسبها جمالا إضافيا . يبدو أنها تحملت الأمتار الأخيرة من الطريق بمظلة مغلقة ، حيث زادت عتمة لون

شعرها بسبب الرطوبة والتصق فستانها بجسدها . لكنه لم يكن مبللاً لدرجة أن يعرض عليها خلعه فوراً . تأملها جون وهو يقع تحت تأثير رغبة عارمة فى أن ينقذ نفسه من الدوامة التى راحت تجذبه فى وقت غير مناسب . لكن كل مجهوداته اختفت فى لحظة لأن جاكلين كانت فى قمة الجمال . حاول أن يهدأ . وقف ببطء خلف المكتب يتمطىّ وخطى تجاهها عدة خطوات ، ثم توقف على بعد متر واحد منها ليستكشف كل إيجابياتها ، وتقريبًا كل ...

مذكرات جاكلين

الثانى عشر من أكتوبر

لأول مرة ذهبت اليوم إلى بيته . هذا هو هدفى المنشود. شقة مريحة جدا . يبدو أنه يعيش فيها وحده . لفت نظرى عنده تمثال يشبه إيلين .

– هل يمكن أن أراه عن قرب ؟

أمسكت التمثال بين يدى ولم أنتظر إجابته . اقترب منى جون وقبلّنى برقة فى رقبتى ومسح بيده على شعرى .

– أجاب هامسًا : الجمال الحى يهمنى أكثر من الجمال الميت فى قطعة من الطين المحروق .

بمجرد أن لمسنى شعرت أننى سكرانة رغم أننى لم أشرب شيئا . زارتنى فكرة حمقاء تمامًا .. " لقد ارتديت اليوم ملابسى الداخلية الكستنائية " .. أصبح الموقف مضحكا . رددت عليه بابتسامة ... و... وأدركت بعد ساعتين فقط أن جون لم يفهم ابتسامتى بشكل صحيح .

الحادى والعشرون من أكتوبر

هكذا تجرى الأيام بسرعة حتى إنه لا يوجد وقت لكتابة مذكراتى . اليوم عاد جنريخ من السفر واضطررت أن أحكى له ولساعات عما أنجزته فى العمل . وطبعًا لم أنزلق إلى أى تفاصيل لا داعى لها على الإطلاق . أخبرته أن جون أحضر إلى البيت بالأمس النتائج الأولية لبحثه الأخير التى لم يقم بدراستها بعد ، وقد وضعها فى درج المكتب . عندما علم جنريخ بذلك طلب منى أن أقوم بإبعاد جون عن البيت ، حتى يتمكن هو فى الوقت نفسه من إرسال رجاله ليأخذوا أوراقه ، ويبدو الأمر عملية سرقة . على الفور اتصلت بجون ووافقت على الذهاب معه إلى مطعم " مسز هدسون " ، الذى دعانى إليه منذ أيام . هناك ترسب داخلى انطباع سيئ عن رئيس الطباخين . لكن مطلوب منى الآن أن أذهب فى ضيافة هذه السيدة العجوز . ماذا أفعل ؟ كانت " مسز هدسون " مساعدة مخلصة لشرلوك هولمز ، وعليها الآن أن تساعدنى فى إنجاز مهمتى .

الثانى والعشرون من أكتوبر

آه يا معدتى المسكينة! كم اضطررت لاستقبال الاختراعات العبقرية للمطبخ الإنجليزى ! بعد المطعم ألح علىَّ جون للذهاب معه إلى بيته . لكنى بذلت كل ما بوسعى لاستهلاك الوقت ، وظللت أطلب طبقا وراء طبق . وفى النهاية عندما تركنا المائدة تصورت أن كل من يرانا من بعيد سيتخيل أننا زوجان سعيدان قررا دخول المطعم وهما فى طريقهما إلى مستشفى الولادة . معدتى كانت منعزلة عنى تمامًا تعيش وحدها فى ملكوتها . شىء ما داخلها يصدر أصواتا غريبة ويستاء من شراهتى . لم أكن أتمنى فى الحياة سوى الوصول إلى بيتى بأسرع ما يمكن . لكن نظرًا للمهمة المكلفة بها ، كان علىَّ أن أتنزه مع جون مرة أخرى .

عند عودتى إلى الفندق وجدت جنريخ يفتش مع د. على فى أوراق جون . تهاويت على الكنبة كما يجب أن يكون .

سألنى جنريخ وهو مضطرب

– هل كل شىء على ما يرام ؟ ألم يصبك تسمم يا حياتى ؟

– لا تعقد آمالك على هذه المسألة . كل الحكاية أننى أكلت اليوم وكأن هذا كان آخر زادى ...

رأسى مازالت تتقاذف الأفكار وقد بدأت الاستغراق فى النوم . ما أشق عمل المخبرين السريين عندنا .

جون

يومًا بعـد يوم يكتشف جـون فى جاكلين شيئًا جميلاً ومؤثرًا . كان يجد سعادة فى السير مع جاكلين فى الشارع ، ويتمتع بتأثيرها المنعكس على الرجال . أخيرا وافقت جاكلين مساء أمس على الذهاب إلى مطعم " مسز هدسون " . هذا المطعم قريب من عيادته ويتميز بأكلات شهية وبأثاثه المنتمى إلى الطراز الفيكتورى . كان يخطط لدعوتها إلى شقته ليشربا القهوة معا . منذ طفولته وجون يختلف عن الإنجليز التقليديين ، لا يطيق شرب الشاى باللبن ، لكنه فى المقابل يستطيع أن يشرب عشرة أقداح من البن البرازيلى فى اليوم . كان يحب إضافة الحبهان المطحون له مثل إيلين ، بالإضافة إلى القرفة والقرنفل أيضًا . يحتفظ جون بسر خلطة هذه القهوة المخصوصة على الطريقة المغربية ولا يعطيها لأحد . يود الافتخار بقدرته على تجهيز القهوة أمام جاكلين . حاول جون إقناعها بالذهاب إلى بيته بعد المطعم ، لكنه اصطدم بمقاومتها العنيدة عكس ما توقع . لسبب ما كانت جاكلين ترغب فى العودة بسرعة إلى بيتها ، وقفزت فى سيارة أخرى لدرجة أنه لم يلحق أن يودعها . هكذا تحطمت الأمسية رأسًا على عقب .

رغبتان ملِحَّتان تتنازعان جون وهو يقترب من بيته . من الصعب الحكم أيهما أكثر إلحاحا من الأخرى .. السقوط على الأريكة أم تناول كأس جين بيفيتر. لدهشته الشديدة وجد المفتاح يدور فى القفل بسهولة. كل محتويات الشقة مبعثرة فى كل مكان . درج المكتب مكسور وقد اختفت مذكراته وملفاته المدون بها نتائج أبحاثه الأخيرة .

مذكرات جاكلين

الرابع والعشرون من أكتوبر

قضيت طوال الأمس راقدة فى الفراش . كنت أشعر بالضعف وانعدام الثقة . فجأة تذكر جنريخ أننى زوجته . لكن هذا التذكر لم يكن فى وقت مناسب أبدًا . كان الوقت غير مناسب بسبب اقتحام جون حلمًا من أحلامى . بالتأكيد صدرت منى بعض الكلمات مثل " جونى .. يا حبيبى .. " . بلغ غضب جنريخ الذروة . فى البداية ارتبكت كثيرًا ثم اندفعت إليه بكل الكلمات المكتومة فى قلبى . ما هذا ؟ بدلا من دهشته وامتنانه لى أننى تمنعت عن يدى جون العاريتين حتى فى المنام ، إذا به يصيح ويتهمنى أننى أقمت علاقة مع جون ؛ لأننى أندمج تمامًا فى تمثيل دورى .. وقفت بطولى فوق الفراش وأنا أطيح بيدى بأداء تمثيلى ، وقد أنهيت مرافعة وكيل النيابة التى كنت ألقيها وقلت .. " وحتى إذا اضطررت للنوم مع جون من أجل صالح العمل ، سأنام معه حتى لو كان ذلك شيئا مقززا بالنسبة لى " .

انهرت على الفراش وأعطيته ظهرى ، بعدما رسمت على وجهى ملامح فتاة طاهرة تعرضت للإهانة ، وأدركت وقتها أننى لن أتمكن من النوم بعد ذلك . التخلص من كل الذكريات الجميلة مسألة أكبر من احتمالى. أمام عينى انطبع وجه جون ، ولم يعد يرغب فى الاختفاء .

جون

لم يكن جون يفقد عقله تحت أى ظرف من الظروف. يبدو أنه ينتظر سرقة شخص آخر لأبحاثه . لكنه يدرك الآن أن المسالة أصبحت أمراً واقعا . لم يكن الحدث يقتصر على سرقة وثائق تحتوى على وصف تجارب جديدة استنفد فيها تفكيره ، لكن المشكلة أنها تحمل نتائج تجارب لم يكن الوقت مناسبا للإعلان عنها ، لأن الإعلان عنها سيسبب صدمة أكيدة . أمر مؤسف أن تظهر هذه النتائج قبل التوقيت المناسب ، والأهم من ذلك أنه يجب تكرار هذه التجارب الصعبة . بعد انصرافى قرر ألا يبقى وحده فى البيت ، وأن ينتقل لفترة مؤقتة إلى حجرة مكتب عيادته . جمع متعلقاته الضرورية وخرج إلى الشارع المظلم . المطر ينهمر والطقس ليس باردا . دار عند الناصية التالية واصطدم بثلاثة شبان ، أعادوا إليه ذكرياته فى الرحلة الدراسية التى قام بها إلى قبائل جنوب إفريقيا . أحيانًا يتصور أن من يحضرون إليه فى عيادته للعلاج ، حالتهم طبيعية أكثر من هؤلاء الذين يقابلهم فى الحياة العادية .

يومًا ما قرأ أسطورة تقول .. " كان ياما كان .. فى سالف العصر والأوان.. كان الخضر معلم سيدنا موسى يحذر الناس ويقول إنه ستأتى ساعة تختفى فيها كل قطرة ماء على الأرض . وسيعود العالم مرة أخرى إلى ما كان عليه، لكنه سيمتلئ بمياه مختلفة سيفقد معها الناس عقولهم. إنسان واحد فقط استمع باهتمام لهذه الكلمات ، فجمع كل الماء وخبأه فى بيته . وعندما حانت الساعة جفت الأنهار وفرغت خزانات المياه ، ثم

راحت تمتلئ بماء جديد . خرج هذا الرجل من بيته وذهب إلى الناس ، فلاحظ أنهم تغيروا وأصبحوا يتكلمون ويفكرون بطريقة أخرى . لقد فقدوا ذاكرتهم . حاول الرجل أن يكلمهم ، لكنهم لم يفهموا منه شيئا واعتقدوا أنه مجنون ونبذوه من بينهم . والنتيجة أن هذا الرجل فقد عقله بسبب الوحدة وشرب من الماء الجديد ، فأصبح مثله مثل الآخرين ، ونسى كل شىء عن الماء الذى خزنه فى بيته . أما الناس فقد اعتبروه مجنونا ، وقد عاد عقله إليه بمعجزة .

هل عليه أن يشفي مرضاه بآخر قطرات هذا الماء الذى احتفظ به هذا المجنون ؟

* * *

كل المناقشات المتنوعة مع الشرطة تتسبب فى عذابه بجد . أما الآن فقد رحمه القدر قليلاً .. فأمامه صحفية لطيفة تجلس وهى تلقى عليه الأسئلة . كانت ترفع حاجبيها باستمرار ، حتى اكتسب وجهها تعبير من لا يمل من الشكوى . تلبس جونلة طويلة ضيقة ، ربما تعتقد من وجهة نظرها أنها تعطيها مظهرا أكثر جدية . كل تفاؤل جون يرجع إلى هذه الفتحة الطويلة فى الجانب الأيمن من الجونلة .. وضع ساقا على الأخرى وبدأ يتكلم عن عمله ، وقد طغى عليه إحساس بالرقى لأنها توقفت عن إلقاء الأسئلة ، واكتفت بالاستماع إليه فقط .

- هل ترى يا عمى ...

رغم أنها تبدو أصغر سنا من جون بخمس سنوات فقط ، فقد تصورت أن هذا الأسلوب فى الحديث معه مناسبا وأبدى تأثرا برقتها .

- عندما بدأت حياتي كطبيب نفسى شهير فى هذه العيادة ، قمت بدراسة ما يسمى بـ " حالة انتقال الوعى " ، واستطعت أن أثبت أن العقاقير التى يستخدمها الأطباء النفسيون مثل عقار " إل سى دى " له تأثير على الإنسان ، يماثل التأثيرات الخارجية والمعاناة الداخلية التى تنتج عن الممارسات الطبيعية فى الشرق ، وفى طقوس السحرة فى حالة الوقوع تحت ضغوط ، أو فى حالة الموت الإكلينيكى .. على فكرة .. ما اسم البارفان الذى تتعطرين به ؟

ارتفع حاجباها إلى أعلى من الدهشة .

فى الحقيقة هذه أول مرة يلتقى فيها مع هذه الرائحة التى لا تمت للطب بصلة ، فهى خليط من رائحة الصندل مع الياسمين ، وشىء آخر يحمل رائحة الإثارة وعبق الشرق .

أجابته بابتسامة : اسمه سمسرة .

- ردد الاسم وراءها : سمسرة ؟

تطابق غريب بمعنى الكلمة . مساء أمس أراد تناسى أحداث اليوم، فتناول من على الرف كتاباً للمؤلف تشارلز تارت عن تعاليم بوذا . هذه

التعاليم إذا فهمها الإنسان بمفاهيم حديثة ، سيجد أن وصف وجود الإنسان فى صورة استثنائية خيالية يطلق عليه اسم " سمسرة " .

حكى لها جون عن بعض الأمور فى عمله . حكايات فى حدود المسموح به ، وقد وافق على استكمال الحديث فى أقرب فرصة مناسبة . عندما ودعها طرأت له فكرة ، تؤكد له أن العالم ليس سيئا إلى هذه الدرجة ، طالما أنه يأتنس بهذه المخلوقات اللطيفة . وقد أطلق عليها بينه وبين نفسه اسم " سمسرة " .

مذكرات جاكلين

مازال الرجال يدهشونني. فيمكنهم أن يقولوا للسيدات كل ما يمكن ليثيروا فيهن الزهو الأنثوى .. فمثلا يتكلمون عن مدى ذكائهن ولطفهن ، وكيف أنهم يقدرون نصائحنا نحن السيدات ، وكيف أنهم يحتاجوننا كل يوم إلى ما لا نهاية . لكن الحقيقة أنهم يتعاملون معنا بتعال ، ويعتبرون أن التعامل اليومى مع المرأة الحبيبة شيء إجبارى لا يمكن التحرر منه ، وعامل مساعد للتنقل بكل بساطة من التعاملات الذهنية المرهقة إلى التعاملات الجسدية ، وفى النهاية يفعل الرجال كل ما يحلو لهم على طريقتهم الخاصة .

تقول المرأة : أنت لا تسمعنى يا عزيزى .. أنت لا يهمك رأيى أبداً ..

ويجيبها الرجل : ماذا تقولين يا حبيبتى .. ؟

غالبًا ما يحتاج الرجال لاستخدام أسماء الحيوانات أو الطيور ويقولون .. يا عصفورتى .. يا فأرى .. أو يا قطتى .. كل ما يهمنى معرفة رأيك فى طريقة تصرفاتى . على فكرة .. شكلك اليوم جميل جدا ! هذا الفستان مخلوق من أجلك ! ويمكن الآن أن نخلعه عنك ..

فى هذه الحالة تتخيل المرأة أن الرجل يقول الحقيقة .. أليس هذا ممكنا ؟

السابع والعشرون من أكتوبر

واحد من اثنين .. إما أن يكون د. على المنبهر بعلم النفس المرتبط بالبيئة الشرقية ، قد توقف عن استقبال الحقائق عندما سافر خلف حدود بلاده ، وإما أن يكون جونى عبقريا بالفعل .. كيف يمكن أن تكون كل الوثائق بين يديه بلا أى شفرة كما يحدث فى القصص البوليسية الساذجة ، وهو لا يفهم منها شيئا ؟ بعد مناقشات ممتدة وصل الرجلان إلى أن أمامهما حلا واحدا فقط ، وهو أنه يجب إرسال جون إلى المغرب بالقوة .. إذن يجب مفاجأة جون بزيارته غدا ومعى جنريخ . موقف حرج جدا إذا وضعنا فى الاعتبار أنه من الضرورى رش صديقى جون ببالون غاز منوم ، ونقله إلى بلد آخر . كل ما تبقى لى هو أملى ألا يؤثر هذا الغاز على رجل مثل جون .

جون

أغلب الظن أنه أفسد علاقته بجاكلين بشكل أو بآخر ، فهى مختفية منذ عدة أيام . رغبة مجنونة تدفعه للاتصال بها ، لكنه لم يسمح لنفسه بذلك . فلم يحدث أبداً أن يكون هو البادئ فى الاتصال بأى امرأة . واجب عليها أن تقرأ فى الصحف ما حدث عنده فى البيت فى هذا المساء الذى تحطمت فيه كل الترتيبات ، لكن ... العذر الوحيد الذى يمكن أن يغفر لها ، أنها لم تقرأ فى الصحف ما حدث .

بعد جلسة عمل جلس فى مكتبه يدخن وهو يفكر ، أنه أرهق نفسه جدا فى هذا الأسبوع المجنون ، وأن عليه الذهاب إلى البيت لقضاء إجازة نهاية الأسبوع ممدداً على الأريكة ، وهو يقرأ قصة بوليسية رخيصة لا تمنحه الفرصة للتفكير فى أى شىء آخر أو تذكر أى شىء .

عند دخوله الشقة شعر جون بوجود رائحة بعينها للأماكن المهجورة، قد بدأت تلف الحجرات فى هذا الأسبوع الأخير . فتح النوافذ على مصراعيها واسترخى بكل جسده داخل فوتيل . تمثاله المفضل هدية إيلين إليه يقف إلى جانبه على منضدة صغيرة . كان التمثال على هيئة سيدة بشعر طويل تمسك عامودا بيديها ، وتميل إلى الوراء بطريقة تفوح منها الإثارة. رداؤها الأسود - مثل بشرتها - مفتوح قليلا عند فخذيها ، وقد أظهر قدمها اليسرى ترتدى حذاء ذهبيًا . أمسك التمثال بيده . ياللشيطان .. هل سيقدر يوما ما على طرد إيلين من عقله ؟ أى ارتباط هذا ... عندما غابت ذكرياته مع إيلين التى بدأت تعلن سيطرتها على

فكره مرة أخرى قطع جرس التليفون عليه أفكاره . هل تكون إيلين !؟ تنهد جون واستبعد هذا الاحتمال . أمسك السماعة بحذر واستمع إلى صوت جاكلين الرقيق . كانت تتكلم من كابينة التليفون المجاورة لبيته ، وأبدت استعدادها للحضور إليه حالا . أحضر زجاجة شمبانيا من الثلاجة ، وقبل أن يضع الكئوس على المائدة رن جرس الباب . انطلق جون بسعادة إلى الباب وفتحه على آخره ... أحس برائحة خانقة حمضية تغزو أنفه بعنف ، وأظلمت الدنيا فى عينيه وشعر أنه يسقط فى هاوية ليس لها نهاية .

مذكرات جاكلين

الثامن والعشرون من أكتوبر

حتى الآن لم أفهم أى شىء .. فبالأمس سقط جون عند قدمى ، هل كان ذلك من تأثير بلوزتى الجديدة ، أم بسبب تأثير الغاز ؟ كان بودى أن يكون سقوطه بسبب مظهرى المؤثر البديع! .

التاسع والعشرون من أكتوبر

من الممتع أن أتذكر كيف كنت أجلس منذ وقت قصير فى فيينا ، أعانى من إهدار الحياة وأنا غارقة فى شعور الوحدة والملل . أما الآن

فإننا نستقل طائرة . أنا فى منتهى السعادة . جون نائم . رأسه تستريح على ركبتى بهدوء تام كما أنزل المشهد فى الروايات الغرامية . جنريخ يؤدى واجبه بالصيام المقدس ولم يأكل أى شىء ، ربما لأن ذلك سيكون سببا ألا يجز على أسنانه من الغيظ . شىء واحد يشغلنى وهو رد فعل جون لخيانتى له . لقد توسلت إلى جنريخ لاستكمال اللعبة ، وأن يتخذنى أسيرة أنا الأخرى .

جون

ظلام قاتم . نقطة واحدة مضيئة تحاول أن تجد لها مساحة أكبر . رجل يلبس بالطو أبيض اللون وفى يده حقنة . رأسه تنفجر من الألم . بصعوبة فتح جون عينيه وتلفت حوله . يرقد هو على أريكة داخل حجرة صغيرة على الطراز الشرقى . قام واقترب من النافذة ومازال يشعر أن رأسه تدور به قليلا . أدرك هو أنه الآن فى الشرق . كانت النافذة تكشف سماء بيضاء وشمسا ساطعة متربعة وسط هالة من الضباب ، والتقطت عيناه النخيل ونباتات لا يعرفها وقمة مدببة لمأذنة زرقاء . بصوت رخيم يدعو المؤذن المسلمين لصلاة الفجر . الأمر هكذا .. استوعب هو .. أنا فى مكان ما بالشرق . أغلب الظن أنه تم نقله إلى المغرب ، وأنه وقع فى فخ بمساعدة المدموازيل جاكلين . أخيراً استنتج أنها امرأة سيئة . أغلب الظن أنها توجد بمكان ما هنا ، وتستعد هى لتلعب دوراً جديداً، وليكن دور الضحية البريئة لبعض الأشرار. لا يهم ..

فسينزل بها انتقامه فى المستقبل القريب . استعدى يا عزيزتى .. لملمى قواكِ . بعد كل هذا .. يجب تحديد من هو الشخص الذى يحتاج إلى مساعدته هنا . فقد عرف من الخطابات أن الأمر يتعلق بعلاج سيدة شابة . هكذا أصبحت مهمته أسهل . كل ما تبقى له هو دراسة السيدات اللائى سيتواجدن حوله ، ويقرر هو من منهن التى تحتاج إلى مساعدة . مساعدة طبيب نفسى طبعًا . علمته خبراته الطويلة فى الحياة أن كل النساء فى حاجة إلى مساعدة. وصل إلى سمعه صوت خطوات شخص ما. دخل الحجرة رجل قصير القامة لا يعبر مظهره الخارجى عن شىء . عيونه تخلو من الألوان ، لكنها تبدو مألوفة لديه. نعم.. أخيرا فهم جون.. بدأ يتذكر الصورة المعلقة فى سلسلة رقبة جاكلين . على ما أظن ذكرت هى أنه زوجها المرحوم . الرحمة من عندك يا رب . ماذا جنيت أنا فى هذا العالم ؟

وجاءه صوت أجش

– السيد بيسون .. يجب أن أقدم لك اعتذارى عن الإزعاج الذى سببته لك . لكن وقتنا ضيق ولهذا سأنتقل إلى لب المشكلة التى تواجهنا الآن مباشرة .

فكر جون بينه وبين نفسه : المشاكل التى تواجهنا الآن ..

فقد كان يعانى من صعوبات مختلفة يحتاج أن يلمح إليها ، وبدأ يخاطب الرجل علنيا ..

- السيد ..

وانتظر جون أن يستكمل له أحد بقية الاسم .

وسارع الرجل بمساعدته : السيد سميث.

عاد جون لأفكاره الصامتة .

- واضح أن هذا الرجل ليس غبيا . واضح فعلاً أنه سميث ، كما هو واضح أننى جون.

ثم عاد لاستكمال حديثه بصوت عال

- السيد سميث.. أنا مستعد للحديث عن مشكلاتكم ساعات وساعات، لكننى أريد أن أذكركم أن آخر مرة أكلت فيها كانت منذ زمن بعيد ، ومن الصعب علىَّ تذكر متى استحممت آخر مرة . أخبرنى أيها الخاطف المهذب .. هل يدخل فى خططكم قتلى من الجوع ؟ إذا كانت الإجابة لا فسأملى عليكم صفحتين يضمان كل الأكلات التى أفضلها فى هذا الوقت من اليوم .

أخذ جون نوتة وقلما من فوق المنضدة الواقفة إلى جانب الأريكة وبدأ يكتب بحماس . فرخة مشوية . أرز بالخضروات . جمبرى مقلى فى البقسماط ، سيندمون أنهم أحضرونى إلى هنا ، شريحة تمساح مع الصلصة الحارة .

عندما ألقى السيد سميث المسكين نظرة على النوتة ، ظهرت فى عينيه علامات الاستياء الشديد .

تأمله جون وهو يفكر

أمر مثير أن نعرف بالتحديد السبب الذى أثار استياءه . غالبا هناك أزمة تماسيح فى هذا البلد . إذن من الضرورى أن أخبره فورا أننى لا أخطط للبقاء هنا فترة طويلة . من المؤسف أن المرة الوحيدة فى حياتى التى أختطف فيها ، أقع فى هذا المكان الفقير . يا سلام لو اكتشفت أننى الآن مخطوف فى المطبخ الصينى مثلا .. أنا أعرف أنه ليس هناك أفضل من المطبخ الصينى .. أرجل الضفادع المقلية .. لحم سمك القرش بالصلصة الحامضة اللذيذة ، لكن يبدو أننى أكاد أموت جوعا .

- مستر سميث .. من فضلك يا مستر سميث لا تنس صلصة فول الصويا . أما الآن فأرجو أن ترينى أين يمكننى الاستحمام هنا تحت الدش ؟

- ولماذا الدش ؟ يمكنك العوم فى حمام السباحة .

دارت هذه الجملة فى رأسه كأنها قطعة موسيقية . وأجابه دون تردد

- أوكى .. لكن إذا أحضروا لى لحم التمساح فسأغفر لهم كل ما حدث .

* * *

نام جون على ظهره وهو يعوم فى حمام السباحة ويتأمل السماء الزرقاء الصافية . للحظة ما تصور أنه لا يوجد فى هذا العالم إلا هذه

السماء وإلا هو نفسه ، هذا الإنسان الضيئل التافه . كل شيء في حياتي مر بسرعة البرق وحصد في طريقه كل النجاح والتوفيق والنساء، وكل ما كان يمكن أن يضيف نكهة لذيذة ومعنى لهذه الحياة . أخذ هو هدنة قصيرة وأدرك فجأة أن قيمة كل شيء تتجلى ، عندما يكون قادرا على إلقاء كل ما حصل عليه تحت أقدام أنثى واحدة فريدة ، على شرط أن تكون حبيبته وتكون غاية في الجمال مثل إيلين .

هذه الفكرة أدهشته جدا . لا .. ألا يوجد غير إيلين في هذه الدنيا ؟ ما هذه التخاريف ؟؟ هلوسات . الحقيقة أنه لاحظ أن المناخ الحار غالبا ما يؤدي إلى نوع من الاسترخاء وابتكار أفكار طائشة .

خرج جون من حمام السباحة وارتدى برنسا أبيض اللون وراح يتأمل المكان من حوله . المنزل الذي أجبروه على الإقامة فيه يقع على مساحة مرتفعة . يحيط به نجيل مقصوص بعناية ، يتناثر الورد البلدي على وجهه في تنسيق بديع . لا يعرف جون لماذا يكره اللون الأحمر منذ طفولته ، فهو يتسبب له في اضطراب داخلي . سور عال يحاصر حديقة البيت من كل ناحية . ترى أين البوابة هنا ؟ سؤال فرض نفسه على جون وهو يربط حزام البرنس. هل أستطيع تسلق السور لأهرب من هنا؟ لكني سأوسخ البرنس وهذا ليس من الإتيكيت .

فجأة وجد أمامه رجلاً بملابس سوداء لا يعرف من أين أتى

- هيا يا سيدي . الطعام جاهز .

* * *

أكثر من ساعة وجون يستمع إلى حديث السيد سميث . كان فضوليا أكثر منه مستمعا . يتلخص الموضوع فى أن للدكتور على زوجة يحبها من كل قلبه . فى شهر حملها السادس فقد الزوج عقله بمعنى الكلمة ، وهددها بالطرد بفعل الغيظ والغيرة . خرجت الزوجة من البيت وبعد ثلاثة أشهر أنجبت بنتا ، خلال فترة الحمل الأخيرة أدمنت السيدة التى هزها قرار الانفصال حبوبا مهدئة . ستة أشهر وفارقت الزوجة الحياة .

عندما أدرك الزوج أنه لم يقتل فقط حياة المرأة التى يحبها والتى أهدته ابنة جميلة ، لكنه أفسد حياته هو نفسه . عاد الأب بابنته إلى البيت وكرّس لها حياته . وكبرت الفتاة وأصبحت الآن فى العشرين من عمرها . فتاة مرحة جميلة تستمتع بالحياة ، كما أنها ذكية وجذابة ، لكن هذه الفتاة فى العامين الأخيرين بدأت تتصرف بطريقة غريبة ، كما لو كانت مسكونة بامرأة أخرى . اعتزلت كل المحيطين بها من الرجال والسيدات، وأصبحت مغلقة على نفسها وأوصدت باب الاختلاط بالناس . واقتصرت على ارتداء الملابس القاتمة فقط لتغطيها من رأسها إلى قدميها . دائمًا وقت النوم كانت تتحول الفتاة إلى امرأة أخرى . تنام وتصحو لتصبح امرأة مختلفة تمامًا . أصعب ما فى الأمر أن الابنة عندما تتحول إلى الصورة الأخرى ، تعتقد أنها زوجة د. على وتصر على اتباع تعاليم الإسلام بمنتهى الصرامة . أما الأب المسكين الذى حرم نفسه تمامًا من أية علاقات نسائية بعد رحيل زوجته ، احتله الفزع وهو

يلاحظ أنه بالتدريج لم يعد يرى فى هذه المرأة ابنته ، بل صورة منعكسة فى مرآة زوجته السابقة . وقد خصص فى البيت حجرات منفصلة طبقا لذوق السيدتين . عندما تتحول الابنة إلى واحدة من الشخصيتين ، كان لزاما على الدكتور على لعب الدور المناسب لهذه الشخصية ، ويتقمص إما دور الأب وإما دور الزوج .

أدرك هو أنه لا بد أن يخرج من هذه الورطة وأن يجد لها حلاً . وبصفته طبيبًا فقد اطَّلع على أبحاث دكتور جون المنشورة ونتائجها ، فأعطى ابنته جرعة من عقار " إل سى دى " بعد تنويمها مغناطيسيا . والنتيجة أن الفترات التى تتقمص فيها الفتاة شخصية الابنة بدأت تتناقص وتتناقص . وتركزت مهمة الأب فى العثور على مخرج من هذا المأزق ، بالتالى أصبح وجود جون أمرا لا مفر منه داخل هذه القصة . لهذا تم اختطافه هو والمرأة التى كانت معه فى هذا التوقيت بالمصادفة البحتة ..

بمجرد انتهاء الحديث ظهرت جاكلين على عتبة الباب أخيرا . أحوالها مضطربة قليلا ، لكن ذلك لم يقلل أبدًا من روعة جمالها . لكن ظهر بصحبتها من خيب آمال جون ، عندما رأى زوجها المرحوم يقف بجانبها فاتحا ذراعيه وهو يحتضنه ، ويتوجه ناحية العشيق .. أقصد ناحية جون . أراد جون أن يترك الكلمة الأخيرة للزوج المرحوم ، فأدار رأسه ناحيته وقال ..

– أرجو ألا تمانع يا سيدى إذا سمحت لنفسى بالتصرف مع المرأة التى أحبها بطبيعتى !

نظر جون إلى السيد سميث نظرة يملؤها التحدى وهو يتوقع أن يرى فيهما التوتر والغيظ ، أو أى شىء آخر إلا عدم المبالاة . وإذا بجون يقرأ فى عينى الزوج المرحوم .. " افعل ما شئت لكن وافق على مساعدتى " .. ثم أغلق الباب خلف سميث .

بقى مع جاكلين وحدهما تمامًا ، فضمها جون إليه بقوة . قلبها يدق بعنف وكأن هناك من اختطفها . بدأ يفك ببطء الأزرار العليا لبلوزتها . لم تحوِّل جاكلين عينيها عنه وهى تبدو كعصفورة مرعوبة . وعندما تحررت كل الأزرار ، فتح بلوزتها ولامست شفتاه نهدها المرفوع إلى أعلى قليلا . صرخت جاكلين وسقطت فورا بين ذراعيه . حملها جون إلى الأريكة وخلصها من باقى ملابسها . دون مقدمات حاولت جاكلين أن تغطى نفسها بالبطانية ، لكنه كان أسرع منها عندما استتند أمامها على ركبتيه وراح يقبل ويعض ويتحسس جسدها بانفعال . يحاول جون أن يطرد من رأسه فكرة أن هذا الشخص الكريه سميث ، هو الذى وضع جاكلين فى فراشه لمجرد الحصول على ما يريد فقط . تأوهت جاكلين من الألم أو من اللذة ، ومعها دارت رأس جون لكنه أجبر نفسه على الوقوف متصلبا .

- يا عزيزتى .. أنا لا أرغب فيك اليوم . سامحينى .

بصعوبة حقيقية ابتعد عنها وهو يقول كلماته بلامبالاة ثم غادر الحجرة .

دخل دورة المياه وهو يحاول تحليل الموقف أثناء وقوفه تحت الدش البارد . منذ اليوم هو وجاكلين أصبحا عدوين . أكيد . لقد أهانها وهى لن تغفر له ذلك أبدًا . يجب عليها الآن الخروج من تحت سيطرة زوجها والبدء فى تدمير اللعبة . وما إن تبدأ الأزمات مع زوجها ومع زبونها ، ستتقابل عيون جاكلين وجون فى الوقت المناسب وتقرأ كل المكتوب فيهما من حب وحنان ولهفة . عندها سيحاول جذب جاكلين لتقف إلى جانبه ، وسيفهم الاثنان أنهما كانا ضحية للعبة غريبة ، وأنهما لن يستطيعا الخروج منها إلا معا .

* * *

انقضى الأمس رغم بعض المضايقات كما توقعت تمامًا . الآن أصبح جون فى وضع الاستعداد للعمل وهو يلبس البالطو الأبيض . الحجة المتفق عليها التى ستسمح لجون بزيارة " سيدة المنزل " كما كانوا يطلقون عليها ، هو هذا الصداع الذى يهاجمها أحيانًا . ظل جون جالسا أمام السيدة ، التى يبذل معها د. على جهدا كبيرا على مدى نصف ساعة لخلع العباءة حتى يتمكن الطبيب من الكشف عليها . أخيرًا خلعت العباءة بعد مغادرة د. على الحجرة ، وراحت تتمتم ببعض الكلمات وهى تسقط العباءة عند قدميها . كل ما تبقى لها رداء بسيط مصنوع من القطن . وعلى عكس ما توقع جون من هذه الفتاة الشرسة

العنيفة ، اتضح أنها رقيقة خائفة ترتعش من أقل صوت . جلس جون إلى جانبها فى وضع ما يلجأ إليه ، كلما أقبل على فحص حالة لا تعجبه . أمسك يدها بحذر . على استحياء حاولت هى سحب يدها لتتحرر منه ، لكن سرعان ما عثرت على هدوئها داخل كفه . وسألته بصوت واهن ..

- هل صحيح أنك تستطيع مساعدتى ، ألا يخدعوننى ؟

لحقها بسرعة : صحيح .. لهذا يجب أن أعرف كل ما يضايقك .

نظرت إليه الفتاة نظرة تملؤها الجدية

- افعل كل شىء حتى يتوقفوا عن الكذب علىَّ . كل شىء حولى خداع فى خداع ، ألا ترى ذلك ؟ كلهم يكذبون .. زوجى .. الخدم .. الجميع ! فى بيتنا حجرات لا يسمحون لى بدخولها . أنا متأكدة من أن هناك أمورا فظيعة تحدث داخلها .

أحيانًا كانت تميل ناحيته لتصبح أقرب ما تكون إليه .

- أحيانًا يبدو لى أن حيوانا يعوى كل ليلة فى بيتنا . نعم .. نعم .. يجب أن تصدقنى . كثيرًا ما أسمع هذا الصوت . طلبت من زوجى أن يفتح هذه الحجرات ، لكنه تحجج بعدم وجود المفتاح . كذب . زوجى يتصرف معى بطريقة غريبة . أحيانًا أتصور أنه يراقبنى . لا يهتم بوجودى ، بل يهتم أكثر بظلى .

توقفت الفتاة لحظة قصيرة وسألته فجأة ..

– هل تطير أثناء نومك ؟ أنا أطير . أحيانًا أرى فى الأحلام أننى بعيدة عن الأرض ، لكن هذا لا يحدث إلا عندما أهرب ممن يحاولون الإيقاع بى . هناك حركة ما تساعدنى أن أطير فوق الأرض .

يداها ترتعشان قليلاً

– لكنى لن أريك هذه الحركة . أنا أموت من الخوف . مرات ومرات ساعدتنى هذه الحركة على الطيران فى أحلامى ، أعتقد أننى إن لم أتمكن من الطيران سأموت .

انقطعت عن الكلام لحظات وعادت تتكلم

– أحيانًا أطير فى أحلامى للقاء من أعرفهم. أراقب ما يحدث عندهم. وفى الصباح يتضح لى أن كل هذا قد حدث بالفعل. كيف يمكن تفسير ذلك؟ يقال إنها ذكريات من الحياة السابقة. أمر محير . أنا أموت من الخوف.

قالت جملتها الأخيرة وهى تحرك كتفيها . أضيبت قدما جون بالتنميل على أثر الجلسة غير المريحة ، لكنه خاف أن يغيرها حتى لا يخيف الفتاة وكى لا يقطع حديثها . من الممكن تخيل مدى سعادته عندما اقترحت هى عليه الخروج إلى الشرفة . استند على السور وأطلق بصره ناحية الجبال . انتظرها جون تستكمل حديثها .

– منظر جميل .. أليس كذلك ؟ أحيانًا أحس بالندم على أننى لا أستطيع الرسم ، ولا الغناء . كنت أتمنى أن أتمتع بصوت جميل . كنت أتمنى أيضًا لو يحبنى زوجى. فهو إنسان غريب جدا . لا يشعر بالحاجة إلىّ .. لا .. لا يحتاجنى .

فجأة بدأت تبكى ، وتقطع صوتها ، وانتقلت إلى النحيب وهى تضغط على رأسها بيدها .

اقترب منها جون وحملها بين يديه . وزنها خفيف للغاية . وعندما هدأت نامت كالطفل . وضعها على الأريكة ثم أغلق النافذة وخرج .

– لا .. لا .. لقب " سيدة المنزل " لا ينطبق عليها ، سأطلق عليها لقب " الصغيرة " .

* * *

جلس جون فى حجرته وهو يضع اللمسات النهائية لعملية الفحص الطبى لـ " سيدة المنزل " التى استمرت ثلاثة أيام . يبدو أن د. على لم يحسب جرعة عقار " إل سى دى " بشكل سليم ، كما أنه أخطأ بإعطائها الدواء أثناء جلسة التنويم المغناطيسى .

انتهى جون من الكتابة واسترخى داخل الفوتيل . هل من المثير معرفة كيف حال جاكلين الآن ؟ منذ ذلك اليوم لم يلتق بها ولو مرة واحدة ، لكن زوجها عوض غيابها بوجوده الدائم . فى عينى الزوج البائس ظهرت علامات الانهيار . هالات سوداء اتخذت مكانها تحت عينيه . وهو مشغول الآن بمراقبة جون الجالس بجوار د. على فوق الأريكة الضيقة . قدم لهما جون النتائج التى توصل إليها ، وأقبلا على قراءتها بشغف وهما يقلبان صفحاتها . لاحظ جون بوضوح أن لا شىء مما كتب قد نال رضاهما . فقد كانا يتهامسان ويتجادلان حول شىء ما

بصوت مكتوم . يبدو أنهما متخوفان من أن تكون الجرعة التى حددها جون أكثر من اللازم ، وحتى إذا لم تكن قاتلة ستسبب للصغيرة أعراضا لا يمكن التخلص منها .

كان متفهما تماماً قلق الأب ، لكنه لم يكن لديه القدرة على التخلص من الشعور بانعدام الثقة . لقد سكنه شك أكيد .

– يا سادة .. واضح أن الجرعة التى حددتها للمريضة تسبب لكما القلق . لو عندكما أى مخاوف وتريدان إجبارى على تغيير اقتراحى ، فيمكننى أن أبشركما أن هذا الحلم لم يتحقق يوما لأى زميل من زملائى، فأنا أرفض ذلك تماماً واسمحا لى بالانسحاب .

استدار جون وخرج إلى الشرفة .

يااه ! السماح له بالانسحاب ! لقد أدرك فجأة أنه لم يعد أمامه أمل فى الانسحاب . ليس فقط لأنه انزلق إلى هذه اللعبة رغما عنه ، لكن لأنه عجز عن نسيان عينى الصغيرة وسؤالها له .. " هل صحيح يمكنك مساعدتى ؟ " تسرب إليه إحساس بالمسئولية عن مصيرها ، لأنه كان يمكنه بالفعل تقديم المساعدة إليها . لكن إذا أراد أن يصل إلى هذه النتيجة، عليه أولا أن يهدم جدار الشك . عاد إلى الحجرة بمنتهى الثقة .

– يا سادة .. أنا على استعداد لاختبار الجرعة التى قررتها على نفسى ، لأؤكد لكما أنها ليست مميتة على الإطلاق . أرجو أن تتفضلا بالدخول إلى الصالون ، وسأحقن نفسى أمامكما بهذا الدواء .

فتح جون باب الصالون على مصراعيه أمامهما ، ولسبب ما تذكر كيف فتح الباب بنفس هذه الطريقة أمام إيلين عندما استقبلها فى بيته . فى ذلك الوقت كان يعتقد أن سعادته ستعرف طريق الخلود .. ولم يدرك متى وأين تبخر كل شيء .. نعم .. شيء غير مفهوم أبدًا . ما علاقة إيلين بنا هنا الآن ؟ وفكر للحظة أن هذه الذكريات ستؤدى إلى نتائج سيئة . لكنه فى النهاية استطاع التخلص من هذه الفكرة . لن تكون المرة الأولى التى يجرب فيها الطبيب الدواء على نفسه أولاً .

مرت هذه الملحوظة على رأس جون وهو يجهز كل شيء بطريقة آلية للعرض الاستعراضى . أعطى الحقنة إلى د. على وتمدد على الأريكة ومد له ذراعه . فى اللحظة نفسها التى أحس فيها بوخزة الإبرة ، انفتح الباب ودخلت " الصغيرة " الحجرة بهدوء . نظرت إليه بعيون كبيرة مفزوعة وهمست بشيء ما . لكن كلماتها ذابت داخل الأصوات الغريبة التى احتلت فمه . جدران الحجرة بدأت فى الانهيار . كل شيء اكتسى بضوء مبهر . من مكان ما من أعلى سقطت عليه أشعة خضراء زرقاء ساطعة . تصاعدت حدة الأصوات . مر أمام عينى جون وجه إيلين ، حاول أن يصرخ ليقول لها أشياء أثناء سقوطه فى بئر غريب ضيق . لكنه عجز عن فتح فمه ولم يتبق له غير الابتسام لهذا الضوء ، وهذا الدفء الذى يندفع لمقابلته من الاتجاه المعاكس .

* * *

خلف المرآة

صوت ما أجبرنى على فتح عينى . كانت والدتى تشعل المدفأة . المطر ينهمر خلف الشباك . الجو بارد فى الغرفة . الحطب المشتعل فى المدفأة يرسل إلى الأرضية شرارات حمراء مرتعشة . لا أحب اللون الأحمر . فهو يشبه الدم ، وأنا أخاف من الدم . لكنى لم أعترف لأحد بهذا من قبل ، وإلا سأكون محل سخريتهم وأجدهم يربتون على كتفى وهم يوبخوننى بحدة - خصوصًا والدى - ويقولون .. " انظروا إليه .. هل هذا تصرف الرجال ! " . دائمًا أبدًا مشغول هو بى ويحرجنى أمام الناس . الضوء الأحمر مازال يتحرك فى اتجاه المنضدة ويتراقص على المفرش الأبيض ، يذكرنى بما حدث لنا منذ وقت قريب.

فى هذا الوقت كنت أنا ووالدتى عائدين من زيارة والديها ، اللذين يعيشان قرب باريس . وقد نظر جدى حوله بذعر وهمس ..

- احترسا .. فى ضواحى باريس المجرمون يسرقون المسافرين فى عز النهار . قدرنا أن نعيش حتى نرى ذلك ...

كان هذا فى عام ١٧٩٢ .

ابتسمت والدتى ورفعت عينيها تجاهى

- لا يهم .. معى الآن حارس شاب عمره أربعة عشر عاما فقط ، لكن يبدو كما لو كان فى السادسة عشرة .

شعرت بالامتنان لهذه الكلمات ، وفكرت فى أنى لن أسمح أبداً أن يضايقها أو يغضبها أى إنسان . لكن بعد عدة ساعات من هذا الحديث وجدنا أنفسنا أنا وأمى محاطين بمجموعة من السارقين الهائجين ، ورحت فى نوبة من الذعر الحقيقى . تمنيت لو انشقت الأرض وابتلعتنى من فرط الخوف . سلب منا المجرمون كل متعلقاتنا وحاصرونا داخل دائرة محكمة . لم أكن أجرؤ أن أحوِّل بصرى عن جثة رجل رافقنا فى السفر ملقاة فى الأحراش ، عليها بقعة حمراء تلوث قميصه الأبيض . لم يكن بوسعى التفكير فى أى شىء إلا هذه البقعة الحمراء المرعبة . المجرمون يقتربون أكثر وأكثر وأيديهم تمتد ناحية والدتى . واحد منهم أمسكنى من قميصى وانتزعنى من جانبها ، ثم ألقى بى على الأرض بعيدا عنها . وأنا أقع على الأرض سجلت عيناى منظر وجهها الشاحب وشفتيها المتشبثتين ببعضهما البعض . فجأة انفتح حصار المجرمين المحيطين بنا ، عندما اخترقه رجل قوى البنيان قصير القامة . بمجرد ما رأته والدتى تنفست الصعداء، واتجهت ناحيته وهى تصرخ .. "ببير".. وإذا بهذا الرجل يمد لها يديه القذرتين كثيفتى الشعر . تجمدت أنا من الذعر وأنا أرى كيف مسحت أصابع أمى بحنان وجه هذا الشخص المرعب كما لو كانت فاقدة البصر . ثم ضحكت وهى تبكى وهمست .. "أنت على قيد الحياة .. أنت حى .. " .

مرت بقية أحداث اليوم كحلم غريب . استيقظت فى المساء على أصوات مكتومة . كنت أنام فى كوخ مصنوع من فروع الأشجار ، يلفنى

بالطو دافئ يخص شخصاً ما. من خلال فروع الكوخ كنت أرى النجوم. أعشق أنا النظر إلى النجوم . أوراق الشجر القابعة على فروع السقف جفت ، لكنها تعاود الهمس فيما بينها إذا وجدت النسمة التى تؤانسها . أنصت بتركيز وتعرفت على صوت رئيس العصابة . من بين فتحة الجدران رأيت والدتى تجلس مع هذا الرجل الغريب وحدهما أمام كتلة كبيرة من النار الموقدة .

ألسنة النار الطويلة تبذل محاولات جادة لتلعق نجومى . ولأنها لم تتمكن من ذلك ، راحت تعبر عن غضبها وهى تصر على الوصول إلى أعلى مرة بعد مرة . أزحت فروع الجدران لأرى ما يحدث هناك . حمل رئيس العصابة والدتى بين يديه بعناية ، ووضعها فوق بطانية مفروشة على الأرض بالقرب من الكوخ. تبدو أمى جميلة فى ضوء النار المشتعلة. كانت تقول بصوت مرتجف ..

– يا الله ... أربعة عشر عاما مضت ! أين كنت يا بيير ؟ كل الناس اعتقدت أنك فارقت الحياة . وقد صدقت أنا ذلك . بعد ثلاث سنوات عاد جاك . هل تتذكر ؟ .. تتذكر هذه الليلة التى تبادلنا فيها صليبين .. أنا وأنت .. ؟ عندما أعاد لى جاك صليبى ، فهمت أنك رحلت عن الحياة .

وصمتت أمى تماماً .

احتضن بيير والدتى وبدأ يحكى لها بصوت منخفض .. كانت أمى تسمع وأحياناً تتنهد وهى تمسح دموعها . أما أنا فقد أنصت إليهما وأنا أكتم أنفاسى ..

- عندمـا علمت أنكِ تزوجـتِ قـررت ألا أعـود إلى باريس أبدًا . لكن لسبب ما يعشق الناس الموت فى المكان نفسه الذى شهد ميلادهم . يبدو أن ساعتي قد اقتربت . عندى رغبة فى ذلك . يبدو أن الله قرر لنا أن نتقابل أنا وأنتِ مرة أخرى . رحمة الله واسعة وأنا لا أستحق ذلك .

وصمت بيير تمامًا .. وعاد إلى ذكرياته ..

- أتعرفين .. ممكن جدا أن يجد الإنسان رقبته تحت حد المقصلة ، سـواء أيد الثـورة أو عـارضـهـا أو لم يتـحـدث عنـهـا إطـلاقـا . كم كنت رومانسيا عندما آمنت بمثاليات براقة . لكنى فهمت بعدها أن كل إنسان بداخله رغبات مدفونة ثقيلة .. حب السلطة .. الحسد .. القسوة .. يمكن أن نلخص كل هذا ببساطة ونقول " الشر " .. هذه الرغبات تهيج بمنتهى التحرر أثناء الحروب والثورات . لكن .. لكن الثورة حرب لا تعرف العدل ، بل أسوأ من الحروب ولا تعرف الرحمة .

تواصلت معه بصوت خافت : السيد روبير يسكن بالقرب منا . أراه كثيرًا . مظهره غريب جدا ، فهو قصير القامة . وجهه كالموت أبيض خال من الحياة . أنا أخاف منه ، أما زوجي فيقدسه .

بالنبرة الخافتة نفسها : هل هو مثالى ؟

بلهجة دفاعية : هو فنان .. رسام .. قريب لديفيد صديق روبير . لكن زوجى يرسم أفضل من ديفيد .

لاحظت أنا نغمة الفخر في صوتها . وصمتت أمي وهي تستمتع بالسكون .

– هل هذا الفتى ابنك ؟ كم عمره ...

تنهدت والدتي : بيير أرجوك ..

– أوكي إليانور .. أنا .. لص ، لكن لا يمكن أن أسرق سعادة إنسان آخر .

ومال ناحيتها

– هذه السعادة لم تعد من حقي ولن تكون . لقد هداني الله في هذه الليلة ..

وراح يفتش في المكان حوله

– خذي قطعة الفخار هذه . طرفها حي وطرفها محترق .. نفس مصير روحي .. احتفظي بها إذا أردتِ ... وإذا لم ترغبي يمكنك أن تتخلصي منها . أما الآن يجب أن تنامي .

قام فجأة ومشى بالقرب من الكوخ وابتلعه الظلام .

تقلبت أمي على جانبها وسكنت . أكتافها هائجة بعض الشيء . يبدو أنها كانت تشعر بالبرد. صرخة طويلة عجيبة قطعت الصمت فجأة. صرخة تشبه عواء حيوان مصاب بجرح قاتل . قفزت على قدمي . نطقت صرخة هذا الحيوان باسم أمي ، كما لو كان هذا الحيوان لا يستطيع

أن يبقى قويا كما كان . هذا الحيوان يناديها . ظل والدتى يتأرجح تحت تأثير النيران إلى اليسار مرة وإلى اليمين مرة . توالت هذه الصرخات ورأيت كيف طارت والدتى عبر النار واندفعت نحو مصدر هذه الصرخة . شعرها الأحمر يتطاير ويزداد نورا تحت لهيب النار . خفت جدا أن أراقب والدتى ، لكنى استجمعت شجاعتى وجريت وراءها ، فربما تحتاج إلى مساعدتى .

لم أكن أعرف أين يجب أن أجرى . فقد سكب الليل على الغابة لونا أسود، فطلى كل النجوم فى السماء باللون نفسه . لكن فجأة كشف القمر عن نفسه كى يمد لى يد المساعدة . أدرت رأسى إلى اليمين .. لم أكن أتخيل أبدًا أن جسد المرأة يمكن أن يكون جميلاً إلى هذه الدرجة . وكأننى كنت أرى أمى لأول مرة فى حياتى . تقف هى عارية وهى تعانق هذا الشخص الغريب بقوة ، فأصبحا كأنهما شخص واحد . أدركت أنه من الأفضل العودة إلى الكوخ. فأمى لم تكن فى حاجة إلى مساعدة.

* * *

كنت نائما فى السرير . الحطب المشتعل يصدر أصوات فرقعة ، ومعه ترتفع ألسنة اللهب إلى أعلى . انعكاسات ضوء هذه النيران ستلتصق بحياتى إلى الأبد . بعد ما حدث أصبحت والدتى تتعامل معى بحنان على مستوى رفيع ، وحفظت لى جميل أننى لم أنطق بكلمة واحدة لوالدى عما دار فى هذه الليلة . وجهها أصبح يحمل ابتسامة رضا

لا تنقطع . وزنها زاد وجمالها زاد . الكثيرون لاحظوا ذلك إلا والدى . فقد كان منشغلا تمامًا فى عمله ، يحاول الانتهاء من رسم بورتريه إحدى السيدات من طبقة الأغنياء . ديفيد يساعده فى هذا العمل . لم يسمح أبى لأحد بمشاهدة عمله ، رغم أنه على وشك الانتهاء منه . لم يكن يأذن لأى إنسان بالدخول إلى مرسمه ، وعندما يغادره يغطى البورتريه دائمًا بقطعة من القماش .

قمت من الفراش واقتربت من النافذة ، فرأيت أبى يتناقش مع ديفيد عند باب البيت . أيديهما تلوح هنا وهناك ويبدو أنهما ثائران . أعرف مسبقا أن جدالهما يستمر زمنا طويلا ، ودائمًا ما ينتهى بتناول البيرة فى أقرب بار ، لهذا قررت أخيرًا دخول المرسم لمشاهدة اللوحة التى منحها والدى عاما كاملا من عمره . كنت أعرف أن هذه مخالفة للقوانين المنصوص عليها ، وأنه فى حالة ضبطى متلبسا سينزل بى أبى عقابا قاسيا . أمى أيضًا لن ترضى عن هذا التصرف ، لكنى لم أستطع مقاومة هذه الرغبة . بدا لى فى هذه اللحظة أن كل شىء يقف ضدى .. درجات السلم التى تتأوه تحت أقدامى تمارس خيانتى .. الباب الذى أغلق نفسه بنفسه دون سابق إنذار.. الدلو الذى تعثرت فيه فى الظلام... لكنى فى النهاية وصلت إلى هدفى . اللوحة تقف أمامى على الحامل ، مغطاة بقطعة قماش رمادية اللون .

بهدوء رفعت القماش وجذبته ناحيتى فوقع عند قدمى . فيما بعد أدركت أن طفولتى سقطت عند قدمى مع هذا القماش ، وبقيت هناك إلى الأبد . لقد وقعت فى غرام هذه اللوحة إلى ما لا نهاية .

سيدة تملك جمالا ربانيا .. شعرها أسود .. تصعد السلم فى اتجاهى قادمة من الحديقة . تلبس رداء يشبه الملابس الإغريقية . فى قدميها حذاء من الحرير . بإحدى يديها ترفع طرف ثوبها ، وباليد الأخرى تمتد إلى الأمام وكأنها تطلب منى مساعدتها لنزول درجات السلم إلى الطابق السفلى . وجهها بديع كأنه حى يرزق . بدا لى أننى رأيت كيف كانت ترتعش شفتاها من الغضب لعدم إسراعى بمد يدى إليها .. يا الله ... كل هذا الجمال رسمه أبى ؟

أحسست بيد تمسكنى من كتفى . تألمت من شدة ضغط الأصابع .

– من هذا الوافد الجديد ! من أذن لك ... ؟

صوت أبى خلف ظهرى يرتعش من الغضب . انتفضت ودفنت رأسى بين كتفى واستدرت ببطء ، وركزت عينى مباشرة فى عينى أبى . توقف أبى فجأة دون أن يستكمل جملته ، وقال بصوت أكثر لطفا ..

– انظروا إليه .. كيف يحملق فيها كما لو كانت حية . أمر مثير أن تعرف ماذا يختفى هناك تحت هذه الملابس ... أليس كذلك ؟

وضحك بسخرية

– هل هى حقيقة جميلة إلى هذا الحد كما رسمتها ؟

– فى الحقيقة هى كذلك .

لحظة صمت ..

- لا تستطيع أن تتصور كم هى جميلة ... عندما وقفت أمامى لأرسمها ، كانت قريبة منى جدا . كنت أرسمها ساعات وساعات وأنا أشم رائحة شعرها وفستانها ...

فجأة انشغل أبى فى السعال

- ماذا أقول ... يا إلهى ... هل تريد أن تشارك بيديك فى هذا العمل العبقرى ؟ أنت ترى فى الركن الأيسر أسفل اللوحة طائراً ينقصه رسم ريشه . أوكى .. يمكنك أن تستكمل رسم هذا الريش ...

بصيغة كرم زائد

- ثلاث ريشات .. السنوات الثلاثة التى كنت تأتى فيها إلى هنا لتتعلم الرسم لم تضع هباء .

خرج والدى من المرسم على مهله ، ثم وقف عند الباب

- إذا أفسدت الرسم سأضربك .

وفجأة غمز لى بعينيه وهو يبتسم

- لن أضايقكما يا أعزائى .. سأترككما وحدكما .

* * *

عندما صعد أبى إلى المرسم فى نهاية الليل لم أرتعش ولم أخف . كنت أعرف أننى لم أخذله . تفحص عمله بنظرة طويلة ، ثم ابتسم وهو يلمس شعرى بيديه .

– يا شيطان .. أحسنت .. لكن لماذا هذه الريشة حمراء ؟ لم تكن تحب اللون الأحمر .

– أجبته وأنا أنظر إلى والدتى خلسة : هذا ما حدث.

ابتسمت والدتى .. هل فهمت المقصود ؟

فى المساء شعرت أننى مريض . كنت أنتفض من البرد وأشعر بألم فى يدى وقدمى ورأسى يكاد ينفجر . لم تكن أمى فى البيت ، لكنى كنت أشعر أنها معى ، وفجأة شعرت بتحسن . ذهبت إلى حجرتها ونمت فى فراشها ، دفنت رأسى فى قلب وسادتها وبدأت فى البكاء . أين أمى ؟ عندما دسست يدى تحت الوسادة اصطدمت بشىء صلب . أمسكته وقربته من عينى . بين يدى قطعة الفخار المحترقة من أحد أطرافها . وصل إلى أذنى صوت والدتى القلق قادما من أسفل من مكان ما . فجأة أدركت أن كل شىء سيصبح أفضل . يد باردة لمست جبهتى وأحسست أننى أغيب فى مكان ما ...

جون

"الأصوات تسبح حولى . تخفت أحيانًا وترتفع أحيانًا" . يود جون لو تعلق بأى صوت منها كى يخرج من هذا المستنقع ، لكنه لا يملك القوة كى يعوم إلى السطح. استرخى واستمر فى التأرجح على أمواج الحلم . لكنه فجأة أحس بمن ألقى به على الشاطئ. مازال متمدداً على الأريكة،

لكنه لم يتمكن من إدراك ذلك إلا عندما فتح عينيه . تأمل كل ما حوله ، فرأى الوجوه نفسها التى يعرفها . على فكرة .. رغبة حقيقية تتملكه أن يفرغ ما فى معدته . ربما يكون ظهور جاكلين بوضوح فى ركن الحجرة كبقعة شاحبة هو السبب فى ذلك .

– يا إلهى .. هؤلاء النساء .. لكن .. كل هذا فيما بعد .. غداً .. كل شىء .. غداً . أما اليوم فهو يريد أن يبقى وحده . وأغلق جون عينيه مرة ثانية .

* * *

جون سعيد بنفسه . أسبوع واحد مر على علاج مريضته لكن النتائج مبهرة فعلا . فقد بدأت المريضة تعود إلى حالتها الطبيعية بالتدريج ، بعد جلسات ناقش معها جون كل ما مر عليها ، ومن هنا عثر على تفسير للكثير من الأمور . على مدى كل هذه الأيام بدا هو و"الصغيرة" كأنهما يعرفان بعضهما البعض منذ زمن بعيد ، كان يتركها ساعات الليل فقط . إحساس تام بالرضا سببه الغيرة المنحوتة بوضوح على وجه جاكلين . وإحقاقا للحق فقد كان الأب يتصرف هو الآخر بطريقة متوترة نوعا ما .

عدة طرقات سمعها جون على باب حجرته . من ثقب الباب اشتم أنفه رائحة بارفان . بارفان " أوبيوم " الفرنسى الشهير . يبدو أن

جاكلين بعدما نالت منه هذا العطر كهدية ، تخيلت أن هذا هو بارفانه المفضل فراحت تسكب نصف الزجاجة على نفسها فى كل مرة تتعطر فيها . والحقيقة أن جون لم يكن يطيق رائحة العطور ، التى تحل محل جلد أنثى رقيقة ، فى فراشه .

فتح الباب وتقدم خطوة ناحية جاكلين الواقفة بعينين مسترخيتين بتواضع . أدرك هو أن رائحة بارفانها اليوم أقوى من أى مرة سابقة . أمسك بيدها وقادها عبر الغرفة حتى وصلا إلى الشرفة . بينه وبين نفسه وصل إلى قرار.. "لعل وعسى يتجدد هواء الحجرة بعض الشيء".. لم تقاومه جاكلين . أغلب الظن أنها تعتقد أنه لم يكن يصدق مدى السعادة التى منحها له القدر ، والتى برزت له بين الظلام ، فما كان منه إلا أن اجتذبها تحت أشعة الشمس كى يتأكد هل هى سراب أم حقيقة . لكن الرؤيا لم تغب .

بالنسبة إليه كان هذا أسوأ ما فى الموضوع . وصل تفكير جون إلى هذه النقطة وهو يتخلى عن يدها . جاكلين تقف بأقل القليل من الماكياج ، أو تقريبا دون ماكياج . على ضوء شمس الصباح خلفها بدا جسدها جميلا متناسقا . نادمة هى ومنكسرة . فجأة أحس جون برغبته فى الغفران لها .

تذكر جون ما يصرخ به أنصار المرأة فى كل مكان .. يطالبون بالمساواة فى الحقوق ؟ يطالبون بالحرية ؟ أية حرية وأية مساواة ؟ لن يحدث ذلك أبداً ! فالرجل هو الملك .. هو قيصر الطبيعة !!! هو الإله

زيوس ، هرقل ، أبوللو ! ياللشيطان ! على المنصة تقف سيدة أعمال بجونلة سوداء وقورة وبلوزة بيضاء ، وتتحدث عما تعتقد هى أنه أمر ضرورى للغاية . لكن بمجرد أن يقترب منها رجل حقيقى ويحتوى وجهها بين يديه ويثبت عينيه فى عينيها ويقبلها ، ستعيد التفكير على الفور .. هل ستصعد المرة القادمة إلى المنصة أم إلى فراشه ؟؟

مرت ساعة بعد إغلاقه الباب خلف جاكلين ، ولاحظ هو أن السعادة الهستيرية التى نضجت داخلها لا يمكن ألا يلاحظها أحد من المحيطين بها . لم تمنحه فرصة كى يرتدى ملابسه ، فقد أخفتها وهى تستمتع بغضبه معتقدة أنه يلعب معها لعبة . " اللعنة .. أين ذهب حذائى ؟ هناك مريضة فى الطابق السفلى تنتظرنى ، وأنا أزحف على الأرض كالأبله ! المهم ألا تكون جاكلين أخذته معها للذكرى " .

مر بعض الوقت قبل أن ينزل جون بسرعة وخفة إلى أسفل السلم . البهو فارغ من الأحياء . صوت الصمت فى الجو معلّق على وتر رفيع . انزوى الجميع داخل حجراتهم ، فأصبح البيت خاليا من سكانه . غريب جدا ! جلس على الأريكة وحاول أن يشعل سيجارة . لكن لسبب ما اشتعلت السيجارة من طرف الفلتر . ألقى بها فى الطفاية وهو يلاحظ أنه مرتبك قليلا . يجب أن يتماسك . هكذا مر وقت قليل على انصراف جاكلين . من المفترض أن المنزل يضم بالإضافة إليها و" الصغيرة " والدكتور على ، ما لا يقل عن أربعة من الخدم ومعهم الحراس أيضًا . ما الذى جعلهم يتركون البيت جميعا وفى وقت واحد ؟ مستحيل أن

يخرجهم أحد من البيت بالقوة . جاكلين لن تسمح بذلك ؛ فطبقا لشخصيتها مستحيل أن توافق على شيء لا ترغب فيه ، فهى لن تتورع عن قلب مائدتين على الأقل وانتزاع ما لا يقل عن نصف شعر رأس من يهاجمها . وإذا كان كل مهاجميها ذوى رءوس صلعاء ، فيمكنها تحطيم عدد من الفازات فوق رءوسهم . والأهم من كل هذا أنها كانت ستودعنى ! .

مرة أخرى تلفت حوله . الأثاث فى مكانه والفازات سليمة . لا توجد أى آثار لمعركة .

هذا يعنى أن جاكلين على قيد الحياة ، وأنها ذهبت بإرادتها . ركز جون تفكيره .. لكن إلى أين ؟ ولماذا أخذت الجميع معها ؟ فهى لن تستطيع أن تطعمهم كلهم . إذن ليست جريمة قتل أو اختطاف . لكنه هروب عام عن طيب خاطر . لكن لماذا ؟ هل يجوز أننى أخفتهم بشكل أو بآخر ؟

فجأة سمع صوت محرك سيارة يقترب ، ثم صوت قفل الباب .. قال فى نفسه محاولا إرضاءها .. " هذه هى جاكلين ، ربما تكون قد تذكرت أنها لم تودعنى .. طبعًا عادت هى وسيتضح كل شيء " . أغمض جون عينيه ووقف فى وضع استرخاء ثم جلس على فوتيل مريح .

توقع جون سماع صوت رقيق يقدم إليه اعتذارًا ، صوت جاكلين بالتأكيد . انتفض وفتح عينيه فإذا به يرى رجلا وقورا بشعر شائب يقف أمامه ويسأله ..

– ماذا تفعل فى بيتى ؟ من أنت ؟ أين ابنتى ؟؟

– أب آخر ؟ لم أستطع تحمل ذلك . من هذا العجوز الذى هبط علىَّ من السماء ؟

دارت هذه الأسئلة فى رأس جون ، لكنه لم ينقل الأسئلة إلى حيز الصوت المرتفع . بعض الأشخاص يقفون وراء العجوز ، منظرهم ليس مريحا ويحملقون فيه بعداء ..

بعد نصف ساعة كان جون يجلس فى البهو يشرب كأس ويسكى بالثلج ، يتحسس خده المتورم ويحاول أن يصلح من أوضاع قميصه الممزق . لا يفهم هو أى شيء . كل ما حدث يؤدى إلى الخلل . فقد تحدث لتوه مع والد " الصغيرة " الحقيقى . بالإضافة إلى قلة كلام الرجل ، تميزت مناقشتهما بطبيعة خاصة أخرى . فالعجوز هو الذى يلقى الأسئلة باستمرار ، لكنه على أى حال فهم من الأسئلة أن "الصغيرة " ليست ابنة د. على ، بل فى الحقيقة زوجته . وقد نشأت مع أسرتها منذ طفولتها كمسلمة مؤمنة صالحة تؤدى كل الفرائض الإسلامية ، وأن د. على استخدم معها عقار " إل دى سى " والتنويم المغناطيسى بغير رغبتها لتحويلها إلى امرأة أوروبية .

على أى حال لقد أسعدنى الحظ أنه تم اختطافى وأنا محتفظ بكروت الائتمان فى جيبى. دقت هذه الفكرة فى رأس جون وهو يخرج من البيت الخالى متوجهًا إلى المطار ، وإلا لما تمكن أبدًا من مغادرة هذا المكان .

* * *

بعد عدة ساعات دخل جون صالة المطار واشترى تذكرة سفر إلى لندن . تهاوى جون على أحد المقاعد بصالة المطار ومد قدميه باستمتاع . عليه الانتظار لمدة ساعتين . على أى حال فقد عرف ممن يهرب د. علي، لكن ماذا عن جاكلين وهذا السميث ؟ فجأة أحس بإرهاق شديد . لا يريد هو أن يشغل ذهنه بأى شىء . يبدو أن كل ما حدث كان حلما مجنونا . الجزء المضىء هو هذه المرأة المختفية جاكلين . لم يكن يحمل هم أى شىء ، حتى سفره إلى بيته وزيارة عيادته ، ولا حتى الحديث مع رؤسائه أو مقابلة أصدقائه القدامى .

راح يراقب المسافرين وهو غارق فى الفراغ . كل شىء يدعو إلى الملل . أغمض عينيه ونام .

لمسة خفيفة لكتفه ورائحة بارفان مرتبطة بذكرى ما عنده دفعته ليفتح عينيه . كانت الصحفية التى أخذت منه حديثا فى عيادته منذ زمن بعيد تقف إلى جانبه بطريقة مضحكة . ماذا كان اسمها ؟ يا ربى .. لا أستطيع أن أتذكر . يبدو أننى أطلقت عليها اسم " سمسرة " ، لكنى لا أستطيع أن أناديها بهذا الاسم .. عرضت الفتاة عليه مساعدتها .

- السيد بيسون .. ما أسعدنى برؤيتك فى أتم صحة وحال .
جلست إلى جواره وهى تلقى إلى الأرض حقيبة رياضية .

- سيدتى الجميلة .. أنتِ أول إنسان فى الأسبوعين الماضيين يبدى اهتمامًا بصحتى ، وأنا سعيد أننى أمثل لكِ أهمية ما . لكن حددى لى من فضلك .. أى عافية تقصدين بالضبط ؟

انطلقت كلمات جون مصحوبة بتحد دون أن يفارق عينيها

في النهاية هي صحفية ، حسناء ، يجب ألا تتسبب لهجته في أي إزعاج بالنسبة إليها .

ابتسمت هي : آه .. أنا أرى أنك في حالة جيدة ، ولو كنت تريد الحقيقة فقد كنت أفتش عنك طوال فترة اختفائك .

– مع الأسف مقاس قدمي ليس عظيما ، وإلا كنتِ عثرت عليَّ أسرع من ذلك ، وكنت أنا لن أتورط في هذه القصة السخيفة .

وضع جون ذراعه على ظهر مقعدها .

انبعثت منها تنهيدة

– يا مسكين ! بالمناسبة ... أين د. علي ؟

انحنت الفتاة وفتحت سوستة الحقيبة وأخذت منها علبة سبرايت

– هل تريد ؟

هز جون رأسه ..

– هذا ما كان ينقصني . من أين لي أن أعرف ؟ .. هل تعرفينه ؟

– لا .. لكن عندي رغبة شديدة في التعرف عليه .

فتحت العلبة وارتشفت منها رشفة .

– كل المسألة أن رئيس التحرير طلب مني ..

علامات جدية وتركيز على وجه " سمسرة "

– .. أن أقوم بدراسة مجهودات المخابرات من أجل عمل سلاح يحقق تأثيراً نفسيًا . والدكتور على طبقا لمعلوماتنا يرأس مجموعة تجسس تعمل فى هذا المجال ، وتنتمى لإحدى المنظمات الديكتاتورية ، فهو لا يجمع المعلومات المتعلقة بالأبحاث والاختراعات التى يتم تنفيذها فى مختلف البلاد فقط ، لكنه هو نفسه طبيب نفسى ويقوم بعمل تجارب بنفسه . وتعتبر جريدتنا أن إجراء الأبحاث خصوصا إجراء التجارب فى هذا المجال ، اعتداءً فظيعًا على نفسية الإنسان وتؤدى إلى تغيير شخصيته ، وبذلك تحجر على حريته الشخصية . وقد تسببت الأبحاث التى يتم تنفيذها فى إنجلترا – أى الأبحاث التى تجريها أنت فى عيادتك – فى لفت الأنظار . وتتلخص المشكلة فى الهدف الذى وضعته أنت للأبحاث ، والهدف الذى وضعه هو . فأهدافكما تختلف من أساسها .

نظر إليها جون باحترام شديد

– يا إلهى .. "سمسرة" .. من أين حصلتِ على كل هذه المعلومات.؟

أجابته بابتسامة : نحن نعتبر السلطة الرابعة .. نعرف كيف نجمع المعلومات ونحللها .

ثم صمتت الفتاة . انتظر جون ماذا سيحدث بعد ذلك . أعلنوا فى المطار عن قيام رحلته ، إذن فقد تبقى له دقائق قليلة .

راحت " سمسرة " تواصل حديثها وهى تتطلع إلى جون باهتمام

– وقد علمنا أيضاً أن المخابرات البريطانية تهتم هى الأخرى بهذا الموضوع ، فقد أنشأوا قسما خاصا لذلك ، وهم الآن يحاولون معرفة

المدى الذى بلغه د. على ورجاله فى أبحاثهم . فى هذا المجال يعمل اثنان من العلماء المتخصصين . نحن لا نعرف من هما . كل ما نعرفه أنهما أخ وأخت يلعبان دور زوج وزوجة .

فكر جون وهو يمسح ذقنه بيديه

- جاكلين وسميث هما عملاء للمخابرات البريطانية ؟ هذا يفسر سبب تعقبهم للدكتور على ! .

استكملت " سمسرة " حديثها وهى سارحة

- لكن يبدو أن الدكتور على يعرف ذلك .

طوحت " سمسرة " بيديها ثم أعلن ميكروفون المطار .. " حان موعد ركوب الطائرة رحلة رقم ١٥١ المتجهة إلى لندن " .

أعادت هذه الكلمات جون إلى أرض الواقع

- حان وقت ذهابك .

استدار جون بجدية وهو يستدير ناحية الفتاة

- لن أسافر إلى لندن .. أريد أن أفهم هذه القصة إلى النهاية .

- إذن ..

اقتربت منه الفتاة أكثر

- .. أنا معك . أتمنى ألا تمانع فى ذلك ، خصوصًا أن معرفتى باللغة العربية قد تفيدك .

جاكلين

اقتربت جاكلين من المرآة . تجاعيد . توقعت ذلك. لا حيلة لها معها . هذا .. كله بسبب الشوق . ابتلعت جرعة مارتيني وقررت أن تفكر فى شىء جميل . لكن لا يوجد أجمل من جون . لم تنجح فى العثور على شخص آخر. كيف لها أن تشرب ولا تفكر فى جون . كل ما تملكه فى هذا المكان هو الشرب ، لأنها لو لم تشرب فلن تجد ما تفعله حتى يعود جنريخ .

دائرة مغلقة

انتقلت جاكلين مع جنريخ إلى الجونة . مكان صغير قريب من بيروت يعيش فيه أثرياء لبنان . المدينة الصغيرة نظيفة وخضراء . دير "مريم العذراء" مقام على الجبل . ربما تكون هى التى أنقذت هذه البلدة من التدمير الذى اجتاح بيروت . يوجد هنا قصر حافظوا على حياته ، وهو مخصص للأثرياء المتوسطين . أما هما فيعيشان فى أحد الشاليهات فى حديقة هذا القصر. كل يوم تحضر سيارة لتأخذ جنريخ . أما جاكلين فلم يكن مصرحًا لها هذه المرة بتجاوز حدود المنطقة . كانت تجلس بالساعات على كرسى متأرجح ، تتأمل أمواج البحر الأبيض المتوسط وهى ترتطم بالشاطئ . الاستحمام مقرر فى حمام السباحة فقط ، فجاكلين تغرق فى البحر . حتى لو مسموح لها بنزول البحر ، تفضل هى حمام السباحة .

جاهدت لتطرد من ذهنها صورة الغمازة على ذقن جون . شغلت نفسها بقطع الجاتوه التى تنتظرها فى المطبخ ، وبالمايوه الجديد الذى اشترته . فعلت كل ما فعلت وفى النهاية لم تجن سوى الإحساس بالامتنان . توقفت عند هذه الفكرة فترة أطول . لماذا هى بالذات لا يحق لها الوقوع فى الحب ؟ الامتنان مفهوم .. مهم بكل تأكيد . لكن أليس الحب مهمًّا هو الآخر ؟

جاءها صوت جنريخ من الطابق السفلى . الجو حار . يا ربى كم تتمنى مغادرة لبنان بأسرع ما يمكن ! ملَّت هى هذه اللعبة تماماً . لعبة الاستغماية ومطاردة د. على إلى ما شاء الله .

عادة يتكلم جنريخ بصوت هادئ ومتزن ، لكن صوته الآن قد ارتفع وتعدى كل حدود الأدب . آآآه .. دب النشاط فى أوصال جاكلين ، فابتلعت جرعة أخرى من المارتينى . الآن سيثير المشاكل مع الجميع هنا وسنعود إلى لندن . لن نكون مضطرين بعد الآن إلى تناول هذه الأطعمة اللبنانية الغريبة . الحقيقة أن التبولة تعجب جنريخ جدا . لكن أغلب الظن أننى لن أستطيع تعلم تحضيرها بنفسى . ترى ما أهم مكونات التبولة ؟ طماطم وخضرة وعصير ليمون ... أوكى . وهذه القطع الصغيرة المصنوعة من القمح .. يا ربى ... خبطت رأسها بيدها خبطة رقيقة. " ما اسم هذه القطع ؟ برغل ! نعم برغل . لكن من أين ستحصل على هذا البرغل فى أوروبا ؟ لن تعثر عليه . ترى ماذا يعجب جون من هذه المأكولات الشعبية ؟ يا الله .. جون مرة أخر" . شىء لا يطاق . تقريبا هذا جنون . لكن كل أملى ألا يتحول إلى عدوانية .

لسبب ما رفضت الكأس الاستقرار على المنضدة وسقطت إلى جانبها . زمجرت جاكلين من الاستياء . يجب استئناف ممارسة الرياضة مرة أخرى . دقة حركاتى اختلت تمامًا . على فكرة .. تنهدت مرة ثانية .. ربما يكون ذلك بسبب الملل .. كانت تصب كل لعناتها على العالم كله ، وقـــررت أن تبلغ جنريخ بذلك . اتضح أنه نسى وجـــودها فى الطابق العلوى . من الأفضل أن تحطم شيئا آخر ليحدث الضجيج المطلوب . عندها سيصعد إليها ويطلب منها الصفح . الصفح عن ماذا ؟؟ لا يهم . ستخترع شيئا ما ، لكن عليها العثور على شيء ضخم . تلفتت جاكلين حولها . مع الأسف لم تعثر على المطلوب . فجأة سمعت صخبا فى الطابق السفلى كما لو كان شيئا ثقيلا سقط على الأرض . ثم تكرر الأمر مرة ثانية ، ثم مرة ثالثة . على الفور استردت جاكلين نفسها وقفزت من الفوتيل . يبدو أن جنريخ سبقها ووجد ما يلفت به انتباهها . أخذت من حقيبتها مسدسا صغيرا عليه طبقة من النيكل ، وفتحت الباب ثم نزلت السلم بحذر .

سمعت طرقتين خافتتين . أدركت جاكلين أن أمرًا ما قد وقع لا فكاك منه ، وعند الدرجات الأخيرة قفزت من فوق درابزين السلم . أثناء طيرانها فى الهواء رأت رجلين بملابس سوداء ، يمسك أحدهما مسدسا كاتمًا للصوت فى يده وينحنى على جسد جنريخ . قبل أن تلمس قدماها الأرض ، كانت قد أطلقت الطلقة الأولى . بمجرد هبوطها

استجمعت قواها واستدارت على جانبها ووقعت على فوتيل كبير . من مكانها أطلقت رصاصتين ، ورأت القاتل الثاني يسقط على الأرض . نهضت جاكلين ببطء من على الفوتيل ، واقتربت من الجثتين الغارقتين في السواد . تأكدت أنهما فارقتا الحياة . جنريخ ممدد إلى جوارهما . انحنت جاكلين عليه وضغطت بإصبعها على رقبته لتستشعر نبضه . فجأة شعرت بضربة غادرة على رأسها من الخلف ، منعت شفتيها من ملامسة جبهة جنريخ الذى يعتقد الجميع أنه زوجها . كان زوجها أمام الجميع ، لكن بالنسبة إليها لم يكن كذلك ...

جون

اقترب جون من النافذة . بيروت مدينة جميلة . لولا هذه البيوت المدمرة لصارت أجمل ! عنده رغبة فى النوم ، لكنه لم يسمح لنفسه بالاسترخاء . "سمسمرة" ستأتى بين لحظة وأخرى . مر بأصابعه على خصلات شعره . والآن .. إلى متى سينتظر ؟ لماذا لا يريح جسده ولو لدقائق معدودة ؟ رأسه تزن بشكل غريب . عيناه تغمضان من تلقاء نفسهما . استلقى على الفراش وأغمض عينيه . دخل فى مرحلة بين النوم واللانوم ...

* * *

هذا الشاب ... لقد أرهقها بمراقبته لها. بالتأكيد هذا شيء جميل ، لكن هناك حدودا للذوق . ابتعدت هي عن الشباك. الحمد لله الذي استرد روح والده . سعت هي إلى تحقيق هذا الأمل لأنه أصابها بملل مهلك . ببساطة شديدة فقد الأب عقله . لقد وقفت أمامه ليرسم لها البورتريه ، وهي ترى بالطبع كل ردود الأفعال التي تهاجمه بشدة. لا داعي للإنكار.. كان يعجبها كل ما يحدث . هل توجد أنثى لا يعجبها أن يفقد رجل عقله تحت تأثيرها ؟

ضحكت . السلطة .. مسألة مثيرة .. أما السلطة على الرجال فهي روعة ما بعدها روعة . لا يهم من يكونون .. رجال دولة متكبرين أو رسامين رومانسيين ، أو حتى جنرالات جيش مشاهير أو رجالاً بدائيين بسطاء . مهنتهم لا تهم . شيء واحد جمعهم معا في سلة واحدة .. أنهم رجال .. أسياد الحياة .. ذكور مساكين . سعادة من نوع خاص جداً تملأ عليها حياتها ، عندما تدرك أن نظرة واحدة منها تكفي حتى يزحف سيد الحياة أمامها على ركبتيه وهو يرجوها .. " أمرك يا إلهتي ! " .. كانت تأمر .. وكانت أوامرها غريبة دائماً ، غريبة لدرجة ... لكنها لم تندم أبداً على أي شيء . هذا هو مبدؤها . لا تندم على أي شيء أبداً .

الرسام لطيف لكن زوجته مزعجة . لقد أهانتها .. لهذا كان يجب أن تدفع ثمن ما فعلت. أما هو فلم يقبل حتى تنفيذ أوامرها البسيطة.. أن يضع لزوجته السم في الطعام .. لم يكن هذا في صالحه ، فقد شرب

هذا السم بنفسه بناء على أوامرها . بمنتهى البساطة مدت يدها إليه بالكأس وقالت... "اشرب" .. فشرب .. كان يجب أن يحدث كل ما حدث. لو يدرك هؤلاء الرجال كم الملل الذى يسببونه لها . ملل قاتل . وهذه المرأة المزعجة ! ما الذى أفزعها بالذات إلى هذه الدرجة ؟ نظرة ؟ نعم .. غالبا هى كذلك . نظرة .. لقد نظرت إليها .. بإحساس التعالى . نعم .. نعم ! كما لو كانت تمتلك موهبة معرفة شىء ما لن تعرفه هى أبداً . أما ابنها هل يحتمل أن يكون هو الآخر حافظا لهذا السر ؟ كم عمره ؟ تقريبا سبعة عشر عاما . طبيعى أن يكون وسيما ونظيفا جدا ! مرة أخرى اتجهت إلى النافذة وفتحتها . نعم .. وسيم جدا .

- أنت أيها الشاب ! يخيل إلىَّ أنك تريد أن ترانى ؟

ابتسمت ابتسامة .

- يا سيدتى .. لم أكن أجرؤ فى أكثر أحلامى جرأة على التفكير فى مثل هذه البداية الساحرة ليومى .

وأحنى الشاب رأسه يحييها .

- لكن .. يمكنك أن تأتى عندى .

قالتها وأغلقت الشباك .

فى لمح البصر خطا الشاب ناحية بيتها ، لكنه فجأة أحس بمن يراقبه. هناك تقف سيدة عجوز عند جدار المنزل بملابس مهلهلة مزركشة. بأيديها القذرة أشارت إليها إشارات ما . كانت والدة الشاب بعد ولادة

ابنها وموت زوجها الغريب ، تمنح صداقتها لهؤلاء الأغراب الذين بدأوا يتوافدون على باريس فى السنوات الأخيرة . شىء ما فى هيئة هذه العجوز غامض ومخيف .. شىء لا يمكن تحديده . عنده فضول لمعرفة ماذا تريد منه .

- أنتِ تنادينني ؟ ألا ترين أننى مستعجل ؟

- سامحنى يا ولدى .. تمامًا .. لأننى أرى أكثر مما ترى أنت . أريد أن أتكلم معك . اقترب منى .

- إننى أستمع إليكِ .

جلس إلى جانبها . فجأة ظهرت بين يدى العجوز كروت ملونة .

إذن هذه هى كروتك الملونة التى تحدث عنها كل باريس ؟

ابتسمت العجوز

- هل سمعت يوما عن البلد القديم المزدحم بالحكمة .. عن مصر ؟ هذا البلد يختزن الكثير من العلوم السرية ، التى يصعب فهمها على البسطاء من الموتى . هؤلاء الذين يشغلون أنفسهم دائمًا بمعرفة هذه الأسرار . كم غزوا هذا البلد وهدموا معابده . من بين كل المعابد يحتل معبد سيرابيس بالإسكندرية مكانة خاصة . فقد اتحد كهنة هذا المعبد ليحافظوا على أسرار المعرفة . نحن الغجر وأحفاد سلالة هؤلاء الكهنة حافظنا على أهم وأثمن كتاب فى المكتبة التى احترقت .. كتاب توت أو تارو .. هل تعرف معنى كلمة تارو ؟ عند المصريين القدماء كلمة "تارو"

تعنى " الطريق " ، أما " رو " فتعنى " الملكى " . الغجر هم الجنس الوحيد على الأرض الذين يعرفون اللغة القديمة ، ويتقنون الأسرار والسحر منذ ولادتهم . أريد أن أحميك وأحذرك . يجب أن تفكر جيدا قبل أن تعبر عتبة هذا المنزل . إذا ارتكبت الآن هذا الفعل المتهور ، فهذا يعنى رداء أسود اللون سيغطى كل حياتك فى المستقبل . وسيكون من الصعب عليك تحطيم هذه الدائرة الشريرة .

فردت الغجرية الكروت وبدأت تشرح له بهدوء معنى كل منها . لم يكن من الممكن تصديق ما تقوله ! لقد رحل والده بسبب حبه لهذه المرأة .. هذه المرأة التى تسكن المنزل نفسه الذى ينوى دخوله ؟

ارتفع صوت الغجرية العجوز

– ابتعد عن هذا المنزل وإلا فالمرأة التى تسكنه ستؤذيك أنت أيضاً. مستحيل أن تتخلص من سحرها، ستحبها وتصبح خادما لها إلى الأبد.

فكر الشاب .. إلى الأبد .. هذا الأبد لن يأتى غدا ولا يعرفه أحد . الآن .. تقف هى فى النافذة وتشير إليه بيدها ، كنسخة متطابقة مع صورتها فى اللوحة التى رسمها لها والده ، وساعد هو فى وضع اللمسات الأخيرة وهو صغير ، فرسم ريشا أحمر لعصفور صغير .

لملمت الغجرية أوراقها

– قررت ؟

– نعم !

- ستهرب منها ؟

- سأذهب إليها .

- هذا اختيارك .

وضع الشاب يده فى جيبه وأخذ منه عملة معدنية أعطاها للعجوز .

- خذى .. اشترى طعاما .

أخذت العجوز منه العملة وهى تفكر ، ثم هزت رأسها واستدارت لتسير ببطء ناحية الميدان الرئيسى .

أمسك الفتى مقبض الباب وهو يرتجف من الإثارة ، لكنه فجأة سمع صوت خطوات مسرعة . كانت هى العجوز .

همست له بين أنفاسها المتلاحقة بصعوبة

- يجب أن تعرف .. إذا .. إذا أردت أن تتخلص من سحر هذه المرأة ، شيء واحد فقط سينقذك منها . اثقب لوحتها بخنجر . عندها ستتحرر منها . الآن سأنصرف . الوداع .

تابعها الشاب بنظرات تودعها وابتلع فى صدره كمية كبيرة من الهواء ، كما لو كان سيأخذ غطسا فى الماء ، ثم دخل المنزل بخطوات واثقة والإلهة فى انتظاره . أغلق الباب خلفه فسمع صوت ارتطام معدنى.. كمصيدة الفئران .. لماذا فكر فى ذلك ؟ الشارع خال . فقط كلب يعوى وحده برتابة وملل على البعد .. أو .. أو .. أو ..

جون

أو .. أو ..

الآن فقط وعندما استغرق في النوم بعمق ، توقظه صفارة المنبه البغيض ، ناهيك عن طرقات بدأت منذ دقائق ، وتبعها صوت صاحب الفندق .

– أسرع ! يا سيد ! قم ! لقد عادوا مرة أخرى ! سيلقون القنابل !

جون فى نفسه : فليذهبوا إلى الجحيم

واستدار على جانبه الآخر ثم رفع صوته ..

– أنت وهم جميعا. أريد أن أنام . لن تستطيع أى قوة أن تسحبنى من فراشى .

انفجار قريب جدا . البيت وسقفه قفزا من مكانهما ، فتنبه جون تماماً على أثر الانفجار الرهيب ، واعتدل فى سريره وهو يفكر بتوتر ..

– شىء غريب أن يحدث هذا الانفجار فى هذا المكان ، وفى هذه اللحظة التى يحاول فيها مواطن بريطانى منهك بائس وحيد أن ينام . من يكون هذا الفاجر الذى يتسبب فى هذا الإزعاج ؟ يجب العثور على حل عملى. لا يوجد أسهل من ذلك . كان بإمكانى ألا أستيقظ إلى الأبد ، بمعنى أنه كان من الجائز أن تسقط القنبلة على هذا المبنى بالذات ، لكنها لم تسقط عليه . شىء عملى ؟ عملى .. لكن ..

نظر فى المرآه بغضب ..

– أفضل شىء لمن يمتلك هذا الوجه ألا يستيقظ أبداً .

هناك كائن ما فى المرآة لم يحلق ذقنه يتطلع إليه . متهدل منكوش الشعر . أكثر ما يزعجه هو الغياب التام لمعالم الذكاء من عينيه . أين استطاعت أن تختفى ؟ لم يفهم جون لكنه قرر أن يلقى بالمسئولية على إيلين . عادى .. لولا لم تخنقه بأوامرها صباحا ومساء ، كان يستحيل أن يتركها . ولولا ما حدث لما تمكنت جاكلين من احتواء رأسه، وما تمت عمليات الاختطاف هذه ، ولما ألقى الإسرائيليون القنابل التى تسقط على الأرض المقدسة داخل لبنان .. لا يمكن للقنابل أن تسقط بكل تأكيد ، لكن فى حالة عدم وجوده .

المياه الصدئة الباردة المتساقطة على فترات متقطعة من الدش هونت عليه بعض الشىء . عاد ينظر إلى المرآة ولمح ما يشبه تباشير ذكاء تعود أدراجها بين عينيه . مهما حدث فقد التزم تماماً بتنفيذ اتفاقه مع " سمسرة " . يشهد الله أنه اجتهد قدر استطاعته . اشترى نظارة شمس وغيَّر ملابسه وتخلى عن أسلوبه الإنجليزى التقليدى . لكن كلها محاولات من " سمسرة " لا تتعدى اجتهادات مخبر هاو .

– يجب أن تكون ..

ابتسامة تحمل الرضا ..

- .. كريهًا .. منفرًا . يجب ألا تثير انتباه أي إنسان . أنت لا شيء .. تمر إلى جانب الناس ولا يشعر بك أحد وكأنه لم ير شيئًا ولا يمكن أن يتذكرك ؟ فهمت ؟

طبعًا فهم .. أثناء الاستماع إليها فكر كيف سيتصرف في طريقة سيره الرياضية النشيطة ؟ كيف يمكن التخلص من لمعان لون عينيه ، مع ملاحظة أنها عيون ذكية ؟ بالاختصار كيف يمكن التبرؤ من كل جاذبيته؟

أيام قليلة فقط هي التي انقضت . ماذا يرى؟ أين مشيته الرياضية؟ أين ذهب لمعان عينيه ؟ هل يمكن الادعاء أن هاتين العينين كانتا شعلة ذكاء يومًا ما ؟ خيل إليه أن كل شيء يقف على رأسه . لقد وصل إلى لبنان وهو يطارد د. علي ومجموعته . طلبت منه " سمسرة " البقاء هنا ولا يظهر نفسه لأحد . تتجول هي في المدينة منذ أيام تجمع المعلومات ، ضروري أن تظهر اليوم أخيرا بتقرير عن كل ما أنجزته .

- يمكننا القول إنه .. هنا .. تحت سماء الجنوب الحارقة تكشفت الحقيقة أمام جون . أدرك جون أن ما يخلق تقاربا بين الرجل والمرأة ليس قصة رومانسية ، بل إمكانية حدوث قصة إنسانية ... كان هذا بالضبط هو ما ربطه " بسمسرة " ، وهو إحساس لا يمكن مقارنته بأي شيء آخر .

سمع بعض الدقات . فتح جون الباب ..

- متأسفة .. يبدو أنني أخطأت الحجرة ... جوني ؟!! نعم .. أنا لم أعرفك . هل أنت ممثل موهوب منذ ولادتك ؟ تصور .. أنا لم أعرفك ؟

دخلت " سمسرة " الحجرة بسرعة وهى سعيدة بشوشة ، تقضم تفاحة ضخمة تمسكها بين يديها بصعوبة .

- أعطنى هذه .. هذه ليست على مقاسك .

كان جون يتكلم أثناء تنفيذ إجراء القبض على الفاكهة اللذيذة ، وهو يعض فيها بأسنانه .

- هذه نكتة ؟ .. تقريبا لم أتناول أى طعام اليوم بطوله .

قضم قطعة من التفاحة وأشار لها بيده لتجلس .

- ببساطة لقد أصبحت شخصا كريها !

أبدت ملاحظتها بسعادة وهى تجلس فى مقعد كبير مريح بالقرب من النافذة .

- أعرف .

قالها جون متفاخرا مؤيدا وهو يشعر أنه نفذ واجبه .

- احكِ لى .. ماذا اكتشفتِ ؟ بسرعة !

- لا توجد معلومات بعينها ، لكن عدم وجود معلومات فى حد ذاته معلومة .. أليس كذلك؟

هز جون كتفيه . نكتة صحفية لا مثيل لها . لكنه لا يستقبل هذا الأسلوب، خصوصا أنه أصبح الآن شخصا لا علاقة بينه وبين الثقافة . وسألها بغيظ ..

– هذا هو كل ما أردتِ أن تكلمينى عنه ؟ هل بقيت محبوسا هنا من أجل هذه العبارة ؟ محرومًا من الطعام والشراب ، لم أغلق عينى وأنا أحمى حجرتى من غارات القوات الإسرائيلية .

– أوكى .. اهدأ .. سأحكى لك بالتفصيل . فعلا لقد أقام د. على مع زوجته هنا لمدة أسبوع .. لكن فيما يبدو أنهما غادرا بيروت الآن . إلى أين ذهبا الآن ؟ نيودلهى ليركبا الأفيال ؟ أم القطب الشمالى ليشاهدا طيور البنجوين ؟

" إنها تسخر منى .. أوكى .. " حاول السيطرة على أعصابه .

– وجاكلين ؟

– ها نحن وصلنا إلى أهم شىء . طوال الوقت وأنا أنتظر منك السؤال عن معشوقتك .

مدت " سمسرة " يدها إلى الريموت كونترول وانشغلت بالتليفزيون، كان واضحًا أنها ترغب فى إنهاء الحديث . هذا هو موعد نشرة الأخبار باللغة العربية .

صرخ جون وهو يخطف منها الريموت كونترول ويقذف به على الأرض.

– أغلقى هذا الصوت ! أنا لم أنته من حديثى بعد .

بسخرية : ولماذا كل هذا التوتر .. بسبب امرأة ؟ كم عدد النساء فى حياتك ؟ بعضهن يذهبن وبعضهن يأتين .

ابتسامة خبيثة من " سمسرة " إلى جون

- أنت فقدت عقلك بسبب جاكلين . إذا أردت الحقيقة بجد .. لا أحد يعرف عنها أى شيء فى بيروت أو ..

توقفت وهى تنظر إلى جون بخوف . فى هذه اللحظة بدا جون كالمجنون . فقد جحظت عيناه وهو يقف وسط الحجرة ويشير إلى مكان ما خلف ظهرها بيد مرتعشة ، وإذا به يصيح فى صوت مكتوم ..

- جاكلين ! جاكلين !!

أدارت " سمسرة " رأسها بحذر ، فرأت ما رآه جون من قبل على شاشة التليفزيون . الشرطة تحمل عدة جثث تخرجها من شاليه ، ملفوفة فى أقمشة بلاستيكية ، وعلى الشاشة تظهر صورة جاكلين . على الفور التقطت الريموت كونترول من على الأرض ورفعت درجة الصوت ، كان المذيع يقول شيئا ما ..

وصرخ جون : ماذا ؟ ماذا يقول ؟ انطقى .

- انتظر قليلاً .

أنصتت " سمسرة " بتركيز لكلمات المذيع السريعة .

استعجلها جون : هيا ..

- لا تخف .. جاكلين قتلت ثلاثة رجال بما فيهم زوجها واختفت ، والبوليس يبحث عنها الآن .

كان جون يحاول السيطرة على نفسه بصعوبة هائلة

- قولى .. ماذا أيضًا .. ياللشيطان !

نظرت إليه " سمسرة " بجدية . كيف يمكن أن تخبره باختصار.. ؟

- لقد وجدوا ثلاث جثث فى الشاليه الذى كانت تعيش فيه جاكلين ، زوجها بالإضافة إلى اثنين من الرجال لم يتم تحديد هويتهما . أما جاكلين ..

أحنت عينيها قليلاً

- .. فقد اختفت .. يحتمل أنها اختطفت . يوجد شاهد ما . لكن لم يتم التوصل إلى معلومات عنه ، فهى سرية لصالح التحقيق .

اقترب جون من النافذة . واقتربت منه " سمسرة " ولمست كتفيه بحرص .

- اسمع يا جونى .. لا تقلق .. فهم لم يعثروا على جثتها . هذا يعنى أنها مازالت على قيد الحياة . إذا كانوا قد اختطفوها فهذا يعنى أنه ليس فى نيتهم قتلها . على أى حال .. سأنصرف الآن ..

واقتربت من الباب ..

- سأتجول فى مكان بعينه ، ربما أحصل على بعض المعلومات .

أغلقت الباب خلفها وتركته وحيداً . سقط جون داخل الفوتيل من فرط الإنهاك ، وأمسك رأسه بين يديه .

- يا إلهى ! يا إلهى !

أعاده صوت قادم من الردهة إلى أرض الواقع

- العشاء يا سيدى ! العشاء ..

استدار جون مندهشاً ، فهو لم يطلب شيئا . هل تولت " سمسرة " تدبير هذا الأمر ؟

فتح جون الباب وسمح لفتى يافع بالدخول إلى الحجرة ومعه مائدة بعجل تحمل دورق عصير برتقال وقطعاً من التوست وطبقاً عليه غطاء لامع .

اقترب جون من المائدة . أما الفتى فخرج بعدما انحنى له انحناءة بسيطة. عندما رفع جون الدورق رأى تحته ظرفا صغيرا . فتحه بسرعة. على ركبتيه سقطت ورقة مطوية من الظرف . فتحها جون ووجد عبارة تقول..

" إذا كان يهمك مكان وجود السيدة جاكلين ، فأنا أنتظرك فى الكوفى شوب من الساعة الثامنة مساء . إمضاء صديق " ..

أشعل جون سيجارة . تذكر كلمات رئيسه .. " التدخين ضار بالصحة " . لكن التدخين هو أقل الأضرار للصحة . هذا يعنى أنه يمكن أن يدخن لكن ليس بكثرة . ابتسم جون . وكيف لا أدخن الآن ؟ قولوا لى كيف ؟ كم من الأحداث مرت علىّ فى صباح يوم واحد . فى البداية إلقاء قنابل .. ثم صورة جاكلين فى التليفزيون .. هذان الموقفان متساويان عنده من ناحية النتائج . ليست مصادفة أن يُعرض الحدثان فى أخبار التليفزيون ! فتح الورقة التى كرمشها مرة ثانية ..

" من الساعة الثامنة .. "

لكن متى ؟ بقى أمل واحد وهو أن الكوفى شوب لا يعمل طوال الساعات الأربع والعشرين . يجب أن أبلغ " سمسرة " ..

اتضح أن هذا الكوفى شوب يعمل على مدى الساعات الأربع والعشرين . مستقبل مفرح .. لا تستطيع أن تقول فى ذلك أى شىء . طلب جون قهوة وجلس فى الانتظار .

بدأت الدنيا تظلم كما أخبره المنظر خلف الشباك . لا أحد فى الكوفى شوب إلا هو ورجلان ، يبدو أنهما لبنانيان يلعبان كوتشينة . نظر جون إلى ساعته ثم وقف وخرج إلى الشارع . أسرع فى خطواته . بعدها حدث كل شىء فى الوقت نفسه . أحس بألم فى مؤخرة رأسه وبشرار فى عينيه . آخر فكرة تمسك بها كانت .. " لقد انتظرت حتى النهاية " ..

* * *

استرد وعيه فوجد يديه مقيدتين وفمه مغلقًا بشريط لاصق ، وأنه محبوس فى مكان مظلم . لاحظ جون أن هذا لم يكن آخر ما استوعبه . رأسه تؤلمه . أرجو ألا يكون هؤلاء الأشرار قد أتلفوا أعز ما يملك ، جهاز تفكيره القابع فى رأسه ، والقادر على اختراع الأفكار العبقرية . كان يعتقد أن السمع وحده هو الذى تبقى له من حواسه .

لكن حتى هذه الحاسة لا يستطيع أن يستخدمها بسبب هذا الصمت الذى يلف المكان .

فجأة أضيئت الأنوار وحصل جون أخيرا على فرصة لفحص المكان حوله . جميل .. جميل جدا .. يبدو أننى إنسان محظوظ فعلا . فكلما يتم اختطافى أجد نفسى فى مكان فاخر مريح . سجاجيد .. أثاث .. نجف ..

سمع بعض الخطوات قادمة من خلف الباب . اضطربت أعصاب جون . انفتح الباب ودخل الدكتور على وهو يبتسم مرحبا . حاول جون أن يرسم على وجهه ابتسامة مبادلة . فكر بينه وبين نفسه .. " هل حاول أى إنسان قبلى أن يبتسم وفمه مغلق بشريط لاصق ؟ " . إذا نجوت رغم كل شيء فسأصف للمرضى هذه الطريقة للتخلص من التوتر العصبى . عندما ينزعوا عن فمك .. آه .. أى .. كان يمكن نزعها بحرص .. هذا الشيء الفظيع الملتصق . من الآن ستدخل فى عالم من السعادة وتشعر أن كل شيء على ما يرام .

زمجر جون : أهلا أيها الزميل العزيز .. كم أنا سعيد برؤيتك مرة أخرى ! .

بكل قوته حاول أن يخفى شعوره بالخوف داخله . فيجب ألا يلاحظ أى إنسان ما يعانى منه الآن . أى إنسان ..

د. على ساخراً : أنا سعيد بجد .

- آه .. يا دكتور .. اسمح لى .. أعذرنى أننى أتحدث معك وأنا فى وضع غير مناسب ، وأنا ممدد .. أليس عندكم النية لفك وثاقى ؟

- لا .. لا .. على راحتك .. استرح . عموما أرجو أن تعتبر نفسك فى بيتك .

يبدو أن الدكتور على لم يفهم الإشارة .

جون بعصبية : يا دكتور .. أريد أن أسمح لنفسى بالتعبير عن بعض الدهشة . لقد لاحظت أن عندكم أسلوبا غريبا لدعوة ضيوفكم . لم أقابل مثل هذه المواقف من قبل . أقصد فى المكان الذى أعيش فيه ..

قاطعه الدكتور : أنت لا تعيش هناك .

- هل تعتقد ذلك ؟

سكت جون ..

- لكنى مستريح هناك ويعجبنى المكان . أتمنى أن أعيش ما بقى من حياتى فى إنجلترا وأموت هناك ! .

وراح يشجع نفسه ..

- هكذا .. تماسك يا فتى .. تمام ..

بالفعل كان جون يحاول أن يتماسك من داخله .

ابتسم د. على هازئًا : دعك من هذه الروح الوطنية. عندما تمتلك ثروة ، لا يهم أين تعيش . لكن إذا كنت تريد بلدك إنجلترا ، فيمكننا

دفنك هناك دون أى مشكلة بعدما تنفذ ما نطلبه منك . لكنى أعتقد أن المتوفى لا يهمه بأى حال أين يدفن . لكن بما أنك ميت فى جميع الأحوال ، فسنحترم رغبتك يا سيدى المحترم .

جون بقلق : اسمح لى يا دكتور .. ما ذكرته الآن .. هذا الذى يخص السيد المحترم .. الميت فى جميع الأحوال .. هل يحمل معنى غير مباشر ؟

حاول جون النهوض .

افترش د. على المقعد ومد قدميه أمامه وهو يبتسم .

– سيكون غير مباشر عندما يتم نقلك من هنا إلى القبر .

– أوكى .. أوكى .

يبدو أن جون فهم المقصود ، لكن ابتسامته انسحبت . فى النهاية ليس عنده ميل إلى الدعابة .

– كنت أريد أن أعرف .. يا سيدى ..

لماذا أضاف هذه الكلمة التى تخنقه .. لكنها التربية .. آه من التربية .. لا تستطيع أن تخفيها أبداً ..

نظر الدكتور على فى ساعته . ربما يحسب كم تبقى له فى الحياة حتى يغلقوا القبر عليه . إنه قدر جون . يبدو أن عمره أصبح قصيراً ، لهذا فهو متعجل جدا .

- الآن سيحلون وثاق يديك.

لاحقه جون : وقدمى .

أجابه محدثه الكريه : لا .. قدماك لا تهم .

انتابت جون رغبة أكيدة فى المعرفة

- لأى هدف ؟ لماذا ؟

- يجب أن توقع على بعض الأوراق.

- أى أوراق ؟

- موافقتك على التعاون معنا .

- مع من ؟ .. من أنتم ؟

- أنا أمثل أعظم إنسان على الأرض فى العصر الحديث . أطال الله فى عمره ! .

سرح جون مع أفكاره : " الأمر جد .. سنبدأ عصر الأزمات " ..

ثم ارتفع صوت جون بحدة على طريقة جيمس بوند فى أفلامه

- فك وثاقى .. لقد مللت هذه اللعبة ..

أدرك هو أنه طالما يحتاجه د. على سيظل على قيد الحياة ، وعليه إذن كسب الوقت قدر استطاعته .

طرقع الدكتور على بأصابعه فتحرر جون من وثاقه على يد عملاقين بملابس سوداء .

– وماذا بعد ؟

سأله د. على وهو يضع ساقًا على ساق .

– يبدو أن الحديث معى يشعره بالسعادة نوعًا ما ، فالكثير من الناس يقولون إننى متحدث بارع .. وقد لاحظ جون ذلك فى نفسه .

– بعد ذلك .. سأذهب إلى دورة المياه . عندك مانع ؟

الدكتور على إنسان متفهم بطبيعته فلم يعترض . عدة دقائق وكان جون يقف أمامه مرة ثانية بمرح . فأثناء طريقه أدرك أن هذه وسيلة أخرى جيدة لمكافحة التوتر .

– خلاص ؟

نبرة الدكتور على اعتبرها جون نبرة غليظة وأشعل سيجارة ثم أعلنه بوقاحة

– والآن .. أريد أن أحلق ذقنى.

– سيحلقون لك ذقنك فيما بعد .. دون أن تبذل أى جهد.

جون بإصرار : لكنى أريد أن أحلق الآن وبنفسى.

د. على بغضب : أوكى .. أرجو ألا تكون هذه آخر رغباتك .

فيما يبدو أن ماكينة الحلاقة الكهربائية التى قدموها لجون ، تعمل حسابًا هى الأخرى لأعظم شخصية على الأرض فى العصر الحديث . ثم إنها عندما سخنت أحرقت يده. كان يروق للماكينة ألا تحلق، بل تنتف الشعيرات من جلد وجنتى جون . يبدو أن هذه العملية قد انعكست بوضوح على وجهه ، لأنه عندما عاد إلى الحجرة بصحبة العملاقين ، ألقى د. على نظرة على وجه جون الأحمر وسأل أحد العملاقين بهدوء ..

- ماذا حدث .. هل ضربتماه هناك ؟

أحد العملاقين بغموض : لا .. لقد تكفل بذلك بنفسه.

- ماسوشى ..

هذا التعليق الذى أضافه زميله الأصلع تمامًا ، أجبر جون على احترامه .

" يالذكائه ! إنه يعرف هذه النوعية من المفردات ! " .

جلس جون على المقعد وهو يستعد لعملية مقاومة أخرى ، رغم أنه ليس لديه أى فكرة عن كيفية مقاومة عملاء المخابرات ، عندما يكون هدفك هو حماية حياتك نفسها .

فى صمت جلس هو والدكتور على فى مواجهة بعضهما البعض . وبادر جون بالحديث ، فلم يعد هناك ما يخسره ..

- لماذا تحتاجنى ؟

– لست أنت من نحتاج .. بل رأسك.

– أنا أيضًا أحتاجها لكن فى صورة أخرى.

– ربما .. لكن غير لهجتك ، فالوقت أمامنا ضيق . وتوقف عن الدخول معى فى مباراة خفة الدم ..

فكر جون .. يجب أن أحاول معرفة أى شىء عن جاكلين .. وسأله

– هل رجالك هم الذين قتلوا زوج جاكلين ؟

– لم يكن زوجها.

– لم يكن زوجها ؟

– اتضح أن جنريخ كلب قذر . سلعة تباع لمن يشترى . لقد أوصونى عليه جيدا ، وقد فحصنا أمره بعناية واكتشفنا أنه نظيف . لكن فيما بعد تأكدنا أنه هو وأخته الصغيرة عميلان للمخابرات البريطانية .

أظهر جون دهشة حقيقية . ورغم أنه هو نفسه لم يتوقع ذلك لكنه أضاف ..

– جاكلين عميلة للمخابرات البريطانية!؟ لكنها غبية ورأسها ناشفة! رغم أنها قادرة على تحمل المسئولية .

– لقد فعلت كل شىء حتى تبدو بلهاء . لدرجة أنها كانت تكتب مذكراتها لهذا الغرض ، حتى يتحول من يقرؤها إلى عدو للنساء .

– إذن .. جاكلين على قيد الحياة ؟

– نعم .. حتى الآن ..

رمق الدكتور جون بنظرة فاحصة

– يبدو أننى أغضبتك ؟

جون ساخراً : بالعكس .. الآن وأنا على أعتاب القبر .. يبدو أننى تمكنت من الوقوع فى حبها .

– بالمناسبة .. بمناسبة القبر ..

نظر الدكتور إلى ساعته مرة أخرى ، فتوتر جون .

– .. أصبحت الآن تعرف أكثر مما ينبغى . يمكنك الخروج من هذه الحجرة فى حالة واحدة .. إذا وافقت على التعاون معنا ، فعملنا المتعلق باستخدام العلاج النفسى تعطّل ، ونحن فعلا فى حاجة إلى رأسك . نحن لا نود أبداً أن نفصلها عن جسدك .

خيل إلى جون أن الدكتور على يهزر معه هزارا سخيفا

– ثم ..

وصمت الدكتور لحظات

– .. عندى أسباب شخصية لذلك .. فأنت قد بدأت فى مساعدة زوجتى ..

أبدى جون وجهاً مندهشاً ..

– زوجتك ؟ هل أعرفها أنا ؟

- طبعًا تعرفها .. فهى السيدة التى قدمتها لك على أنها ابنتى .

انتفض جون : ماذا ؟

لقد ساعدتنى على إيقاف تطور مرضها ، لكن الوقت كان ضيقًا ولم نلحق أن نقوِّى فيها .. ماذا يمكن أن نقول .. حالة المرأة الأوروبية . مرة أخرى أصبحت تتصرف كمسلمة صالحة . وهو ما يؤدى إلى مشاكل كثيرة بالنسبة إلىَّ .

- تطلع جون بنظرة متسائلة : وهذا العجوز الذى قابلته فى ذلك اليوم ببيتكم بعد رحيلكم ؟

- فعلا هو والدها . إنه ملعون . لقد غضب للغاية عندما علم أننى أريد تحويلها إلى امرأة أوروبية عصرية ، وأن أثبِّت عندها هذا التحول بالأدوية والتنويم المغناطيسى . هو وشقيقه يطاردانني . جهل . لا يفهمان أنه لا يمكن إيقاف التطور ، ففى يوم ماسى ... وأنت بالذات تعرف أفضل منى كيف يمكن أن نستفيد بذلك .

- لكن .. اسمح لى ببعض الأسئلة الإضافية ..

كان جون يريد أن يكسب وقتًا بأى طريقة ، لأنه متأكد أنه بمجرد رفض التعاون مع هؤلاء الناس ، سيقتلونه حتى لو نفذوا ذلك مع قليل من الأسف . أبدًا لم يفكر جون فى التعاون مع هذا المجنون فى أى حالة وتحت أى شرط. يعرف هو أن ما تبقى له فى هذه الحياة دقائق معدودة. لكن أين جاكلين ؟ كان يشعر أنه مذنب أمامها . كانت إلى جانبه طوال

هذا الوقت ، ولا تستطيع الكشف عن حقيقتها . من يدرى كيف سيتصرف إذا عرف كل شيء ؟ بالتأكيد لم تتصرف هى كما يجب وهى تجره إلى لعبة خطرة . كيف يمكن معرفة نتائج تجارب رجال دكتور على بأى طريقة ، لو لم يرشُّوه بهذا السائل . هذا السائل الذى تشرَّبه من أنبوبة الغاز؟ ابتسم ورفع عينيه ينظر إلى الدكتور على. تبادلا النظرات.. عيون زرقاء فى مواجهة عيون سوداء .. يفصل بينهما الموت أو الخيانة .

– ماذا قررت ؟

وقف الدكتور على واقترب منه حتى كاد يلامسه . نظر جون فى صمت إلى عينيه .

– ماذا قررت ؟ قل لى ؟

جون بصوت خافت : لا

لحظة صمت وأضاف

– أنا إنجليزى .. والإنجليز ليسوا للبيع .

– الكل يباع ..

وضغط الدكتور على على زر معلق فى المنضدة .

– .. الكل يباع تقريبًا . لكن لكل واحد ثمنه . أما هؤلاء الأقلية الذين لا يباعون ، فهم المثاليون والوطنيون وينكسرون لأتفه الأسباب وبالمجان . أهم شيء هو البحث عن نقطة ضعفهم !

دخل الحجرة رجل بملابس سوداء ودون صوت .

سأله الدكتور وهو يغادر مقعده : كل شيء جاهز ؟

- جاهز.

وابتسم دكتور على لجون ابتسامة لطيفة.

- والآن يا صديقي .. عليك أن تختار بمن نبدأ ؟

ساقوا إلى الحجرة جاكلين و" سمسرة " وهما مقيدتان ، وفماهما مغلقان بشريط لاصق عريض . هب جون من مكانه ، لكن أيد قوية أمسكت به فورا وقيدته إلى المقعد. لحظة لقاء بين عيون جون وجاكلين .. " أحبك .. لكن هذا ما حدث " ..

أغمض جون عينيه لحظة .

" أعرف .. وأنا أيضاً أحبك " .. أجابته نظرة جاكلين

أدارت " سمسرة " رأسها ونظرت إليهما . بدا لجون أن الدموع تراكمت في عينيها .

- والآن يا سيد بيسون هل قررت ؟ الآن سنقوم بتعذيب صديقتيك بالتناوب حتى توافق على وقف تعذيبهما . أرجو ألا يساورك أي شك في أننا نجيد هذا العمل تماماً !

بنبرة شديدة البطء ..

- والآن بمن نبدأ ؟

ألقى د. على نظرة جادة على جون .

– فلنبدأ بالسيدة جاكلين نظراً للعلاقة الرقيقة التى تربطك بها . لكن .. لا .. فلنبدأ بالصحفية أفضل . فسوف نوضح على خريطة جسدها ما ينتظر السيدة جاكلين .

أشار بإصبعه تجاه " سمسرة " . أمسك عملاقان بالفتاة وسحباها إلى منضدة وسط الحجرة . حاولت أن تقول شيئًا ما ، لكنها أصدرت بعض الأصوات غير المفهومة بسبب الشريط الملصق على فمها . بسرعة قيدا يديها وقدميها إلى المنضدة حتى استلقت ممددة على سطحها ، ثم أحضرا منضدة صغيرة بالقرب منها تحمل أدوات معدنية . اندفع جون إلى الأمام ، لكنه فقد توازنه وسقط على جانبه مع المقعد . اقترب منه المارد الضخم وركله بقدمه .

أصدر الدكتور على أوامره بسرعة

– احترس .. لا تضربه على رأسه ! ربما يغير رأيه . ارفعا هذا العنيد وضعاه بالقرب منها حتى يرى بنفسه كل شىء . أحضرا بعض السوليفان وإلا سيتلوث كل شىء بالدماء .

على الفور غادر الماردان الحجرة . اقترب الدكتور على من المائدة ، نظر إلى الفتاة وراح يفكر ..

– فلنبدأ بالأصابع ..

بريق مجنون لمع فى عينيه .

العرق يغطى جبهة جون. تحول وجهه إلى اللون الرمادى ! وصاح..

- توقفا ! توقفا فوراً ! ... أنا ...

أصوات ضجيج فى الردهة وخطوات مسرعة .

تمتم الدكتور على باشتياق وهو يمسح على يد " سمسرة " برقة

- أخيراً حضر هؤلاء العاطلون .

انفتح الباب .. على العتبة ظهر والد " الصغيرة " ومعه عدد من الرجال المسلحين .

- يا على .. أريد أن أتكلم معك عن ابنتى .. ستذهب معنا الآن .

انتفض الدكتور على فسقطت الأدوات المعدنية كالمقص والملقاط على السجادة .

- أما أنتم كلكم فيمكنكم الانصراف .

أشار العجوز ليتم تحرير السجناء .

- ابنتى طلبت ألا أمس أيا منكم .

دقيقة واحدة وراح جون يحتضن جاكلين و" سمسرة " .

- هيا يا فتاتىَّ ..

يبذل هو جهدا شاقا للسيطرة على أعصابه .

– هل تريدان الحقيقة ؟ لو استمر ذلك دقيقتين ، كنت سأوافق أن أتعاون معهم .. مع مخابرات أعظم شخصية على الأرض فى العصر الحديث . وستصبحان أحب زوجاتى فى حريمى .

– ماذا ؟

أحس بقبضة تضربه أربع مرات على ظهره .

دخلت " الصغيرة " الحجرة وهى تلتف بعباءة .

– لا .. لا .. يا ابنتى .. ليس لك أى دور هنا . قمنا أنا وإخوتك بحل كل المشاكل . هيا بنا ..

احتضن العجوز الفتاة بحنان . أما هى فسارت وراءه مطيعة . عند الباب التفتت وراءها ونظرت إلى جون ، ثم أحنت له رأسها قليلا . ربما تكون هذه إشارة وداع أو غفران .

الخاتمة

جون

استيقظ جون وتحسس البطانية بيده . جاكلين إلى جانبه . أحس بالراحة وتنهد ثم أغمض عينيه مرة ثانية . اليوم يمر عام على تاريخ زواجهما ، ورغم ذلك لم يتعود جون على وجودهما معًا . لسبب ما تذكر زيارة إيلين له لتقديم التهنئة . من كان يتخيل أنها ستفرح من أجله ؟

ثم إن علاقتها بجاكلين علاقة طيبة جدا ، لدرجة أنها أهدتهما هدية زواج عبارة عن لوحة يعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر . المرأة المرسومة في اللوحة تشبه إيلين تماماً . مر عام على وجود هذه اللوحة فى بيتهما . ربما تكون هى السبب فى رؤيته إيلين فى أحلامه. فى الحلم كانت تطير فوق رأسه كالشبح ، تمد له يدها وتهمس .. " أنت لى ! لى أنا وحدى ! " ..

مرة أخرى استيقظ جون بسبب هذا الحلم . جاكلين نائمة إلى جانبه وامرأة أخرى زارته فى الحلم! . ربما يكون ذلك أمرا طبيعيا عند البعض ، لكن عنده هو لم يكن كذلك . غادر الفراش واتجه إلى الشرفة . أشعل سيجارة . اللوحة معلقة فى عقله باستمرار . ذكرى مهمة مرتبطة بهذه اللوحة التى رسمت فى القرون السابقة . ذكرى لم يستطع تذكرها أبداً . يبدو أن إنسانا آخر يشاركه فى امتلاك الذكريات . حوافر الخيل وضوضاء العجلات فضّا صمت الصباح . نظر إلى أسفل فرأى العربة التى تسير بالقرب من المنزل ، وسيدة مسنة بملابس مزركشة تجلس فيها .

همس جون لنفسه : ما هذا ؟ إنها تشبه الغجرية .. تلك التى .. لكن .. طبعًا .. هى العجوز .

تذكر جون فجأة عندما قالت الغجرية العجوز ، إن سلطة السيدة الشريرة عليه ستنتهى عندما يغرس خنجرا فى صورتها .

اندفع جون إلى المطبخ وأخذ سكينا حامية ، ثم انطلق إلى حجرة الصالون على أطراف أصابعه عند اللوحة المعلقة . عندما مر إلى جانب غرفة النوم ، تلبسته رغبة كاملة فى الاقتراب من جاكلين النائمة و ... خيل إليه أن هناك من يدفعه ويقول له " نفذ الفكرة .." .. أسرع الخطا ودخل غرفة اللوحة المعلقة . إيلين .. طبعًا .. كانت هذه إيلين .

أيتها الجميلة .. أيتها الحبيبة لا يوجد مثيل لكِ .. أنتِ لن تتكررى . فهى سعادته .. وهى قدره . كيف جرؤ على الزواج من امرأة أخرى غيرها ؟! كل أمل جون أن ينام بالقرب من صورتها كالكلب الوفى عند قدمى سيده . من بعيد جاءه صوت ما .. " لن أزعجكما أيها الأعزاء " .. نعم .. نعم .. فلينصرف الجميع . من الضرورى ألا يزعجه أحد ، فهو يريد البقاء عند قدمى إلهته .

انتفض جون واستدار فجأة ، ودفع المائدة المستديرة بما عليها من أوراق الكوتشينة وبعض النقود بكل قوة . سقطت النقود المعدنية وأحدثت ضجة وهى تقع على الأرض وتتدحرج . تأمل جون السكين فى يده وهو لا يفهم شيئا . لماذا يوجد سكين فى يده ؟ وماذا يفعل هنا ؟

مرة أخرى نادته جاكلين

– جون .. ماذا حدث ! .

" نفذ الفكرة .. أنت لى .. "

مرة أخرى يخترق هذا الهمس أذنه بصعوبة .

ضـغط جـون على السكين فى يده بقـوة . مـشى عـدة خطوات فى اتجاه غـرفة النوم ، كمـا لو كان هناك من يدفعه فى ظهـره .. " اغرس السكين فى رسمها " ..

وأخيرا جاءه صوت واضح صريح ..

" سوف تصبح حرا " ..

توقف جون . ..

" لا يا عزيزتى .. من اليوم لن أكون أبدًا كما تريدين أنتِ " ..

جرى ناحية اللوحة وغرس السكين بقوة فى صـدر أجمل النسـاء . أصدر القمـاش صوتا غريبا كأن روحه تخرج منه. هبت ريح على الغرفة. ظهرت جـاكلين بعيـون ناعسـة على البـاب . جلس جـون على الأرض وهو يرفع يده بالسكين .

– مـاذا تفعل هنا يا جون ؟

أجابها وهو يشير بيده إلى اللوحة : أحطم دائرة الشر ..

أدارات جاكلين رأسها

– انظر يا جـون .. يا لها من مـعجزة .. كنت دائمًا أعتقد أن هذه المرأة تشبه إيلين .. أما اليوم .. انظر .. هذه أنا ..

أدار جون رأسه . القماش سليم . ولا آثار للسكين عليه . تجلت أمامه إلهة تنزل السلم الرخامى فى اتجاهه . بإحدى يديها ترفع طرف ثوبها . أما اليد الأخرى فتمدها ناحيته . كانت هذه جاكلين ..

ضلفتا الشباك تتحركان كأنهما جناحا طائر أطلقوا عليه الرصاص . ذهب جون ليغلق الشباك ، فرأى الغجرية تقف تحته . العجوز تبتسم له ، فألقى إليها قطعة نقود معدنية . بهذه البساطة ..

سيطرت عليه رغبة مفاجئة لإلقاء العملات المعدنية فى نهر الزمن الذى يجرى تحت شباكه ، حتى يعود إليه مرة ثانية .. فيما بعد ..

المؤلفة فى سطور

ناتاليا فيكو

* أديبة روسية ولدت فى مدينة لندن فى العاشر من شهر أغسطس سنة ١٩٥٥ ، قضت هناك ست سنوات قبل أن تنتقل مع أسرتها إلى ڤيينا لتقضى هناك أربع سنوات أخرى . ثم استقرت فى موسكو منذ عام ١٩٦٥ حتى وقتنا الحالى .

* أنهت دراستها عام ١٩٧٧ فى المعهد الحكومى "التاريخ والوثائق" بكلية "الوثائق التاريخية" ، وفى ذلك الوقت كان نظام التعليم فى الاتحاد السوڤيتى سابقًا يقضى بأن يضم المعهد عدة كليات ، وبعد انهيار الاتحاد تحولت كل المعاهد سابقًا إلى جامعات حاليًا . وبعد مرور عامين سجلت ناتاليا رسالة الدكتوراه فى قسم "الهيكل الحكومى والمنظومة الاجتماعية فى روسيا قبل الثورة" الذى تحول الآن إلى ما يسمى "الجامعة الروسية للعلوم الإنسانية" . وحصلت على درجة الدكتوراه عام ١٩٨٢ فى زمن قياسى ، برسالة "آليات الإدارة الداخلية لمدينة موسكو خلال الفترة ما بين عام ١٩٠٥ وعام ١٩١٢" .

* عملت في دار نشر "دائرة المعارف السوفيتية" التابعة لمركز الأبحاث الثقافية بوزارة الثقافة السوفيتية سابقًا منذ عام ١٩٧٣ حتى عام ٢٠٠٠ ، لتتفرغ بعد ذلك تمامًا للتأليف والإبداع . وفي الوقت نفسه عملت لمدة ثماني سنوات في دار نشر "الموسوعة الدولية" منذ عام ١٩٩٢ وحتى عام ٢٠٠٠ ، وهناك مارست تخصصها في كتابة المقالات التاريخية خاصة فيما يتعلق بفترة ما قبل الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ، بالإضافة إلى توليها مهمة صياغة وتحرير المقالات بأقلام الكتّاب الآخرين .

* وأخيراً تقدمت للدراسة مرة ثانية في معهد الاستشراق التطبيقي في موسكو ، وحصلت عام ٢٠٠٣ على شهادة دراسية في "علم المصريات" ؛ عشقها الأول والأخير .

* نشرت لها ترجمة كتاب "عناكب في المصيدة" (ثلاث روايات) ضمن إصدارات المشروع القومي للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة سنة ٢٠٠٥ ، العدد ٨٣٧ ترجمة على فهمي عبد السلام ، تحرير نهاد إبراهيم .

المترجم فى سطور

على فهمى عبد السلام

* بكالوريوس الهندسة في الميكانيكا من جامعة الإسكندرية (١٩٧٠) ، وماجستير سباكة المعادن من معهد التبين فى حلوان (١٩٧٢) . ثم دكتوراه الفلسفة فى تكنولوچيا السباكة من معهد موسكو للصلب والسبائك فى روسيا – الاتحاد السوفيتى سابقًا – (١٩٨٠) .

* عين مدرسًا مساعدًا (١٩٨٠) وتدرج حتى أستاذ ورئيس قسم السباكة فى معهد التبين للدراسات المعدنية (١٩٩٢) ثم رئيس تخصص الفلزات غير الحديدية (١٩٩٨) ورئيس قسم هندسة التعدين والفلزات فى المعهد نفسه (٢٠٠٤) .

* مساعد مدير مركز الوثائق الفنية والجامعية فى بعثة التعاون العلمى لسفارة فرنسا (١٩٨٠) .

* مدرس وباحث فى كلية علوم الشمس والأرض والتعدين فى جامعة يولا فى نيجيريا (١٩٨٣) .

المحررة فى سطور

نهاد جمال الدين إبراهيم

* ليسانس اللغة الألمانية والإيطالية من كلية الألسن جامعة عين شمس (١٩٩٢) .

* دبلوم الدراسات العليا للنقد الفنى - تخصص النقد الأدبى - بامتياز (١٩٩٦) .

* الماچستير فى موضوع "شخصية شهر زاد فى الأدب المصرى المعاصر" بامتياز (٢٠٠١) .

* نالت درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى ، فى النقد الأدبى ، فى موضوع "أسطورة فاوست بين مارلو وجوته والحكيم وباكثير وفتحى رضوان - دراسة تحليلية مقارنة" فى المعهد العالى للنقد الفنى ، أكاديمية الفنون سنة ٢٠٠٦ .

* ناقدة مسرحية وسينمائية ، نشرت العديد من المقالات المتخصصة فى المجالات الفنية والجرائد . .

* تشارك فى مهرجانات : القاهرة السينمائى الدولى ، والقاهرة الدولى لسينما الأطفال ، والإسكندرية السينمائى الدولى ، والإسماعيلية الدولى للأفلام التسجيلية والقصيرة ، ولوكارنو السينمائى الدولى ، وبرلين السينمائى الدولى .

* عضو لجنة السينما فى المجلس الأعلى للثقافة ، وفى مكتبة الإسكندرية .

* عضو جمعية نقاد السينما المصريين E.F.C.A. .

من إصداراتها :

* دراما بلا حدود (عن عبد الحى أديب) .

* ديوان "كلام أغانى" ، وديوان "شكلى مش زى الصورة" وكلاهما بالعامية .

* تحرير وتقديم ترجمة كتاب "عناكب فى المصيدة" المشار إليه أنفًا .

* تحرير كتاب "موزاييك الحب والموت" .

* البريد الإلكترونى : nihadibrahim30@yahoo.com

التصحيح اللغوى : آمـــــــال الـديـب

الإشـــراف الفنى : حــــــسن كـــــامل